1/4

مُجاهِدون مَنسيُّون

في التاريخ الحديث

د / محمد بن موسى الشريف

المشرف على موقع التاريخ



مجاهدون منسيون

د. محمد موسى الشريف

الطبعة الأولى

1439هـ - 2018م

رقم الإيداع:
الترقيم الدولى:

مركز إبصار للنشر والتوزيع

القاهرة- العجوزة- شارع المنتصر

محمول: 00201062532813- 01143749293

E.mail: ebsar2015@Gmail.com

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا هو الجزء الثاني من كتاب «مجاهدون منسيون»، وقد ظهر الجزء الأول منذ بضع سنين، وهذا الجزء الثاني خصصته لذكر بعض مجاهدي تركستان الشرقية والمغرب الأقصى.

أما تركستان الشرقية؛ فما أحوج المسلمين إلى معرفة مجاهديهم ودعاتهم وصالحيهم الذين بذلوا الغالي والنفيس من أجل التحرر من الاحتلال الصيني الهمجي، لكنهم ما وُفّقوا لذلك، وسطروا ملاحم عظيمة، وفعلوا كل ما في وسعهم ثم جادوا بأرواحهم في سبيل الله تعالى - فما أحسن ما صنعوا، وما أجمل ما قدموا وعملوا، رحمهم الله.

ويحز في نفسي أن الأكثرية الكاثرة من المسلمين لا تعرف عن تركستان الشرقية شيئًا، ولا عن أهلها الرازحين تحت نيْر الاحتلال الصيني البغيض الذي يسومهم سوء العذاب، بل لا يعرفون أين تقع!!

ومنذ احتلال تلك الديار الكاشغرية لم يقم أحد من المسلمين برفع قضيتهم إلى الأمم المتحدة!! أي منذ سنة ١٣٦٩/ ١٩٤٩ إلى اليوم!! وإنا لله وإنا إليه راجعون، وذلك أن الصين احتلت تركستان الشرقية مرارًا ثم تمكن التركستانيون من الاستقلال، ثم احتلت في المرة الأخيرة ولم تستقل إلى الآن.

وتركستان الشرقية من جنان الأرض، وفيها معادن نفيسة، وثروات جليلة، وهي ذات موقع مهم جدًا، وهي جزء من بلاد تركستان التي تنقسم قسمين شرقية وغربية، وأما تركستان الغربية فهي تنقسم اليوم إلى عدة دول بحسب قبائل الترك: قزقستان، وأوزبكستان، وقيرغيزستان أو قيرغيزيا، وتركمانستان، وقد رزحت تركستان الغربية طويلاً تحت حكم القياصرة الروس الطغاة ثم تحت البلاشفة الروس الملحدين، وفعلوا بتلك الديار كل قبيحة حتى استقلت بعد سقوط الاتحاد السوفيتي الهالك، ولله الحمد والمنة.

وأما تركستان الشرقية فهي موطن الترك الإيجور، وقد نزح جماعة منهم إلى البلاد العربية، ومنهم عدد كبير نسبيًا في الحجاز وخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة والطائف.

والحديث عنهم وعن جهادهم وأبطالهم وعطائهم مهم جدًا في هذا الوقت؛ حتى يبقوا في ذاكرة الأجيال، خاصة أن الصين اليوم تحيط تلك الديار بستار حديدي، وتفعل بأهلها كل سوء ونقيصة، وتعدم الشباب التركستانيين الدعاة العاملين، وتهجِّر بناتهم إلى داخل الصين، وتُخلّ بالتركيبة السكانية بأن هجَّرت ملايين من الصينيين ليقيموا في بلاد التركستان ويزاحموا أهلها وينشروا فيها الكفر وعبادة الأوثان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فما أحوج التركستانيين اليوم إلى نشر تاريخهم، والتعريف بعظمائهم وأبطالهم، ولعل فرجهم أن يكون قريبًا، وأشد ساعات الليل حلكة وظُلمة هو ما كان قبل الفجر.

وأما المغرب الأقصى فهو أيضًا ذو حال غريب وعجيب؛ إذ إن تاريخه ورجاله وعظماءه قد خفوا على الأكثرية الكاثرة من المشارقة، وهذا داء قديم شكا منه ابن حزم الأندلسي، وشكا منه ابن خلدون، لكني أراه أمرًا جاريًا على السنن؛ فما أبعد المغرب عن المشرق!! والمغرب الأقصى في ركن قصي هو أبعد عن المشرق من أوروبا!! وما بأهل المشرق حاجة في الذهاب إلى المغرب، عكس المغاربة الذين تدعوهم حاجة الحج للذهاب إلى المشرق.

والحاصل أن المغرب بقي بعيدًا جدًا عن المشرق في تاريخه، وحال أهله، وفي كل الجوانب.

وأذكر أني في صدر شبابي لما ذهبت إلى فرنسا لدراسة الطيران في مدينة تولوز في مصنع الإيرباص شاهدت المغاربة لأول مرة في حياتي؛ فتعجبت كثيرًا من أحوالهم وعاداتهم، وهذا جرى في العصر الحديث؛ فما بالكم بالأعصر القديمة والأزمنة الخوالي؟!! لا شك أن الجهالة بحالهم كانت هي الأصل عند المشارقة.

وبجامع جهل أهل المشرق بكلا المصرين، التركستان والمغرب، جمعت مجاهديهم في جزء واحد، واشترطت أن يكونوا من مجاهدي التاريخ الحديث، الذي سرت على طريقة من حدده بدخول نابليون إلى مصر والغزوة الهمجية الفرنسية للديار المصرية سنة ١٢١١/١٧٩٨؛ وذلك أن هذا التاريخ كان بداية أول اتصال حقيقي شامل بين المسلمين العرب وأوروبا. فلذلك عَدّ كثير من المؤرخين بداية العصر الحديث هو سنة تلك الحملة وزمن تلك الهجمة، التي يفتخر بها التنويريون اليوم!! ويرون أنها جاءت لإنقاذ مصر والمشرق من ظلام القرون الخوالي، وما عرفنا الظلام إلا من أوروبا التي دمرت ديار الإسلام: أرضهم وعساكرهم ودينهم وعقائدهم وأخلاقهم، وسرقت ثرواتهم وفعلوا بهم كل قبيحة ونقيصة، ومن العجب أن تجد تنويريي اليوم يفخرون بمحتل الأمس، وهل يفخر المحتل بمن احتله؟!! لكنه الهوان الذي سيطر على الناس، والبعد عن الإسلام الذي ابتعده أولئك التنويريون الظلاميون!!.

هذا والله تعالى أعلم وأحكم، وأجلّ وأعظم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

كتبه حامداً مصلياً

العبد الضعيف

محمد بن موسى الشريف

mmmalshareef@hotmail.com

www.altareekh.com

http://www.youtube.com/maltareekh

FACEBOOK: **د. محمد بن موسى الشريف**

Twitter: DRMOHAMMEDMH

●●●



[١]

المجاهد البحري

عروج

[٨٧٥-٩٢٤]

[١٤٧٠-١٥١٨]

المجاهد البحري: عروج ٢/١

لله تعالى جنود عظماء يبرزون عندما يأذن الله سبحانه، في الوقت الذي يشاء ويريد، لا في الوقت الذي نشاؤه نحن ونريده، وهؤلاء الجنود يعملون أعمالاً جليلة عظيمة، وينفع الله تعالى وجل وعز بهم نفعًا يتعدى مأمول العباد، ويكون وراء مطالبهم، وأكثر من أمانيهم، وأعظم من طموحاتهم، ومن هؤلاء الجنود المجاهد البحري العظيم عَرُوج العثماني الذي يعد من أهم القادة البحريين في القرن العاشر الهجري زمن السلطان بايزيد الثاني وابنه سليم الأول، وإليه الفضل - بعد الله تعالى وجل وعز - في تنظيم حركة الجهاد البحري بعد أن كانت جهودًا فردية مبعثرة.

ولد عَرُوج سنة ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م في جزيرة (ميديلي)، وتتبع اليونان اليوم، واسمها (لسبوس)، وقد فتحها السلطان محمد الفاتح رحمه الله تعالى، وكان أبوه أحد الفرسان الذين استجابوا لأمر السلطان محمد الفاتح للأتراك بالاستيطان في الجزيرة عقب فتحها، ويسمى يعقوب أغا، وتزوج امرأة رومية من الجزيرة أنجبت له أربعة أبناء هم: إسحاق، وعروج، وخضر، وإلياس، وخضر هذا هو الذي اشتهر بعد ذلك بخير الدين بربا روس، وسآتي على قصته في حلقة أخرى، إن شاء الله تعالى.

وحُبب إلى عروج ركوب البحر والتجارة بين البلاد، واقتنى سفينة تساعده في رحلاته، فقصد مرة طرابلس الشام مع أخيه الأصغر إلياس فاعترضته سفن فرسان رودس، وعلى إثر معركة جرت بينهما قتل أخوه إلياس، وأسر هو وأُخذ إلى رودس مقيدًا بالسلاسل فمكث في السجن بضع سنين.

وحاول أخوه باربا روس أن يخلصه من الأسر فأرسل أحد التجار الأوربيين إلى رودس ليفتديه، لكن آسريه لما علموا منزلته بين أهله رفضوا قبول الفدية وضاعفوا من عذابه والأغلال التي تقيده ورموه في زنزانة تحت الأرض، وفي إحدى الليالي أكثر من مناجاة الله تعالى وبكى ودعا في زنزانته بأن يخلصه الله تعالى حتى غلبه النوم فرأى شيخًا مشرق الوجه قال له: «**يا عروج؛ لا تحزن بسبب ما أصابك من الأذى في سبيل الإسلام، فإن خلاصك قريب**».

وفي اليوم التالي أشار أحد قباطنة رودس عليهم بأن يخففوا من تعذيب عروج وخوفهم من العواقب بسبب غضب الأتراك، فأخرجوه ليعمل في إحدى السفن في البحر، وفي تلك الأثناء كان الأمير كوركوت أميرًا على أنطاليا، وهو ابن للسلطان بايزيد وأخ للسلطان سليم الأول العثماني، وكان من عاداته كل سنة أن يفك أسر مائة أسير تركي في سبيل الله وذلك من فرسان جزيرة رودس خاصة، فاختار الروديسيون مائة أسير لم يكن عروج من بينهم، لكنه كان يعمل في التجديف مقيدًا في السفينة التي نقلتهم، فلما رست السفينة في مكان قريب من أنطاليا نزل الأسرى المائة ومعهم مبعوث الأمير كوركوت، فهبت ريح معاكسة لم تمكن الروديسيين من الإبحار، وعم الظلام، وانشغل عنه الروديسيون بصيد السمك، فاستطاع عروج أن يحل قيوده ويقفز من السفينة ويسبح ناجيًا إلى البر، فلما وصل سجد شكرًا لله تعالى، ثم استطاع الوصول إلى أنطاليا، وهنالك وجد بحارًا يملك سفينة يتاجر بها بين الإسكندرية وأنطاليا فاشترك معه في إدارة السفينة ووصل إلى الإسكندرية، وأرسل إلى أخيه خير الدين يبشره بالخلاص من الأسر، ثم اجتمع به بعد ذلك بعد فراق طويل.

وفي أحد الأيام قال عَرُوج لأخيه:

«لقد رأيت في الليلة الماضية رؤيا صالحة، رأيت ذلك الشيخ ذا اللحية البيضاء الذي بشرني بالنجاة عندما كنت أسيرًا في رودس يقول لي: «يا عروج؛ توجه إلى الغرب، إن الله قد كتب لك هناك كثيرًا من الغزو والعز والشرف»، وهذه الرؤيا جددت عزمه على الجهاد فأوقع بالكفار في مواطن عديدة، ولما وصل خبر جهاده وجهاد أخيه خير الدين إلى السلطان سليم دعا لهما قائلاً: «اللهم بيِّض وجهَي عبدَيك عَرُوج وخير الدين في الدنيا والآخرة، اللهم سدد رميتهما، واخذل أعداءهما، وانصرهما في البر والبحر»، وأرسل لهما هدايا كثيرة وسفينتين.

كان البرتغاليون في تلك الأثناء يفسدون المسالك البحرية للمسلمين إلى الهند فيعتدون على سفنهم التجارية، ويتعرضون للحجاج فيأسرونهم ويقتلونهم، ويعتدون على السواحل الإسلامية في الهند وشرق إفريقيا، فأراد سلطان المماليك في مصر قانصوه الغوري أن يدرأ خطرهم، فعين عروج قائدًا للأسطول المملوكي لشهرة عروج آنذاك، وأرسل عروج في ست عشرة سفينة إلى ميناء باياس في خليج الإسكندرون

ليحمل من هنالك أخشابًا تساعده على صنع أربعين سفينة تكون نواة للأسطول المملوكي، لكن الروديسيين علموا بذلك فحاصروا عروج بأسطول كبير دمر سفنه، لكنه تمكن من الهرب، ومن أجل أن ينتقم منهم صنع سفينة متوسطة الحجم صار يغير بها على سواحل رودس.

ولأجل معرفة مدى التوفيق الذي حالفه في صنيعه أسوق نصًا لرئيس دولة رودس ويلقب الأستاذ الأعظم:

«لقد ظهر قرصان يُدعى عَرُوج رئيس، يملك سفينة ذات ثمانية عشر مقعدًا لا يكاد ينجو منه أحد، إنه يقوم بالاستيلاء على أموالنا وإحراق بلادنا، وكثيرًا ما يأسر أطفالنا ويأخذهم إلى طرابلس الشام، حيث يبيعهم في أسواقها حتى صرنا لا نقدر على ركوب البحر خوفًا من شره، لقد كنت حذرتكم وقلت لكم: لا تخرجوا هذا التركي من الزنزانة من تحت الأرض، لكنكم لم تسمعوا قولي فأخرجتموه وجعلتموه جدافًا في السفينة، هيا اذهبوا وتخلصوا منه بسرعة»، فبحث عنه الروديسيون في كل مكان إلى أن وجدوا سفينته راسية في أحد المراسي فأحرقوها، لكن عروج تمكن من الهرب إلى أنطاليا، وأخذوا سفينة عروج إلى ميناء رودس وأعلنوا فرحين أنها سفينة عروج، لكن الأستاذ الأعظم صرخ بغيظ: «نعم، هذه السفينة لعروج، لكنه ليس موجودًا فيها».

كان لعروج صديق يُدعى بيالة بيه، فشفع له لدى الأمير كوركوت أخي السلطان سليم أن يعوضه سفينة أخرى، ففعل الأمير، وأعطاه بيالة سفينة ثانية هدية، وأسوق النص المبين لجهاد عروج فقد قال بيالة للأمير:

«إن عروج رئيس عبد من عبيدكم المجاهدين، وهو يقوم بمجاهدة الكفار ليلاً ونهارًا. لقد انتصر عليهم في معارك كثيرة غير أنه فقد سفينته وهو يرغب في أن تتفضلوا عليه بسفينة يغزو عليها».

استلم عروج السفينتين وصار يجاهد بهما الكفار في البحر الأبيض المتوسط، وتعرض لسفن البندقية فاستفاد منها غنائم كثيرة من الأموال والأسرى والطعام ومواد البناء والحيوانات، وجدد صلته بسلطان مصر، واعتذر له عن احتراق المراكب؛ فعذره السلطان وأكرمه.

وصار عروج يبيع الغنائم في موانئ تونس، واتصل بملكها الذي أكرمه وأخاه خير الدين، وسمح لهما ببيع غنائمها في موانئ تونس على أن يكون للدولة ثمن الغنائم، وجعلا ميناء حلق الوادي في تونس مقرهما الرئيس، واستمر الأخوان في جهادهما البحري يذيقان الكفار الألم الموجع، وقد عبر عن ذلك بعضهم بقوله:

«لقد ظهر تركيان اسمهما عَرُوج وخير الدين خضر، يجب أن نسحق هاتين الحيتين قبل أن تتحولا إلى تنين، علينا أن نمحو اسميهما من على وجه الأرض، إننا إذا أتحنا لهما الفرصة سوف يسببان لنا متاعب كثيرة».

وانتشر جهاد عروج في سواحل إسبانيا والبندقية وجنوة وفرنسا، وتعرض لسفن كل دولة لا تربطها معاهدة مع الدولة العثمانية.

ويكفي عروج شرفًا أنه استطاع بغزواته تلك في البحر أن يؤمن كثيرًا من سفن الحجاج البحرية، ويردع الأوربيين المجرمين الذين كانوا كثيرًا ما يعترضون سفن الحجاج، ويأسرونهم، ويبيعونهم رقيقًا، أو يقتلونهم، واستمر أخوه على هذا المسار بعد استشهاد عروج، فحمى الله تعالى بهما الحجاج إلى بيت الله الحرام.

ومما صنعه عروج ويكتب له بمداد من نور - إن شاء الله تعالى - أنه وأخاه خير الدين وبعض رؤساء البحر العثمانيين نقلوا مئات الآلاف من مسلمي الأندلس سرًا إلى سواحل شمال إفريقيا، وأنقذوهم من استعباد الإسبان لهم، ومنعهم إياهم من إظهار شعائر دينهم وشرائعه، واستطاع بفضل الله تعالى أن ينقل قرابة ٧٠ ألف مسلم من الأندلس إلى الجزائر، فازدهرت الجزائر لمهارة الأندلسيين المنتقلين إليها في فنونهم وصناعاتهم.

والمؤرخون الصليبيون يسمون عروج وأخاه ومن معهم قراصنة، وحاشاهم فما كانوا قراصنة، فالقراصنة يسرقون ويقتلون لأجل المال، بل كانوا غزاة مجاهدين، سعوا لتخليص بلاد المسلمين في شمال إفريقيا من الاحتلال الإسباني، وتخليص الأندلسيين المضطهدين من الأسر، فهل هذه الأفعال أفعال قراصنة، لكن القراصنة الحقيقين كانوا من الأوربيين الذين ملأوا البحر الأبيض المتوسط شرًا وسرقة ونهبًا وقتلاً، ولكن ما الحيلة في المؤرخين الصليبيين وإخوانهم المستشرقين الذين يحرصون على أن يصفونا بما هو بهم ألصق وأولى، ولا ننسى المثل العربي: «**رمتني بدائها وانسلت**».

المجاهد البحري: عروج ٢/٢

الجهاد في الجزائر:

كان لعروج أياد بيضاء في الجزائر، وعمل على تخليصها من الاحتلال الإسباني، والذي جعله يبدأ هذا الجهاد رسالة وصلته من أهل بجاية جاء فيها:

«إن كان ثمة مغيث فليكن منكم أيها المجاهدون الأبطال، لقد صرنا لا نستطيع أداء الصلاة أو تعليم أطفالنا القرآن الكريم لما نلقاه من ظلم الإسبان، فها نحن نضع أمرنا بين أيديكم، جعلكم الله سببًا لخلاصنا بتسليمه إيانا إليكم، فتفضلوا بتشريف بلدنا، وعجلوا بتخليصنا من هؤلاء الكفار».

فابتدأ عروج وأخوه سلسلة من الهجمات على ميناء بجاية، وفعلوا بالإسبان الأفاعيل حتى فتحها أخوه خير الدين بعد ذلك، وبداية تلك الغزوات أنه هاجم بجاية وقتل ثلاثمائة أسباني وأسر مائة وخمسين، واستولى على عشر سفن، وكاد يستولي على القلعة، لكنه أصيب في ذراعة بقذيفة ففقد وعيه وحُمل إلى تونس.

فلما رأى أهل تونس ما حل به بكوا عليه، وعرض أخوه خير الدين على الأطباء العرض التالي: «من يقوم بإنقاذ ذراع عروج فإني سأكافئه بوزنه ذهبًا، وأهب له عشرة أسرى يختارهم من أيهم شاء»، لكن الأطباء قرروا قطع ذراعه فقطعوها، فلما بكى عليه أخوه قال: «لماذا تبكي؟ هذا قضاء الله وقدره. إني أحمد الله على أني فقدت ذراعي في الغزو، تكفيني هذه النعمة». وهذا النص دال على صبر عروج وتسليمه، رحمه الله تعالى، وهكذا ينبغي للمؤمن الصادق أن يكون.

وبعد هذه الحملة على بجاية عمد عروج إلى فتح جيجل، وكانت تحت حماية حامية إيطالية من (جنوة) منذ قرنين ونصف تقريبًا، وتبعد ١٢٠ ميلاً غرب بجاية، واستطاع عروج بفضل الله تعالى ثم بمساعدة أهالي المدينة أن يدخل جيجل سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٤م، وحررها من أعداء الإسلام، ووطد أقدامه في المدينة، ثم في السنة التالية حاصر بجاية للمرة الثانية بجيش يبلغ عشرين ألف مجاهد لمدة ثلاثة أشهر لكنه لم يستطع تحريرها، ثم في السنة التي تلتها سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٥م حاصر بجاية للمرة الثالثة برًا وبحرًا، وجرت

معركة عنيفة جداً قُتل فيها كثير من جنود عروج، ونفد البارود، فأرسل إلى سلطان تونس الحفصي يطلب البارود فرفض وتجاهله!! وإنا لله وإنا إليه راجعون، فاضطر للانسحاب، وسبب موقف السلطان الحفصي التونسي هذا سأبينه لاحقًا إن شاء الله تعالى عندما أتحدث عن سيرة خير الدين باربروس أخي عروج.

واتصل عروج بعد انسحابه بالسلطان سليم الأول العثماني بأن أرسل له رسالة يشرح فيها ما يتعرض له هو وأخوه من الصعوبات بسبب جهادهما النصارى، وأرسل له بعض الهدايا، فكافأه السلطان سليم بإرسال أربع عشرة سفينة محملة بالرجال الأشداء المجاهدين والذخائر والمعدات، فساعدت هذه المعونة المجاهدين على استعادة قوتهم، وكان هذا الاتصال بين عروج والسلطان سليم بداية قوية لتعاون طويل بين العثمانيين والأخوين عروج وخير الدين.

دخول الجزائر العاصمة:

كانت الجزائر العاصمة تحكم من قبل رجل يسمى سالم التومي، وكان أمامها في البحر جزيرة قريبة جداً من ساحلها فيها حامية إسبانية تخوف منها أهل الجزائر، وتسمى حصن البنيون، وطلب الأهالي من عروج أن يأتي إلى الجزائر لحمايتهم، وفعلاً خف عروج وخير الدين في قوات برية وبحرية، ودخلا الجزائر وسط ترحيب الأهالي، وسار عروج فوراً إلى بلدة شرشال وطرد الإسبان منها، ثم رجع إلى الجزائر، فاجتمع زعماء الجزائر وأهل الحل والعقد، وقرروا تنصيب عروج أميراً للجهاد في الجزائر، وذلك سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م.

وهنا تخوف حاكم الجزائر سالم التومي من عروج وقام بالاتصال بالإسبان، فعلم عروج فقتله ونشر سلطانه في المدينة، فقام يحيى بن سالم التومي بالاتصال بالإسبان وخوفهم من عروج، فبادر الإسبان إلى تنظيم حملة على الجزائر شاركهم فيها الخونة من الأعراب ويحيى بن سالم التومي ومن معه، فحاصره الإسبان من البحر بجنود كثيرة، فبات ساجداً يدعو الله تعالى أن يمن عليه بالنصر، وأنزل العدو عشرة آلاف إلى الساحل، وأبقى جنوداً في سفنه الأربعين التي حاصرت الجزائر، وفي ليلة من الليالي خرج عروج خفية من قلعة الجزائر في ثلاثة آلاف مجاهد، والتف خلف العدو، وكانت ليلة عاصفة مظلمة ففوجئ به الإسبان، فاستعانوا عليه بإنزال الجنود الذين بقوا في السفن

فصار عددهم حوالي خمسة وعشرين ألف جندي، فخرج من قلعة الجزائر ألفان من المجاهدين عاونوا عروج، وأنزل الله تعالى نصره، وأُبيد جُل جنود الكفر، وأسر ألفان وسبعمائة بحمد الله تعالى، وهكذا نشر عروج سلطانه على الجزائر العاصمة وجيجل وشرشال ومستغانم، وكلف أخاه خير الدين بإدارة شرق الجزائر وأدار هو غربها.

كان بعض أمراء العرب في الجزائر من الخونة المتعاونين مع الإسبان، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وكان حكام تلمسان على رأس هؤلاء، فقام ابن أخ حاكم تلمسان بالاستيلاء على مدينة تنس في الجزائر بمعاونة الإسبان والأعراب، فغاظ ذلك عروج فاستفتى علماء الجزائر قائلاً: «أيها السادة؛ ما حكم الشرع فيمن تمالأ مع الكفار الإسبان وبايع ملك إسبانيا الذي سار لقتل إخواننا في الدين وقابل نصحنا بالكنود؟» فأفتاه العلماء بأن قتله واجب، ودمه هدر، وماله مباح، فسار عروج إلى تنس واستطاع دخولها سلمًا، بعد أن قام السكان بتقييد ابن أخ حاكم تلمسان وسلموه إلى عروج فقتله جزاء خيانته، وقتل بعض رؤساء العرب المتمالئين معه، وذلك سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م.

ثم قرر أن يمضي إلى تلمسان ليقضي على رأس الحية هنالك، وقد كانت تلمسان مدينة داخلية ليست على ساحل البحر، وفيها آلاف من الأعراب والإسبان يعاونون حاكمها، وتعد أكبر مدينة في الجزائر وأقواها، وفي أثناء تفكير عروج بغزو تلمسان ثار أهلها على سلطانها أبو حمو الثالث ففر منهم، فأرسل الأهالي إلى عروج يدعونه إليها وبايعوه سلطانًا عليهم، ودخل عروج المدينة وأقام بها في فصل الشتاء، ولم ينسَ حاكم تلمسان ما جرى فجمع حوله قطاع الطرق من الأعراب، وأرسل إلى حاكم وهران - وكان فيها الإسبان - قائلاً: «لقد وقعت في أيدي القراصنة الأتراك، ولم أتمكن من استخلاص أموالي من أيديهم، فأين شوكة وعظمة مَلككم؟ هل يعقل أنكم صرتم لا تستطيعون أن تخرجوا رؤوسكم خوفًا من حفنة من القراصنة؟»، وهذه خيانة لله ولرسوله والمؤمنين.

واستجاب حاكم وهران لطلب الخائن وأرسل له عشرة آلاف جندي بقيادة (مارتين دي أرغوت)، وجمع الخائن حوله عشرين ألفًا من الأعراب والبربر فصاروا ثلاثين ألفًا وتوجهوا إلى تلمسان، وهنا قرر عروج أن يخلي المدينة ويعتصم بالقلعة، وأرسل له أخوه خير الدين ألف جندي تركي وألفي فارس عربي، وجعلهم تحت إمرة أخيهما إسحاق، فلما علم عروج بذلك خرج من القلعة لجمع قوته إلى القوة القادمة فسقطت تلمسان بيد

حاكمها المخلوع، لكن بقيت القلعة بيد عروج، فحارب عروج الخائن ومن معه من الجنود الإسبان والعرب فانتصر عليهم، لكن ملك إسبانيا أرسل رسالة إلى حاكم وهران يقول فيها: «إذا كنت تريد أن تحتفظ برأسك فعليك أن تقضي على عروج رئيس وجميع من معه من الأتراك، يجب أن ترسل إليَّ عَرُوج حيًّا إلى إسبانيا وأنا أعرف القتلة التي أذيقه إياها».

وبناء على ذلك أرسل حاكم وهران جيشًا عدده أكثر من ثلاثين ألفًا إلى تلمسان، ووقعت معارك صعبة دامت قرابة ثلاثة أشهر، ثم عرضوا على عروج أن يكون له ولجنده الأمان ويسلم القلعة، فاستشار جنوده فأشاروا إليه أن يخرج ويسلم القلعة ويعود إلى الجزائر ثم يعود لقتالهم، ففعل عروج، لكنهم ما إن ساروا قليلاً إلا واجتمع عليهم قرابة عشرين ألف جندي إسباني ناكثين بوعدهم، وكان مَن معه من الأتراك أقل من ألف وكانوا منهكين من الجراح والتعب، وحانت لعروج فرصة للهرب، لكنه لم يطق أن يسمع استغاثات جنده به ويدعهم ويهرب، فعاد وغمس نفسه في الأعداء وقتل منهم مائة قبل أن يسقط شهيدًا في ميدان الشرف والعز والجهاد، وذلك سنة ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م عن أقل من خمسين سنة من عمره المبارك.

فلله در عروج، فقد وهب حياته لله، فلم يتزوج لانشغاله في الجهاد في سبيل الله تعالى، وكان يوزع الغنائم على بحارته وجنده، ويوزع جزءًا كبيرًا منها على الفقراء والمساكين، وخرج من الحياة بعد أن أبلى بلاء حسنًا عظيمًا، وخلَّص عددًا من مدن الجزائر من الاحتلال الإسباني، وثبت سيطرة العثمانيين على البحر الأبيض المتوسط، وأنشأ قوة جهادية بحرية كبرى، ومن أحسن ما صنعه أنه أحيا الجهاد في الشمال الإفريقي بعد أن استولى البرتغاليون والإسبان على جُل المدن الساحلية في المغرب العربي الكبير وسط توان وضعف وهوان من أهل الإسلام، وخيانة من قبل عدد من حكام بلاد الإسلام، وضعف عقيدة الولاء والبراء في قلوبهم، والعياذ بالله، فما أعظم ما قام به عروج رحمه الله تعالى[1].

وفي الحلقة القادمة -إن شاء الله تعالى- سأتي بشيء من التفصيل على ذكر أخي عروج، وهو خير الدين باربا روس الذي يُعدّ المكمل لجهاد عروج، بل هو أعظم من أخيه جهادًا، وطال عمره وحسن عمله، إن شاء الله تعالى.

---

(١) مصدر هذه الدراسة الرئيس هو كتاب «مذكرات خير الدين بارباروس»، ترجمة د. محمد دراج، ثم كتاب «أمير الجهاد: خير الدين بارباروس» للأستاذ بسام العسلي، وهناك مصادر أخرى اعتمدت في هذه الدراسة.



[٢]

خير الدين بارباروس

سيد البحار

[٨٧٧ - ٩٥٢]

[١٤٧٢ - ١٥٤٦]



سيد البحار: خير الدين بارباروس ١/ ٤

للمسلمين سادة وقادة بحريون مجاهدون كان لهم أثر جليل عظيم في إيقاف هجمات الصليبيين في القرن التاسع والعاشر الهجريين / الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، على سواحل إفريقيا الشمالية، وفعلوا بالكفار الأفاعيل، وأمنوا طرق الحجاج في البحر، وأحيوا روح الجهاد بعد موات طويل من قبَل المسلمين حتى استولى الصليبيون على جُل المدن الساحلية في المغرب العربي الكبيرَ من طرابلس إلى سبتة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

لكن سيد أولئك المجاهدين جميعًا كان هو البحار العثماني المجاهد خير الدين بارباروس، وهو أشهرهم مطلقًا وأشدهم فتكًا، وممن جمع بين الجهاد البحري والولاية والحكم؛ فقد كان حاكمًا عامًا للجزائر من قبَل الدولة العثمانية، ولقبه بارباروس لقبه به الأوربيون ومعناه ذو اللحية الحمراء، أما لقبه خير الدين فقد لقبه السلطان سليم الأول.

ولد في جزيرة (ميديلي) ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م، وقد فتح السلطان العثماني محمد الفاتح هذه الجزيرة، وبقيت تابعة مدة طويلة للسلطنة العثمانية، ثم هي اليوم تابعة لليونان وتسمى (لسبوس)، وكان أبوه يعقوب جنديًا عثمانيًا، وتزوج امرأة من بنات الجزيرة وأنجب منها أربعة أبناء: إسحاق، وعروج، وخيرالدين واسمه خضر لكن شهرته بخير الدين طغت على اسمه، وإلياس، وحُبب إلى خير الدين البحر فكان يتاجر فيه بين بعض المدن البحرية العثمانية.

أسر أخوه عروج، وحزن عليه كثيرًا، وحاول بكل ما استطاع أن ينقذه من الأسر فما قدر على ذلك، لكن أخاه استطاع أن يحرر نفسه بنفسه - كما ذكرت في الحلقة الخاصة به - وتقابلا في جزيرة جربة التونسية، وهناك قال خير الدين: «ما دام الموت هو نهاية كل حي فليكن في سبيل الله»، وكانت هذه الجملة الرائعة بداية جهاد بحري طويل منظم ابتدأه الأخوان خير الدين وعروج، رحمة الله تعالى عليهما، ودخلا على سلطان تونس الحفصي وقالا له:

«نريد أن تتفضل علينا بمكان نحمي فيه سفننا بينما نقوم بالجهاد في سبيل الله، وسوف نبيع غنائمنا في أسواق تونس فيستفيد المسلمون من ذلك وتنتعش التجارة، كما ندفع لخزينة الدولة ثمن ما نحوزه من الغنائم».

فرحب السلطان بهذا العرض وفتح لهما أبواب بلاده، لكنه بعد ذلك غمره التخوف منهما، وعمل على منعهما من سواحل تونس، على أن خير الدين لم يخلّ بشرطه مع سلطان تونس أبدًا، الذي خاف من أن يستولي خير الدين وعروج على تونس.

كان خير الدين ميمون النقيبة، حسن الجهاد، كثيره، انتصر في معظم معاركه الحربية البحرية التي خاضها، وحصل من الكفار على غنائم هائلة، مما دعا بعض الأوربيين للقول:

«لقد ظهر تركيان اسمهما عروج وخيرالدين خضر، يجب أن نسحق هاتين الحيتين قبل أن تتحولا إلى تنين، علينا أن نمحو اسميهما من على وجه الأرض، إننا إذا أتحنا لهم الفرصة سوف يسببان لنا متاعب كثيرة»، لكن هؤلاء الكفار لم يستطيعوا القضاء على خير الدين على كثرة الحروب التي كانت بينهم، ولله الحمد.

لم يكتفِ خيرالدين بمهاجمة سفن الكفار بل، عمل ثلاثة أعمال عظيمة:

١- خلص عشرات الآلاف من مسلمي الأندلس، ونقلهم إلى سواحل الجزائر وغيرها.

٢- خلّص الجزائر من الاحتلال الإسباني.

٣- حارب الحكام الخونة في الجزائر وتونس.

وفي مسلمي الأندلس قال خير الدين:

«كان الإسبان يقومون بمظالم كبيرة في حق المسلمين الذين كان الكثير منهم يعبدون الله سرًا في مساجد سرية قاموا ببنائها تحت الأرض، لقد دمر الإسبان وأحرقوا جميع المساجد، وصاروا كلما عثروا على مسلم صائم أو قائم عرضوه وأولاده للعذاب والإحراق، خلال ذلك قمنا بحمل عدد كبير من المسلمين في السفن وإنقاذهم من أيدى الكفار، ونقلهم إلى الجزائر وتونس».

وكان يُجهد نفسه من أجل مسلمي الأندلس فإذا وصلوا إلى الجزائر قام بإسكانهم في أراض وهبها لهم ليستصلحوها؛ فقد كانوا عمالاً مهرة.

وأما العملان الآخران العظيمان: محاربة الحكام الخونة، وتخليص الجزائر من الاحتلال الإسباني فقد حصلا تحت الراية العثمانية.

فقد اتصل خير الدين بالسلطان العثماني سليم الأول، وأرسل له رسالة تبين نجاحه وأخيه في الغزوات البحرية، فما كان من السلطان إلا أن رفع يديه ودعا لهما قائلاً: «اللهم بيِّض وجهَي عبدَيك عروج وخير الدين في الدنيا والآخرة، اللهم سدد رميتهما، واخذل أعداءهما، وانصرهما في البر والبحر»، وأرسل له ولأخيه سفينتين بحريتين عظيمتين، وسيفين محلين بالماس، ولباسين سلطانين، ونيشانين، ورسالة همايونية، فلما استلم خير الدين الرسالة قبلها سبع مرات ووضعها على رأسه، وأرسل السلطان سليم خان رسالة إلى حاكم تونس يوصيه فيها بخير الدين وعروج، وهكذا صار خير الدين وعروج تابعين للسلطنة العثمانية، وأُلبس خير الدين حُلَّة السلطان وسيفه في احتفال عظيم بتونس، وهذا الذي أثار خوف سلطان تونس منه ومن أخيه عروج؛ لأنه ظن أنهما سيأخذان منه تونس ويلحقانها بالسلطنة العثمانية.

أما الجزائر فقد عمل خير الدين وأخوه عروج على تخليصها من الاحتلال الإسباني، وفي بجاية جاهد الأخوان جهاداً جليلاً حتى فتحوها، وقصة فتحها بإيجاز أن خير الدين اتجه إلى بجاية في عشر سفن وألفين وثلاثة وثلاثين بحاراً، ومائة وخمسين مدفعًا وأسرى يجدّفون، وحاصر قلعة بجاية تسعة وعشرين يومًا، لكنه لم يتمكن من فتح القلعة، ووصل الخبر إليه بأن قوات إسبانية كبيرة تحركت من جزيرة ميورقة تريد نصرة المحاصرين في بجاية، فانسحب إلى جيجل يترقب سفن الإسبان، فظهرت لهم عشر سفن كبيرة مشحونة بالأسلحة والمعدات، فهجم عليها وهو وأخوه عروج وبحارتهما مهللين مكبرين، وانتصر على الإسبان واستولى على السفن، ورفع عليها الرايات الصليبية واتجه بها نحو بجاية، وكان الإسبان في القلعة ينتظرون، السفن فلما رأوها فرحوا وفتحوا أبواب القلعة، وهنا خرج البحارة من السفن التي كمنوا فيها مهللين مكبرين، فلما سمعهم الإسبان ولوا هاربين وفتحت القلعة ولله الحمد، وعقب

الفتح جاء شيوخ العرب وقوادهم إلى بجاية وبايعوا خير الدين ملكًا على الجزائر، ولقد بلغ ما استولى عليه خير الدين من البارود فقط ثمانمائة برميل، وهو قَدْر هائل جاءه على قَدَر، فقد كان البارود الذي معه على وشك النفاد، ولم يعد سلطان تونس يقبل بتزويده البارود بعد إعراضه عنه، فعوضه الله تعالى خيرًا.

وفتح خير الدين كذلك قلعة تنس، وكان حاكمها أحد العرب الخونة، وكان قد استعان بفرقة إسبانية تتولى حمايته، وقُبيل فتح القلعة هرب حاكم تنس إلى عمه سلطان تلمسان وقال: «ملك إسبانيا سينتقم لي من هؤلاء الأتراك»، وفي هذا يقول خير الدين رحمه الله تعالى:

«لقد تبين لنا أن هذا الرجل لم يبق في قلبه ذرة من الإسلام، فقد كان يظن أن الإسبان قادرون على انتزاع الجزائر من أيدينا وجعله سلطانًا عليها».

وللأسف بعد ذلك رجع حاكم تنس إليها بمعونة الإسبان والأعراب، ثم خلصها منه بعد ذلك المجاهد عروج، وقتل حاكم تنس وبعض رؤساء العرب، ووطّد الحكم العثماني في تنس.

وقُتل عروج بعد ذلك في موقعة تلمسان، كما بينت في الحلقة التي خصصتها للحديث في سيرته، رحمه الله تعالى، فلما وصل خبره إلى خير الدين حزن عليه جدًا وقال:

«عندما وصل خبر استشهاد أخي إلى الجزائر قررت أن أعيش لغاية واحدة هي المضي في نفس الطريق الذي سار فيه أخي، تلك الغاية التي تتمثل في التضييق على الكفار في إفريقيا والبحر الأبيض المتوسط، فما قيمة الحياة بعد مقتل أخي».

وفي مقتل عروج وبقاء خير الدين قال بعض الإسبان:

«الشكر لعيسى؛ فقد استرحنا من البلاء الأكبر، والآن يجب أن نتخلص بسرعة من البلاء الأصغر قبل أن يتحول الثعبان إلى تنين».

وأرسل إليه ملك إسبانيا (كارلوس - شارل الخامس أوشارلكان -) رسالة يقول فيها:

«لقد مات أخوك، وقُتل أكثر جنوده، فكُسر جناحك، مَن تحسب نفسك حتى تقف في وجه أقوى ملك مسيحي بدون أخيك؟ ماذا يمكنك أن تفعل؟ خذ سفنك ورجالك واخرج من الجزائر فورًا، وإياك أن تطأ قدماك أرض إفريقيا مرة أخرى، إن هذا آخر إنذار أوجه إليك، سوف أملأ البحر بالسفن وأعود إلى الجزائر قريبًا، فإذا تمكنت منك هناك فلتعلم بأن عاقبتك ستكون وخيمة»، وهذا تحذير شديد من الملك النصراني لخير الدين وقد كان واليًا على الجزائر من قبل الدولة العثمانية آنذاك، أو بيلرباي الجزائر باللغة العثمانية، فرد عليه خير الدين ردًا قويًا في غاية الشدة، فأرسل عقب تسلمه الرد أسطولاً كبيرًا اشترك فيه ملوك نابولي وصقلية وألمانيا وهولندا وبلجيكا، ورست سفنهم قبالة ساحل الجزائر، وبدأوا بإنزال قواتهم إلى البحر، لكن خير الدين كان قد استعد لتلك الحملة، فاستطاع الانتصار على العسكر الكثيف، وأسر منهم بضع مئات، وقتل آلافًا، وفر الباقون، ولله الحمد والمنة.

وهنا استقرت ولاية الجزائر للعثمانيين، وصار خير الدين هو الوالي عليها، وكان في ذلك خير ويُمن وبركة على كل الساحل الإفريقي الشمالي.

ولم يكن أمراء العرب الذين يحكمون بعض بقاع وبلاد في شمال إفريقيا على قدر المسؤولية، وكان لكثير منهم صلات مع الكفار يوالونهم ضد المسلمين، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولنعرف مقدار الخيانة الكبيرة التي كانت فاشية في بعض حكام شمال إفريقيا آنذاك إليكم هذا النص من خير الدين بارباروس:

«لم يكن ثمة شك في أن أكبر أعدائنا هم كفار إسبانيا، كما كنا في حالة حرب مع أمم كافرة أخرى كالجنويين، إلا أننا منذ استقرارنا بالجزائر كنا مضطرين إلى الانشغال بالأمراء المحليين وأشباههم في الجزائر وتونس والمغرب الذين كانوا مستائين من وجودنا، شرع ملوك وأمراء تونس وتلمسان في التحالف مع كفار إسبانيا، وحبك المؤمرات ضدنا سرًا وعلانية، بفضلنا استغنى التونسيون، وازدهرت المدن التونسية بعد أن كانت خرابًا... وبفضلنا أيضًا تخلص سلطان تونس من تسلط الإسبان والجنويين وامتلأت خزانته بالأموال نتيجة للخراج الذي كنا ندفعه له، لقد كنا سعداء به، والله يشهد أننا لم يكن لنا مطمع لا في مملكته ولا في أمواله، وإلا لو كنا نريد ذلك فقد

أتيحت لنا فرص كثيرة كان بإمكاننا أن نقضي عليه فيها لكننا لم نفعل . . . إن هذا السلطان لم يكن قادرًا على مواجهتي بمفرده، ولذلك كان يستعين بالإسبان تارة، ويحرض الأمراء المحليين ضدي تارة أخرى، وكان على رأس المستجيبين لتحريضه سلطان تلمسان، لقد كان هذا السلطان تابعًا لي إلا أنه لم يكن يتردد في الاتصال بالإسبان والتحالف معهم سرًا».

عمل خير الدين على فتح تلمسان التي قتل فيها أخوه عروج رحمهما الله تعالى، وانتهز الفرصة عندما استعان به أخو سلطان تلمسان مسعود ضد أخيه، فهرب سلطان تلمسان وتولى مسعود عوضًا عنه، وذلك بمساعدة كبيرة من خير الدين عسكرية ومادية، ولما جلس السلطان مسعود على عرش تلمسان أرسل له خيرالدين رسالة قال له فيها:

«الآن بفضل سلطاننا جلست على عرش أجدادك، فاحذر مما كان سببًا في حرمان أخيك من عرشه، وإياك وظلم المسلمين، ولا تخالف أوامري قيد أنملة، ولا تتأخر عن دفع الخراج السنوي يومًا واحدًا، ولا أسمع عنك أنك أقمت أي علاقة بالإسبان فهم سوف يقضون عليك عندما يتمكنون منك، وتذكر بأن أخويك الكبيرين في وهران لاجئين عند الإسبان، وإذا كنت لا تريد أن ترى أحدًا منهما جالسًا على عرشك فخذ ما يلزم من تدابير لحماية نفسك وعرشك»، لكن مسعودًا لم يتعظ ولم يعتبر، فشرع في ظلم الناس ونهب أموالهم، ولما وصل إليه كتاب خير الدين مزقه!!

وفي تلك الأثناء اتصل سلطان تلمسان المخلوع اللاجئ للإسبان في وهران بخير الدين، ورجاه أن يعيده إلى حكم تلمسان، فرأى خير الدين المصلحة في إعادت،ه وساعده على أخيه بجنود، واستطاعوا فتح القلعة وإعادتها إلى حكم السلطان المخلوع، وفر مسعود في ثلة من رجاله.

وفي تلك الأثناء وقعت في يدي خير الدين رسالة أرسلها أحد شيوخ العرب بالجزائر يُدعى ابن القاضي إلى ملك تونس يدعوه فيها للعصيان والاتحاد يدًا واحدة ضد خير الدين، فعزم خير الدين على معاقبة سلطان تونس والدخول إليها، واستطاع ذلك

بسهولة، لكنه عفا عن سلطان تونس، وكان ذلك خطأ كبيرًا من خير الدين فياليته قتله، وسيحدث هذا الخائن في أرض تونس مجزرة هائلة بالاستعانة بالصليبيين، كما سأبين في الحلقة القادمة إن شاء الله تعالى.

وعاد إلى الجزائر بعد ذلك، ونجا من كمين أعده له ابن القاضي في ممر ضيق فقد فيه خير الدين ٧٥٠ شهيداً من البحارة، ثم قام ذلك الشقي بمهاجمة خير الدين بجيش كبير، لكن خير الدين تمكن من هزيمة الجيش وقتل قائده، واستتبت الأمور في الجزائر، لكنه رأى أن يخرج من الجزائر ويقيم في جيجل، ولم يستمع لرجاء الجزائريين والعلماء له أن يبقى، بل قرر أن يؤدب الجزائريين ويغادر مدينتهم بعد أن كثر خروجهم عليه ومناوشتهم له.

وبعد استقراره في جيجل خرج للغزو البحري، فغنم أكثر من ثلاثين سفينة، وغنم من الغلال والأسلحة والأموال والقماش ما لا يوصف كثرة وجودة.

●●●

سيد البحار: خير الدين بارباروس ٤/٢

مكث خير الدين في جيجل ٣ سنوات توافد خلالها مجموعة من وجهاء الجزائر يرجونه للعودة إلى العاصمة، فقد أساء حاكمها ابن القاضي لأهلها كثيرًا، وحكمهم بالعَسْف والظلم حتى أنه أمر بضرب عنق أحد المشايخ الذي رأس وفدًا يرجوه ليعود خير الدين إلى الجزائر، وصارت الوفود تأتيه كل أسبوع بعد أن مَلّ الجزائريون تمامًا من ابن القاضي، وتهيأت الجزائر العاصمة لاستقبال خير الدين الذي قرر الرجوع إلى الجزائر، ورجع في اثني عشر ألف بحار، وفي الطريق التحق به آلاف من فرسان الأرياف الجزائريين، وعندما اقترب من الجزائر هزم قوات ابن القاضى وقتل منهم ثمانمائة، ثم جمع ابن القاضي قواته مرة أخرى وأغار على معسكر خير الدين مرارًا لكنه لم يجن شيئًا، ثم قتل أخيرًا وارتاحت البلاد من شره، واستسلمت قواته، وعفا خير الدين عن البحارة الأتراك الذين قاتلوا مع ابن القاضي، وكان العفو عنهم صائبًا فقد قاتلوا معه الصليبيين حتى قتلوا جميعًا رحمهم الله تعالى، وعقب ذلك دخل خير الدين الجزائر، واستقبله الأهالى استقبالاً حسنًا.

لم يكف خير الدين عن غزو الكفار وجهادهم، بل اجتهد في ذلك اجتهادًا عظيمًا، واجتهد أيضًا في إرسال البحارة الشجعان لتخليص المسلمين المضطهدين في الأندلس ونقلهم إلى سواحل الجزائر وغيرها، وهنا بلغ الغيظ مداه في نفس ملك إسبانيا حتى قال لقواده:

«لقد جعلتموني مسخرة بين الملوك، فليس فيكم من يستطيع التصدى لباراباروس»، هنا تعهد القبطان المشهور (أندريا دوريا) بين يدي الملك بإحضار باراباروس بين يديه، وحاول كثيرًا ودخل مع جيش باراباروس في معارك، لكنه أخفق فيها كلها حتى صار النصارى يلقبون الأتراك بالشيطان الضارب، والكافر الضارب، وكان من نتائج المواجهة آلاف الأسرى الإسبان، وغنائم لا تحد ولا توصف كثرة وجودة.

وكانت الصلة بالسلطان العثماني سليمان القانوني تتجدد مرة بعد أخرى على يد

رئيس البحارة خير الدين، وهدايا السلطان تترى، ورسائله تتواصل تشجع خير الدين وتهنئه على انتصاراته العظيمة.

واستمر سلطان تلمسان عبدالله في خيانته وعصيانه، وأرسل له خير الدين رسالة يعظه بها لكنه مزق رسالة خير الدين ولم يكن وفيًا له، فقد كان خير الدين هو المساعد له حتى اعتلى عرش تلمسان، ولم يجد خير الدين بدًا من محاربة هذا الحاكم العاصي، وقتله ووضع مكانه ابنه محمدًا الذي حارب أباه مع خير الدين، لكن ملك إسبانيا (كارلوس - شارل الخامس -) لم يترك هذا الحاكم الجديد فصار يرسل إليه الأموال الكثيرة ويمنيه بأن يكون سلطانًا على الجزائر كلها، فصدق المسكين هذا، وخان الله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين وأعلن عصيانه، فسيّر إليه خير الدين جيشًا اضطره إلى الفرار.

ثم أرسل هذا الخائن بعض العلماء ليشفعوا له عند خير الدين، وجاء لمقابلته فدفع له الخراج المتأخر ومقداره ١١٠ آلاف دينار، ثم جثا على ركبتيه وتشبث بقدمي خير الدين طالبًا العفو، فأجابه خير الدين إجابة فيها شدة وغلظة وقال له: «دع عنك هذا أيها الكافر وجدد إيمانك، لقد قمت بموالاة أكبر أعداء ديننا والخروج عليّ وأنت تعلم بأني أمثل خليفة المسلمين وسلطان الدنيا فسللت سيفك في وجهي»، وعلى أثر هذا الكلام أعلن حاكم تلمسان توبته ونطق بالشهادتين، وذكر خير الدين في مذاكراته أن هذا الحاكم أظهر الندم «وجدد دخوله في الإسلام، وأعاد العقد على زوجاته اللاتي فسد نكاحهن بسبب ردته عن الإسلام» وكلام خير الدين هذا يوضح بجلاء أن علة المسلمين دائمًا كانت منهم، وإلا لو تفرغ خير الدين لمجاهدة الكفار ولم يشغله أمثال هؤلاء الخونة لأتى بخير أكبر وأعظم.

لما سمع الأندلسيون المقهورون في الأندلس المعتصمون بالجبال بأخبار انتصارات خير الدين شجعهم ذلك على الثورة على الإسبان، فلما سمع خير الدين بأخبار الثورة أرسل للمجاهدين المدد في حملة هي الحادية والعشرين على بلاد الأندلس التي أرسلها خير الدين، وفي كل حملة يُنقذ آلاف المسلمين الأندلسيين، وكان يقود بنفسه أغلب تلك الحملات، فلله دره.

وكان خير الدين يذكر أن السلطان سليمان وأباه السلطان سليمًا وجده السلطان بايزيد الثاني كانوا لا يتخلفون عن مساعدة مسلمي الأندلس، وأن السلطان سليمان قد أرسل رسائل عديدة في هذا الشأن لخير الدين.

تعيين خير الدين أميرًا على الأسطول العثماني:

طلب السلطان سليمان خير الدين إلى إسطنبول فخف إليها استجابة لأمر السلطان، وأبحر بأسطول كبير فيه ثمانية عشر رئيسًا من البحارة الكبار، ولم ينس أن يجاهد في البحر كعادته فأصاب غنائم وسفنًا كثيرة دخل بها مدينة عرش العالم كما يسميها خير الدين، وكان استقباله شيئًا مهولاً، فقد اصطف لتحيته مائتا ألف من أهالي إستانبول، ودخلها ومعه مائتا أسير يحملون أجمل تحف أوربا، وثلاثون أسيرًا من الأميرالات وكبار قادة جيوش أوربا وولاتها وأعيانها، وفيهم بعض أقارب الملك (كارلوس - شارل الخامس أو شارلكان -) ومائتا عبد يحملون على اكتافهم أكياسًا ثقيلة من الذهب والفضة، ومائتا غلام يحملون في أعناقهم الجواهر النفيسة ويحملون لفائف القماش المطرز بالذهب والفضة، وخلفهم مائتا جارية من أجمل حسناوات أوربا يرتدين الفساتين الجميلة والجواهر الثمينة، ومائة راحلة محملة بالغنائم، وقطيع من الحيوانات النادرة الثمينة كالزرافات والأسود والفهود، وخلف كل أولئك كان خير الدين يسير مع رؤساء البحر وعدد من البحارة يلبسون ثيابًا يسيرة رخيصة حتى وصل الموكب إلى قصر السلطان في توب كابي، فما ظنكم بهذا الموكب العظيم الذي يدل على عز المسلمين العظيم آنذاك، وأسأل الله تعالى أن يرد لنا تلك الأيام وأحسن منها بحوله وقوته وجلاله وعظمته.

ولما دخل خير الدين ورؤساء البحر على السلطان قبلوا يده، فاحتفي بهم وأكرمهم، وعين خير الدين قبودان باشا أو قبطان داريا أي: القائد العام للأسطول العثماني، وطلب منه أن يستمر في ولاية الجزائر لكن ينيب عليها من يراه مناسبًا ويتفرغ هو لإدارة الأسطول العظيم الذي كان أكبر أسطول في العالم آنذاك، وطلب منه السلطان أن يسير إلى حلب ليقابل الصدر الأعظم -رئيس الوزراء- الذي ذهب ليقاتل الصفويين في إيران، وأن يتباحثا معًا في كيفية ترتيب المنصبين: رئاسة الأسطول وولاية الجزائر،

فامتطى خير الدين فرسه ووصل حلبًا في عشرة أيام، وتلك مدة قصيرة بمقاييس ذلك الزمان، وكان لا ينام في تلك المدة إلا قليلاً فـلله دره، وقابل الصدر الأعظم واتفقا ثم عاد إلى إستانبول سريعًا، وزار مصنع السفن في الخليج الذهبي - وكان أكبر مصنع في العالم آنذاك - وكان العمال في المصنع من الأسرى، أما الفنيون والمهندسون فكانوا جميعًا من الأتراك، وكان الأسرى يعملون بمقابل مادي يتمكنون به من شراء حريتهم والعودة إلى بلادهم، وتلك خطة حكيمة، وكان عدد العمال عشرين ألف عامل!! وكان خير الدين مندهشًا جدًا من رؤية المصنع، وطلب من الصدر الأعظم أن يغزو بسفنه العالم الجديد - أمريكا - لكن الصدر الأعظم كان يريد البقاء في البحر المتوسط لحماية بلاد الإسلام.

وفي أول غزوة بالأسطول العثماني تحت إمرة خير الدين استولى على موانئ عديدة في إيطاليا، وفتح ثماني عشرة قلعة، وأسر ستة عشر ألف أسير، وغنم خمسة وعشرين صندوقًا كبيرًا من النفائس!!

وحمل ذلك بعض الحساد والوشاة على القول:

«انظروا إلى ما يفعله مولانا السلطان: لقد عين قرصانًا على رأس الأسطول العثماني برتبة قبطان داريا»، وحاشا خير الدين أن يكون قرصانًا، بل كان من أعظم مجاهدي الإسلام، رحمه الله تعالى.

دخل خير الدين تونس، وفر سلطانها الحفصي لما علم بقدوم خير الدين، وطلب من (كارلوس - شارل الخامس أو شارلكان -) ملك إسبانيا المساعدة، وإنا لله وإنا إليه راجعون، فما هذه الخيانات المتتابعة من حكام العرب!! وفعلاً خف (كارلوس) بنفسه على رأس أسطول كبير وجنود من إسبانيا وألمانيا وهولندا وإيطاليا وغيرها، ووصل من (برشلونة) إلى تونس في سبعة عشر يومًا على رأس خمسمائة قطعة بحرية وثلاثين ألف جندي ومعه (أندريا دوريا) القبطان المشهور، وأقبل ملك تونس في حملة كبيرة ليساعد (كارلوس)، والتحق به وقبل قدميه!! وبدأ البدو الأعراب الذين كانوا في تونس مع خير الدين يتذمرون، بل صاروا يتصلون بـ (كارلوس) يتملقونه خيانة لله

تعالى ولرسوله وللمؤمنين وكان عددهم ستة آلاف، وفتحوا سجون تونس ليهرب منها عشرة آلاف أسير نصراني!! وإنا لله وإنا إليه راجعون، واستولى هؤلاء الأسرى على المدينة، ووجد خير الدين نفسه في مأزق شديد فاضطر للانسحاب، خاصة أن الأسطول العثماني لم يكن قد وصل بعد إلى تونس، ولما أراد الانسحاب أغلق الأهالي باب المدينة في وجهه!! لكن خير الدين قاتل بقوة وكبَّر هو وجنده تكبيرات ألقت الرعب في قلوب أعدائه من النصارى والمسلمين وتمكن من الانسحاب إلى عنابة في الجزائر بفضل الله لكن بعد خسائر هائلة، ولم تتحقق أمنية (كارلوس) ومن معه من الأمراء أن يظفروا به، ولله الحمد والمنة.

لكن انظروا إلى الكفار الأوربيين ماذا فعلوا في تونس لما دخلوها، وهذا عقاب إلهي لخيانة كثير منهم وتوانيه عن نصرة خير الدين، فقد ذبحوا ثلاثين ألفًا من المسلمين، واسترقوا عشرة آلاف امرأة وطفل، وخربوا المساجد والمدارس والمقابر، ونهبوا محتويات القصور، وحرقوا آلاف المخطوطات والكتب التي كانت تزخر بها مكتبات تونس، فقضوا بذلك على عدد من أنواع العلوم والفنون النادرة، وذكر المؤرخ التونسي ابن أبي الضياف أن ثلث سكان تونس قد أبيدوا، وأُسر ثلثهم، وطمست معالم المدينة تمامًا، وذكر خير الدين أن الملك (كارلوس) دخل تونس بعد اثنتين وسبعين ساعة من استباحتها، وأنه كان يخوض بخيله الدم حتى أصبحت أقدام فرسه مصطبغة باللون الأحمر من جريان الدماء في شوارع وأزقة تونس، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولكن تلك المجزرة كانت عقوبة من الله تعالى لأهل تونس على خيانة كثير منهم وموالاتهم الكفار، وتواني كثير منهم عن عون خير الدين، وسلبية كثير منهم أيضًا وعدم مبالاتهم.

وما فعله الصليبيون من حرق آلاف المخطوطات كان جريًا على عادتهم التي كانوا يفعلونها في كل مدينة إسلامية يدخلونها، وحرقوا بذلك مئات الآلاف من الكتب، والمصيبة كل المصيبة أنهم يتهمون المسلمين بحرق مكتبة الإسكندرية وحرق غيرها من المكتبات، ولم يثبت أن المسلمين في كل تاريخ جهادهم أحرقوا مكتبات للصليبيين أو غيرهم، ثم هل كان لحضارة في الأرض آنذاك واحد بالمائة من عدد الكتب التي صنفها المسلمون؟!

سيد البحار: خير الدين باربروس ٤/٣

عقب مجزرة تونس خرج خير الدين للغزو، ولأول مرة يعبر مضيق جبل طارق ويصل إلى خليج (قادز)، ويغير على سواحل البرتغال، واستولى على سفينة برتغالية كبيرة مجهزة بستة وسبعين مدفعًا وعلى متنها ٣٠٠ بحار ومئات الجدآفين، وفي السفينة - وهي قادمة من الهند - بضائع قيمة وستة وثلاثون ألف دينار ذهبي، وسحب السفينة إلى الجزائر، وهي مسافة طويلة جدًا بمقاييس تلك الأيام.

ثم قام خير الدين بمساعدة السلطان العثماني سليمان القانوني في إحدى غزواته ضد البندقية وإسبانيا وغنم غنائم كبيرة.

معركة بروزة (بريفيزا):

بعد هذا قام (كارلوس - شارل الخامس أوشارلكان -) بجمع أساطيل (البندقية) و(جنوة) و(فلورنس) و(مالطا) وأسطول البابوية وجعلها كلها تحت إمرة أندريا دوريا، وكان أسطولاً ضخمًا جدًا مكونًا من أكثر من ستمائة سفينة، وستين ألف جندي، حتى كانت بعض السفن لضخامتها تحمل الواحدة منها ألفين من الجنود!! وكان لدى خيرالدين مائة واثنتان وعشرون سفينة وعشرون ألف مقاتل عدا الجَدّافين، وكان أسطول خيرالدين متفوقًا من حيث طول مدى مدافعه وحسن تقسيمه وإدراته، وخفة سفنه وسرعة تحركها، ولبس بحارة أسطوله خفيف بينما كان بحارة (أندريا) مثقلين بالدروع، وكان أسطول (أندريا دوريا) أكثر من خمسة أضعاف أسطول خير الدين لكن جنوده لا يتكلمون لغة واحدة، ويكن بعض قادته حسدًا وكرهًا لـ(أندريا)، وفي بداية المعركة كانت الرياح الجنوبية تهب بشدة معاكسة لاتجاه سفن خير الدين، عند ذلك قام خير الدين بعمل جليل، فقد تضرع إلى الله تعالى وانكسر في ذلة وخضوع ودعاه جلّ وعز أن يلطف به ويتولاه، وكتب في بعض الأوراق بعض آيات من القرآن العظيم ورمى بها في البحر فهدأت العاصفة قليلاً وتغير اتجاهها، الله أكبر فلقد أدرك خير الدين سر الانتصار.

وما جاء الليل إلا ونصف الأسطول الأوربي في قاع البحر، وفر (أندريا دوريا) بالنصف الآخر، ودامت المعركة خمس ساعات فقط فانتهت بانتصار عظيم حفظ هيبة الأسطول العثماني في البحر المتوسط لثلث قرن قادم، وكان ذلك سنة ٩٤٤هـ/ ١٥٣٨م، وأرسل خير الدين البشرى إلى إستانبول في رسالة حملها ولده حسن رئيس، وسمعها السلطان سليمان القانوني وهو واقف على قدميه في الديوان الهمايوني من شده فرحه وسروره، وحمد الله تعالى، وأمر بإقامة الاحتفالات في سائر أرجاء السلطنة، ولما رجع خير الدين إلى إستانبول وجد الأهالي قد أقاموا احتفالات كبيرة بالنصر، ثم لقى السلطان في أدرنه وقص عليه كل تفاصيل المعركة.

ثم أرسل خير الدين حملة بقيادة حسن باى استولت على قلعة مضيق جبل طارق، وصارت تغير على الإسبان، فجن جنون (كارلوس - شارل الخامس أوشارلكان -) وأرسل رسالة عجيبة إلى خير الدين سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤١م يقول فيها: «إن تنزيلك من منصبك كملك للجزائر لتكون بيلرباي عليها - واليًا عثمانيًا - حسبما تقضي به التقاليد العثمانية يعد إهانة بالغة لك، وهأنذا أعرض عليك أن تتخلى عن خدمة السلطان سليمان على أن أجعلك ملكًا وحيدًا على كل البلاد الإفريقية الواقعة بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي، وليكن معلومًا لديك بأنني لا أريد أن تكون حليفًا لي، بل يكفي أن تكون صديقًا لي وتقطع صلتك بالعثمانيين، فهذا كل ما أريده منك».

فكان تعليق خير الدين على الرسالة بقوله:

«صار (كارلوس) يتصرف بطريقة يائسة، ذلك أنه أراد التغرير بي؛ إذ عرض عليّ خيانة بلدي وسلطاني وديني وقومي فبعث إليّ رسالة جاء فيها...»، وبلّغ خير الدين رسالة كارلوس للديوان السلطاني، فكان رد الصدر الأعظم - رئيس الوزراء العثماني - لطفي باشا أن طلب من خير الدين أن يظهر لكارلوس موافقته المبدئية ليلهيه ويشغله عن غزو شمال إفريقيا خاصة الجزائر، وفعلاً صنع ذلك خير الدين وأرسل رسالة لـ(أندريا دوريا) يبلغه فيها بقبوله المبدئي للعرض، فانطلت الحيلة على (أندريا)، وبلغ (كارلوس) الذي أرسل رسلاً للجزائر للتفاوض مع حسن باي ابن خير الدين - وكان واليًا على الجزائر - بشأن عرض خير الدين؛ ومضت مدة في المفاوضات طُرد على إثرها الرسل.

وعلم (كارلوس) بما جرى فأرسل رسلاً إلى حسن باي يعرض عليه الخيانة، وأن يكون ملكًا على الجزائر، فأعلم حسن باي أباه خير الدين بهذا، فطلب منه أبوه أن يظهر لكارلوس قبوله بالخيانة، وأنه سييسر فتح أبواب الجزائر أمام جيش (كارلوس) إذا جاء، وحصل هذا فعلاً، وابتلع (كارلوس) الطعم، بينما قام خير الدين بدعوة الأسطول العثماني من إستانبول، وكان الأسطول الأوربي مكونًا من ٥١٦ سفينة، واثني عشر ألفًا ومائتين وثلاثين بحارًا، وثلاثة وعشرين ألفًا وتسعمائة جندي من القوات البرية.

وكان على رأس هذه الحملة المتجهة إلى الجزائر أشهر نبلاء وأمراء إسبانيا وألمانيا وإيطاليا، وفي دلالة واضحة على صليبية الحملة أصدر (البابا يوحنا الثالث) بيانًا نشره في بلاد أوربا كلها، أعلن فيه أن تلك الحملة هي حملة صليبية، وأن واجب كل مؤمن بالمسيح مخلص للنصرانية أن ينضم إليها، وأن يشارك في محاربة الكافرين».

وعلم حسن باي بالحملة فأبعد أسطوله الصغير من مدينة الجزائر، ولم يكن معه سوى ستمائة بحار تركي وألفي فارس عربي متطوع للجهاد.

وأرسل (كارلوس) رسالة بالتركية إلى حسن بن خير الدين يقول له فيها:

«إن القوة التي تراها اليوم ليس أنت فحسْب، بل إن سيدك الكبير - يقصد أباه خير الدين - لا يقدر على صدها، فإذا كانت لك عينان مفتوحتان وتملك ذرة من العقل ألق سلاحك واربط رأسك بمنديل وأتني بمفاتيح قلعة الجزائر، وإذا قدمت عليَّ، وقبّلت الأرض بين يديّ فسوف أعفو عنك، فأنا ملك إسبانيا ونابولي وصقلية وهولندا وبلجيكا وأمريكا وإمبراطور ألمانيا، إن أباك وسيدك بارباروس فرّ فزعًا مني بتونس لا يلوي على شيء، فحذار أن تفقد عقلك وتشهر السلاح في وجهي، لأنك إن فعلت ذلك فإنني أقسم بعيسى بأني سوف أمزقك، وأعلق أشلاءك على أبراج الجزائر».

فأجابه حسن بقوله: «إن قلعة الجزائر ليست ملكًا لي حتى أسلمها لك، ولن أمكنك من بلد مولانا السلطان سليمان لأبوء بخسارة الدنيا والآخرة، وليكن معلومًا لديك بأن قلبي لا يحمل ذرة خوف منك، فأنت قد أمضيت حياتك في تلقى هزائم شنيعة أمام والدي خير الدين باشا، وأنا على يقين بأن الله تعالى سوف ينصرني عليك».

الله أكبر، فالرد رائع، ولا غَرْو فذلك الشبل من ذلك الأسد.

أنزل (كارلوس - شارل الخامس -) بعض فرقه العسكرية لمهاجمة القلعة لكنه لقي مقاومة باسلة من جنودها القلائل الذين صمدوا ببسالة، ثم لما حل الليل أرسل حسن باي جنوده العارفين بلغة الإسبان جيدًا إلى معسكر الإسبان وألبسهم ملابس الجنود الإسبان، وهؤلاء الجنود المسلمون يعرفون الإسبانية جيدًا بسبب أنهم كانوا أسرى وبعضهم قضى عشر سنوات في الأسر يجدف سفن الإسبان!! فوجدوا أن المعسكر الإسباني مليء بمئات الجرار من الخمر وأن كثيرًا من الجنود ثملون، فأعلموا حسن باي بهذا فأنزل قواته خلف قوات العدو، وذلك بأن سلك طريقًا جبليًا وعرًا، وساعدهم غياب القمر خلف الغيوم، والأمطار المنهمرة بغزارة، والعاصفة الشديدة التي هبت تلك الليلة، وعلق على ذلك خير الدين بقوله في مذكراته:

«يا من جلّت قدرتك؛ أنت الذي تلطفت بنصرة فئة قليلة من عبادك المجاهدين بهذه العاصفة التي تعبث بالكافر (كارلوس) وأسطوله لتتقاذفه الأمواج المتلاطمة، إن ذلك لدليل لطفك ورحمتك».

وفي أثناء ذلك كله تساقط البرد الكبير، وهاج البحر وماج، وفي منتصف الليل أغار حسن باي على معسكر العدو وأعمل السيف في رقابهم؛ فأخذوا يصرخون مذعورين: «لقد عاد بارباروس من إستانبول، لقد جاء التركي الكبير!»، وقتل ثلاثة آلاف من بحارة (كارلوس)، وفي الصباح كان (كارلوس - شارل الخامس أو شارلكان -) شديد القلق من ظهور الأسطول العثماني في أي لحظة، والنذر المناخية كانت تشتد فأمر (كارلوس) (أندريا دوريا) والجنود بالعودة إلى الأسطول، لكن شدة البحر أجبرت (كارلوس) على إنزال نصف أسطوله إلى البر لكنه لم يتمكن من ربط بعضها ببعض حتى لا تجرفها المياه.

وهنا قام العرب البدو والمتطوعة المجاهدون بجر هذه السفن إلى الجزائر العاصمة، واستولوا على جميع ما خلّفه (كارلوس) من ذخائر ومعدات حربية، واندفع آلاف البدو الذين فرحوا بانسحاب (كارلوس) وجنوده وسط البحارة الإسبان ليسلبوهم ما معهم، وقد كانوا من قبل يلحّون على حسن باي بتسليم المدينة إلى الإسبان لما رأوا هول ما جاءوا به!!

وكانت التقديرات عقب المعركة بأنه قضى على عشرين ألف من جيش الكفار إما غرقًا أو تحت ضربات السيوف، ومن نجا من الجند الذين نزلوا على الساحل أُسر، ووقع عدد كبير من الجنرالات والأميرالات - القادة البحريين - والدوقات والأمراء والأميرات والنبلاء والفرسان في الأسر، ولم يتمكن (أندريا دوريا) قائد الأسطول من الفرار إلا بصعوبة بالغة، وذبح (كارلوس) فرسه ليأكل لحمها!!

وذُبح أربعة آلاف فرس من أجود أنواع الأفراس ليأكل الجنود لحمها لشدة جوعهم، وألقى (كارلوس) تاجه في البحر أثناء هروبه من شدة غيظه، وكان لتلك الهزيمة المذلة دويّ عظيم في أوربا.

ووصل الإمبراطور إلى بجاية في حالة صعبة يُرثى لها، وأمضى معظم وقته في الصلاة والابتهال على طريقتهم الضالة المبتدعة، وأمر بإبقاء الكنائس مفتوحة ليلاً ونهارًا للعبادة، وأخذ في الصوم، وجمع اليهود في بجاية فاسترق بعضهم وباعهم في أسواق أوربا وقتل بعضهم، ومكث أربعة عشر يومًا في بجاية، ثم عاد إلى بلاده مخذولاً.

أما خسائر الجيش الصليبي فقد بلغت مائتي سفينة منها ثلاثون سفينة حربية، ومائتي مدفع، واثني عشر ألف مقاتل بين قتيل وغريق وأسير، وكل عتاد الحملة وتموينها، وأما المسلمون فقد كانت غنائمهم عظيمة عبر عن عظمها أحد المؤرخين المسلمين بقوله:

«بقيت الجزائر كالعروس تختال في حليها وحللها من رخاء الأسعار، وأمن الأقطار، ولم يبقَ لهم عدو يخافون منه، وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها، وبقي رعب المسلمين في أعداء الدين مدة من الزمن بأمن الملك العلام، وخلّف اللعين -أي: الامبراطور- لأهل الجزائر ما ملأ أيديهم غناء، وكسبت البلاد من ذلك أموالاً طائلة، وفرّج الله على أوليائه المسلمين».

يقول خير الدين في مذكراته:

«بعد هذه المعركة بمدة قصيرة وصلت إلى الجزائر، وقمت بجولة في أرض المعركة،

لقد كان سبب تأخري يعود إلى أني لم أكن أتوقع هجوم الملك (كارلوس) على الجزائر بهذه السرعة . . .

إن أوربا لم تعش منذ عصور طويلة على وقع هزيمة مدوية لملك كبير كهذه . . .

إن (كارلوس) هذا هو نفس الملك الذي سبق أن انتصر على ملك كافر كبير مثل ملك فرنسا المدعو (فرنسوا الأول)، وأخذه أسيراً بعد معركة لم تدم سوى بضع ساعات . . .» .

وقال أيضًا:

«إن هذا الظالم العائد إلى بلاده بجر أذيال الخيبة قد قام بإحراق آلاف البشر في العالم الجديد - يريد أمريكا - فأراد هذا الملعون أن يتسلط على الجزائر لأنه ظن بأنها مثل العالم الجديد، الويل لبلدة مسلمة تقع في يد هذا الظالم ترى كيف سيكون مصيرها، لقد ضرب لنا الكافر مثل السوء في ذلك في تونس قبل سنوات مضت» .

ولما علم السلطان سليمان بنتائج هذه الحملة فرح وقرأ رسالة حسن بن خير الدين بنفسه على خلاف الأصول المرعية، وأمر بهدايا لرؤساء البحرية، وعين حسن بن خير الدين بيلر باي على الجزائر - أي: واليًا عليها - وأنعم عليه برتبة الباشوية، فصار في رتبة أبيه نفسها، وأرسل له السلطان هدايا عظيمة، وصار اسمه الرسمي الغازي قارة حسن باشا، ومن اللطائف أن ولد خير الدين أرسل إلى أبيه خمسمائة أسير هدية لكن أباه وهبهم للدولة .

وقام خير الدين عقب حملة (شارل الخامس) و(أندريا دوريا) على الجزائر بحملة على روما نفسها، واستولى على ثغرها (أوسيتيا)، وارتعدت العاصمة الكبيرة في عقر دارها فرقًا، وكان (البابا بول الثالث على علاقة حسنة (بفرانسوا الأول) حليف اسطنبول فاتفق مع خير الدين على الرحيل عن أوسيتيا، وأبحر خير الدين إلى (طولون) التي كفت أجراس كنائسها عن الدق طوال مدة بقاء خير الدين فيها احترامًا له وتعظيمًا .

وخرج خير الدين بعد هذا بمدة في حملة ليطهر بلدان فرنسا الجنوبية من الاحتلال الإسباني بناء على استنجاد ملكها (فرنسوا الأول) به، وذلك أثناء الحرب الإيطالية وإعلان إسبانيا الحرب على فرنسا، فعسكر في (مرسيليا) التي تنازل عنها الفرنسيون للعثمانيين خمس سنين، وجرى بسبب ذلك ضجة عظيمة في أوربا، وتمكن من طرد الإسبان من(تولوز) و(نيس)، ومن(نابولى) أيضًا في إيطاليا، وكان ذلك سنة ٩٥٠هـ/ ١٥٤٤م.

●●●

سيد البحار: خير الدين بارباروس ٤/٤

عقب انتصارات خير الدين العظيمة، وإذلاله إمبراطورًا كبيرًا مثل (شارل الخامس)، وغزواته الكثيرة في البحر، وتمكينه للعثمانيين في البحر الأبيض المتوسط تمكينًا لم يسبق من قبل أصاب الأوربيين الخوف الشديد من خير الدين رحمه الله تعالى، وحتى نعرف مقدار الخوف الذي أصاب الأوربيين من خير الدين عقب هزيمة (شارل الخامس) أو (شارلكان) أو (كارلوس) بتعبير خير الدين؛ فإني أسوق هذا النص الوارد في مجلة تاريخ وحضارة المغرب العدد ٦ :

«طغى شبح خير الدين على العامة والخاصة حتى أصبح الناس إذا رأوا [. . .](١) عن بُعد نسبوه إلى خير الدين، فيتصاعد الصراخ ويكثر العويل، ويفر السكان من ديارهم ومن حقولهم ومتاجرهم، وإذا حطمت الزوابع مركبًا توهم الناس أن خير الدين بارباروس هو الذي أثار البحر وهيجه وأغراه على سفنهم، وبلغ الخوف من قادة الجزائر - خير الدين ومن معه - أقصى درجة حتى أصبح أهل إسبانيا وإيطاليا إذا ما حدثت جريمة، أو سرقة، أو وقع فساد أو تخريب، أو مرض أو وباء، أو قحط قالوا: خير الدين وأصحابه هم السبب في ذلك!! وكانوا في عويلهم يرددون :

بربـــــــــــروسّه   بـربـروسّـــــــــــة
أنـت صـــــــاحـب   كـل شـــــــــــر
مـــا كـــان من ألـم   أو عـــــــــمـل
مـــؤذ وجـــهنمي   مـــدمـــــــر
إلا والســـــبب   فـيـــــــــه

هذا القرصان الذي لا نظير له في العالم

رضي الله تعالى عن خير الدين وأين مثله الآن، فما أحوجنا إلى من يخيف أعداء

(١) كلمة لم يتبين لي معناها.

الإسلام اليوم حتى لا يفعلوا بنا ما يفعلونه اليوم من انتقاص لأرضنا، وانتهاك لعرضنا، وسرقة لثرواتنا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

- وهكذا أمضى خير الدين جُل حياته في البحر مجاهدًا في سبيل الله تعالى، فلله كم أرغم الله به أنوف الكفار من ملوك وأمراء وفرسان ونبلاء، فلله الحمد والمنة.

صفات خير الدين:

كان خير الدين رحمه الله تعالى شجاعًا مقدامًا، لا يهاب الموت، ولا يتردد في مهاجمة الكفار في البحر، وقد سبق من أخباره ما يوضح هذا كل التوضيح.

- وكان كريمًا ينفق من الأموال التي يأخذها من الكفار، ينفقها على الفقراء والمحتاجين، ولمّا زار أهله في جزيرة (ميديلّي) بعد مدة طويلة فعل أفعالاً كريمة هو وأخوه عروج ذكرها بقوله:

«أقمنا وليمة كبيرة دامت سبعة أيام وسبع ليال أطعمنا خلالها فقراء الجزيرة، وقمنا بتختين الأطفال، وزوجنا العذارى اللاتي لم يكُن لهن أزواج، ولكي ندخل السرور على قلوبهن أقمنا لهن احتفالات كبيرة وخِطنا لهن أثوابًا جديدة. أدخلنا السرور على قلوب الأرامل والعجزة والمعاقين».

وكان كثيرًا ما يوزع القمح الذي استولى عليه من الكفار على الفقراء مجانًا في تونس وغيرها، وتبرع مرة بسفينة قمح كاملة للفقراء.

وقال في نص آخر يوضح زهده في الدنيا هو وأخوه عروج:

«لم نكن نحب الاحتفاظ بالمال، ولذلك فقد أنفقنا جميع ما ربحناه على تجهيز سفننا بشكل جيد، والذي بقي قاسمناه بحارتنا».

وقام مرة بجمع اليتامى والذكور والإناث في مدينة الجزائر وضواحيها الذين بلغوا سن الزواج فزوجهم، وختن الأطفال، وأعطى كل واحد ما يحتاجه من المال، ومسكنًا لمن لا بيت له، وعملاً للعاطل منهم، وكان يقول في إنفاقه هذا:

«لقد كنت موقنًا بأن الله يكافئ عن كل إحسان نقوم به بأضعاف ما نبذله، لقد رأيت

هذا وعايشته بنفسي طوال حياتي، فكلما أنفقت من ثروتي شيئًا كان الله يعجل بأضعاف مضاعفة لما أنفقه في سبيله».

- وقد كان من بارز صفاته الحزم في مواضع الحزم، واللين والمداراة والتحمل في مواضعها، وهذا من أبرز صفات القادة، فقد كان لا يتردد في قتل المؤذين والمنافقين والخونة، لكنه أيضًا يعفو إذا رأى مصلحة غالبة في العفو.

- وقد كان حسن التدبير لملكه، فقد كان يسوس مملكته الواسعة في الجزائر سياسة حسنة، ويطلع على أحوال أعدائه، ومن حسن تدبيره ما ذكره في سياسته مع الأسرى الأوروبيين، فقد قال:

«كان من عادتي أن أدعو ضباط الكفار والقباطنة - جمع قبطان - والولاة والرهبان والفنانين الذين وقعوا في الأسر للمثول بين يديّ، وأتبادل معهم أطراف الحديث، ولم أكن أطرح عليهم الأسئلة لانتزاع المعلومات منهم، بل كنت أتحدث معهم مثلما يتحدث الصديق إلى صديقه، بهذه الطريقة كنت أحصل منهم على معلومات مهمة جدًا، بل كنت أقف على أسرار القصور التي لا تُعرف حتى في أوربا، والحقيقة التي يجب أن أشيد بها هنا هو أنه كان لي في كل بلدان البحر المتوسط جواسيس تابعون لي، إلا أن الجلوس مع الأسير والتحدث معه أفيد في الحصول على المعلومات».

وفاته:

وفي سنة ٩٥٢هـ/ ١٥٤٦م توفي خير الدين وقد قارب الثمانين من عمره المبارك، بعد حياة حافلة بالجهاد وجلائل الأعمال، ودفن في إستانبول بمحاذاة مضيق البوسفور - الذي كان يحبه ويعجب به ويراه كأنه قطعة من الجنة!! - في باشكتاش في مكان اشتراه بنفسه وأوقفه لكي يدفن فيه، وهو الآن معروف ماثل للعيان، رحمه الله تعالى ورفع درجته في عليين.

قالوا فيه:

- وقد أكمل خير الدين العمل العظيم الذي ابتدأه شقيقه عروج الذي بينت بعض معالم سيرته في الحلقتين السابقتين.

وما أحسن ما قاله المؤرخ (شارل اندري جوليان) في كتابه «تاريخ الشمال الإفريقي» في عروج وأخيه:

«هكذا انتهت هذه الحياة المجيدة في ميدان المغامرة، إنه هو الرجل الذي أنشأ القوة العظيمة لمدينة الجزائر وللبلاد البربرية، إنه بنظرة صادقة لا تخطئ -وهي نظرته المعتادة- قد أدرك مدى ما تستطيع أقلية عاملة تحقيقه في وسط مليء بالمنافسات بين مختلف الإمارات المغربية لكي يؤسس على حساب تلك الإمارات دولة إسلامية قوية لا تستطيع أن تنالها بسوء هجمات النصارى. . . إنما كانت مأثرته هذه تتلاشى وتضمحل لو لم يتلقفها ويحتضنها باليمين شقيقه خير الدين الذي سار بها في طريق النجاح والكمال».

وقال المؤرخ بيشو في كتابه «تاريخ شمال إفريقيا»:

«كان للشقيقين عروج وخير الدين من الإقدام والجرأة مقدار يفوق المتعارف عند الرجال، وكان لهما من الدهاء السياسي الخارق للعادة ما يجعل الناس مشدوهين من وجود مثله عند رجلين لم تؤهلهما ثقافتهما البدائية ليقوما بهذا الدور العظيم؛ دور قيادة الشعوب»[١].

●●●

---

(١) المصدر الرئيس لهذه الدراسة هو «مذكرات خير الدين باربروس» التي ترجمها إلى العربية د. محمد دراج، وكذلك كتاب «خير الدين باربروس والجهاد في البحر» للأستاذ بسام العسلي، ومصادر أخرى.



[٣]

المجاهد العالم

بيري رئيس

[٨٦٩-٩٦١هـ]

[١٤٦٥-١٥٥٣م]

المجاهد العالم: بيري رئيس

رؤساء البحر العثمانيون كانوا أسياد البحر الأبيض المتوسط في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وكان منهم أبطال يندون عن الحصر، ويفوتون العادّ، لكن كان منهم ثلاثة أصفهم بأنهم أعظم من وصلت إلينا سيرتهم من أولئك الأبطال، خير الدين بارباروس، وأخوه عروج، وبيري رئيس، وقد كنت تحدثت في حلقات ماضيات في سيرة خير الدين وأخيه، وفي هذه الحلقة سأبين جوانب العظمة في الملاح العثماني العالم بيري رئيس، رحمهم الله تعالى جميعًا.

ولد بيري رئيس -وهذه شهرته، واسمه أحمد محيي الدين بن محمد- في مدينة غاليبولي الواقعة على بحر مرمرة بالقرب من إستانبول ما بين سنة ٨٦٩هـ-٨٧٤هـ/ ١٤٦٥م - ١٤٧٠م، وكان له عم يُعَدُّ من رؤوس البحارة العثمانيين ويدعى كمال رئيس، وكان كمال هذا بحارًا شجاعًا نذر نفسه لمهاجمة الصليبيين في البحر.

لذلك سموه وأمثاله خير الدين بارباروس وعروج وبيري رئيس سموهم جميعًا قراصنة، وحاشاهم أن يكونوا قراصنة بالمعنى المعروف المتبادر للذهن من أن القرصان هو سارق مُغير نَهّاب، لا بل كانوا في طوريهم: طور الاستقلال وطور التبعية للبحرية العثمانية كانوا مجاهدين في سبيل الله تعالى، يسعون للانتقام من الصليبيين واستنقاذ المسلمين من بين أيديهم، لكن القراصنة الحقيقيين كانوا من الصليبيين الذين اشتهرت عنهم أعمال السلب والنهب لأجل المال وأسر الحجاج المسلمين في البحر، لكن ما العمل مع هجمة الشبهات على رموزنا وعظمائنا وإلصاق التهم بهم على طريقة «رمتني بدائها وانسلّت»، وليس لنا إعلام قوي كإعلامهم، بل إعلامنا مشغول بالأفلام والأغاني والكرة، والإعلام في دول الربيع العربي مشغول بالهجمة على المشروع الإسلامي الناشئ.

استفاد بيري رئيس من ملازمة عمه الخبير البحري والمجاهد العثماني استفادة كبيرة،

وكان من أعظم أعمالهما أنهما نقلا عشرات الآلاف من مسلمي الأندلس المعذبين المقهورين - عقب سقوطها - إلى سواحل شمال إفريقيا، وقد كان هذا عملاً عظيمًا قام به بيري في صدر شبابه، رحمه الله تعالى، وقد أكمل هذا العمل العظيم خير الدين بارباروس وأخوه عروج على ما نقلت في سيرتهما في الحلقات الماضيات.

وفي سنة ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م قام السلطان بايزيد الثاني - والد السلطان سليم الأول - باستدعاء مجموعة من المتطوعة المجاهدين في البحر إلى إستانبول لتكليفهم بالإشراف على الأسطول العثماني، وكان منهم البطل المجاهد بيري رئيس وعمه كمال رئيس، فساعدا في بناء أربعمائة سفينة والمشاركة في إدارتها، وعُين عمه كمال رئيسًا لأركان البحرية العثمانية.

وفي سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م شارك بيري وعمه كمال في حملة بحرية على جمهورية البندقية، وعلى أن الأسطول العثماني كان أضعف عُدة وعتادًا وعددًا من أسطول البندقية المدعوم من قبل بعض دول أوربا، لكن النصر كان حليف العثمانيين - بفضل الله تعالى - وهُزم البنادقة هزيمة منكرة، وتكررت هزائمهم بعد ذلك في عدة معارك بحرية إلى أن اضطروا لعقد معاهدة مع العثمانيين سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م، وظل بيري رئيس يعمل مع عمه إلى حدود سنة ٩١٣هـ، ثم أخذ في الاستقلال وهو في الأربعين من عمره.

وفي سنة ٩١٦هـ/ ١٥١١م غرق المجاهد الكبير كمال رئيس في البحر على إثر عاصفة، وصار الأمل معقودًا بابن أخيه بيري رئيس في مواصلة الجهاد البحري خلفًا لعمه، وهذا ما حصل، فقد بقي بيري في البحر مجاهدًا أربعين سنة أخرى تقريبًا، رحمه الله تعالى، وقاتل في البندقية وجنوا ورودس وصقلية وسردينيا وكورسيكا وغيرها من جزائر البحر الأبيض المتوسط، وجاهد البرتغاليين في عدن وفي الخليج العربي، كما سيأتي قريبًا، إن شاء الله تعالى.

وقد كان هنالك صلة بين خير الدين بربروس وبيري رئيس، فقد طلب خير الدين من بيري أن ينقل بعض الغنائم التي حازها إلى السلطان سليم الأول في إستانبول،

وصنع بيري هذا، وأحسن وفادته السلطان سليم إلى الغاية، وحمله هدايا فاخرة إلى بربروس وأخيه عَرُوج؛ منها سفينتان عظيمتان لكل منهما سفينة وغير ذلك من الهدايا، وأوصل بيري هذه الهدايا إلى خير الدين بربروس في تونس، وقلد بيري خير الدين سيف السلطان سليم خان، وألبسه الحلة الفاخرة التي أهداه إياها السلطان، وكان يوم عظيمًا في تونس، وقد قال خير الدين في بيري رئيس: «لقد كان محيي الدين ابن أخت المرحوم كمال رئيس، كان صديقًا ظريفًا، عالمًا بالآداب السلطانية»(١).

بيري في مصر:

اشترك بيري في حملة السلطان سليم على مصر وتخليصها من المماليك الذين ثبت اتصالهم بالصفويين الرافضة في إيران وتآمرهم على الدولة العثمانية، وبقي في مصر بضعة أشهر رسم فيها خريطة مفصلة للقاهرة.

ثم عاد إلى مصر سنة ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م مع الصدر الأعظم - رئيس وزراء الدولة العثمانية - إبراهيم باشا لضبط الأوضاع في مصر بعد وفاة أمير مصر خاير بك واضطراب أحوال البلاد.

ثم عُين قائدًا بحريًا لترسانة مصر - قبودان بلغة العثمانيين - وكان مقره في السويس.

وأرسل إلى عدن لقمع تمرد جرى هنالك، ولقي قرب عدن ثلاث سفن برتغالية فطاردها إلى أن وصلت إلى ميناء زيلع فاستولى عليها، وأسر بحارتها وكانوا ١٢٠ واستعملهم مجدفين في سفنه، وأحرق سفن البرتغاليين قرب عدن، وحاصر المدينة حتى استولى عليها ورفع عليها أعلام بني عثمان، ورُفع الخبر إلى القاهرة ثم إلى إستانبول، وأمر السلطان بمكافأة بيري ومَن معه من البحارة بمكافآت سخية، وكان ذلك سنة ٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م.

(١) انظر «مذكرات خير الدين بارباروس»: ص ٦٢-٦٩.

ومن العجب أن والي عدن وهو محمد بن علي بن سليمان أرسل إلى البرتغاليين يستعديهم ضد العثمانيين، وهذه خيانة صعبة، وقد تكررت في الأندلس وشمال إفريقيا وغيرها من الأماكن، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وإلى بيري يرجع الفضل - بعد الله تعالى - في تأمين مضيق باب المندب وحمايته من البرتغاليين الذين كانوا يتربصون بالحرمين سوءًا، ويريدون النفاذ إليها من باب المندب.

ثم إن حاكم هرمز استعان بالبرتغاليين لطرد العثمانيين من القطيف!! فخفّ البرتغاليون في تسع عشرة سفينة من الهند تقل حوالي ١٢٠٠ مقاتل، واستطاع البرتغاليون بمعونة الخونة من العرب أن يخرجوا العثمانيين من تلك المنطقة، لكن بيري وابنه محمدًا حاصرا مسقط وهرمز وتمكنا من الانتصار على البرتغاليين ومَن معهم من خونة العرب أكثر من مرة، لكن بيري أيضًا اضطر لرفع الحصار عن مسقط وهرمز بسبب النجدات البرتغالية القادمة من الهند تباعًا، ولذلك اضطر بيري رئيس للعودة إلى البصرة.

وقرر بيري رئيس أن يترك الأسطول العثماني في البصرة ولا يجازف بإخراجه من الخليج خوفًا أن يدمره البرتغاليون الذين كانوا في هرمز، لكنه أخذ ثلاث سفن صغيرة سريعة وحمّلها بالغنائم وانطلق بها متخفيًا، واستطاع أن يصل إلى القاهرة بسفينتين فقط وتحطمت الثالثة.

وفاته:

وكان في البصرة وال عثماني يدعى قُباد باشا، وقد اختلف مع بيري رئيس وحقد عليه، فاستغل هذه الفرّصة، وأرسل للسلطان سليمان القانوني رسالة ذكر فيها أن بيري قد ترك الأسطول العثماني وهرب، وأن الأهالي في مسقط وغيرها اشتكوا منه ومن بحارته، ونجحت هذه الوشاية الخسيسة في استصدار فرمان عثماني بإعدام بيري رئيس!! وهذا ما جرى، فقد أعدم في القاهرة بعد سجنه سنة ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م وقد جاز الخامسة والثمانين!! وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولنفترض جدلاً أن بيري رئيس أخطأ أفهكذا يعامل القادة العظماء الذين وهبوا حياتهم لله تعالى جهاداً وعملاً وعلماً؟ ألم يقل النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم «**أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم**» وبيري رئيس من ذوي الهيئات ولا شك، أفلا عفوا عنه وراعوا شيخوخته؟! لكن هذا التسرع غير المحمود ربما كان له سبب آخر لم نعرفه فالله أعلم، ونسأل الله تعالى أن يقبله شهيداً ويرفع درجته في عليين.

الجوانب العلمية في بيري رئيس:

كان بيري رئيس مجاهداً بحرياً عظيماً، وفي الوقت نفسه كان عالماً متقناً لفنه الذي اشتهر به وهو رسم الخرائط للمعلوم والمكتشف من العالم آنذاك؛ ففي سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م رسم خرائط متقنة للعالم، وبقيت منها بقية محفوظة في متحف توب كابي في إستانبول اليوم، عليها توقيع بيري نفسه، وقد اكتشفها خليل أدهم مدير المتاحف الوطنية أثناء تصفية الملفات في قصر توب كابي سنة ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م وتسلطت عليها الأضواء منذ ذلك الوقت.

ورسم خريطة لمصر أثناء وجوده فيها زمن الحملة العثمانية على مصر واستيلائها عليها، وقدمها إلى السلطان سليم الأول في مصر سنة ٩٢٤هـ/ ١٥١٧م.

وألف كتاباً سماه «**بحرية**» فيه ٢١٢ خريطة، وفيه معلومات إرشادية للملاحين، وبعض الاكتشافات الأوربية للبحار، وفيه ذكر لجغرافية أجزاء من العالم المعروف آنذاك، وفيه ذكر لأعمال عمه البحار كمال ريس، وقد ضمّن كتابه هذا مئات الأبيات الشعرية التي تحدث فيها عن بعض ما ذكرته آنفاً من معلومات، وأهدى الكتاب للسلطان سليمان القانوني أعظم سلاطين بني عثمان ومَن دام ملكه قرابة نصف قرن، وإن لم يكن أفضل سلاطينهم، وأهداه إياه سنة ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م، وكتابه هذا موجود ومنشور.

وقد ذكرت المصادر العلمية الحديثة أن خرائط بيري رئيس فيها أمران محيران وعجيبان:

الأمر الأول:

لدقة البالغة مبلغاً مدهشاً إلى درجة أن الخرائط التي رسمها تطابق إلى درجة قوية

جدًا الخرائط المرسومة بالأقمار الصناعية، حتى أن ندوة عقدت في سنة ١٣٧٦هـ/ ٢٦-٨-١٩٥٦م في جامعة (جورج تاون) لدراسة خرائط بيري، واتفق الجغرافيون المشاركون فيها أن خرائط بيري رئيس لأمريكا هي اكتشاف خارق للعادة.

وهذه الخرائط - خرائط بيري - هي أقدم خرائط رسمت لأمريكا الشمالية والجنوبية موجودة على ظهر الأرض اليوم.

الأمر الآخر:

الخرائط التي رسمها بيري رئيس أظهرت أماكن لم تكتشف إلا بعده بمئات السنين، وهذا أمر عجيب لم يجد العلماء تفسيرًا له إلى الآن.

وقد قال الراهب الجزويتي (لاين هام) وهو مدير لأحد مراكز الأرصاد في (ويستون):

«خرائط بيري رئيس صحيحة بدرجة مذهلة للعقل، وهي تظهر بوضوح أماكن لم تكن قد اكتشفت حتى أيامه في القرن السادس عشر الميلادي، وقد رسم جبال انتاركتيكا - القارة القطبية الجنوبية - بتفاصيلها فيما رسمه من خرائط، مع أن هذه الجبال لم يكن أحد قد تمكن من اكتشافها إلا في عام ١٩٥٢م، أي: فى القرن العشرين بعد استخدام الأجهزة المتقدمة العاكسة للصوت، ولم يكن أحد يعرف أن أنتاركتيكا موجودة إذ كانت مغطاة بالجليد طوال عصور التاريخ».

وقال غيره:

«بمقارنة صورة الأرض التي التقطت من مركبات الفضاء في القرن العشرين بالخرائط التي رسمها القائد البحري العثماني في البدايات المبكرة للقرن السادس عشر اتضح التشابه المذهل بين صور مركبات الفضاء وبين خرائط بيري».

ولقد عنيت الحكومة التركية الحديثة بخرائط بيري فطبعتها على العملة التركية القديمة من فئة عشرة ملايين ليرة بين عامي ١٤١٩-١٤٢٥هـ/ ١٩٩٩-٢٠٠٥م، وطبعتها أيضًا على ورقة العشرة ليرات بين عامي ١٤٢٥-١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٥-

٢٠٠٩م، وتعرض الحكومة أيضًا خرائط بيري بين الفينة والأخرى على الجمهور التركي.

تلك كانت سيرة ذلك المجاهد البحري العظيم، والعالم الجغرافي، وراسم الخرائط الدقيقة أحمد محيي الدين بيري رئيس، وأرى - والله تعالى أعلم - أن الحكومة التركية ينبغي أن تظهر سيرته وأعماله على وجه حسن متقن، ويا حبذا لو عملت «فلمًا» يبين جوانب العظمة في جهاده وعلمه، فهو حريّ بسيرته العطرة أن يكون قدوة للناشئة الأتراك وغيره من الناشئة في العالم الإسلام، ولو كان بيري رئيس غربيّاً أو شرقيّاً لكانت العناية بسيرته على وجه غير هذا، رحمه الله تعالى وغفر له.

●●●



[٤]

المجاهد الصومالي

أحمد بن إبراهيم جران

[٩١٢-٩٤٩هـ]

[١٥٠٧-١٥٤٣م]

المجاهد الصومالي: أحمد بن إبراهيم جران ٢/١

إن المتتبع لتاريخ منطقة القرن الأفريقي : الصومال والحبشة وما جاورهما ليجد غموضًا كبيرًا، وقلة في المصادر والمراجع المنبئة عن تاريخ تلك البلاد، خاصة في العصر الوسيط والحديث، فالأحداث كثيرة ومتشابكة، والمعارك متتابعة وعديدة بين المسلمين والصليبيين.

وكم من رجال عظماء وقادة مجاهدين برزوا في تلك المدة، وعملوا على حماية الملة ونشر الدين لكن طواهم الزمان، وأسدل على سيرتهم النسيان، فلم يعد يذكرهم أحد، ولا يتعظ ويعتبر ببطولاتهم وجهادهم وبذلهم وتضحياتهم أحد، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن هؤلاء المجاهدين الأبطال أحمد بن إبراهيم جران، الإمام الصومالي، الذي عاش في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، فقد ولد سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٧م في إقليم «حوبات» من أعمال مقاطعة «عَدَلْ»، في أسرة صومالية عمل أفرادها جنودًا في جيش أمير مقاطعة «هرر»، وتلك المناطق معروفة عند المؤرخين العرب بسلطنة زيلع، وجران لقب له معناه الأعسر باللغة الأمهرية، وذلك لأنه كان يضرب بالسيف بيده اليسرى، وتنطق الجيم معطشة كالجيم المصرية، وفي بعض المصادر تُقلب غينًا.

وبداية أمر هذا الإمام المجاهد أنه كان أحد قادة فرسان المجاهدين مع سلطان اسمه الجراد أبون بن آدش - والجراد لقب ملكي يدل على فروسية - وكان هذا السلطان عادلاً، أبطل منكرات عديدة، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأقام الحق حتى أحبه الرعية، وملك سبع سنين.

وكان يحب أحمد بن إبراهيم جران ويقدمه؛ لما رأى من شجاعته وبراعته، فارتقى حتى صار أميرًا على مقاطعة عَدَلْ.

ثم إن هذا السلطان خرج عليه أبوبكر بن السلطان محمد بن آزر، وكان محمد بن آزر هذا من سلاطين المسلمين في تلك المنطقة قبل الجراد أبون، واقتتل الفريقان للأسف حتى قُتل الجراد أبون، وتولى أبوبكر سلطنة الصومال، لكنه كان على عكس السلطان الجراد أبون في سيرته وحكمه؛ فأظهر المنكرات، وآذى الناس.

فلما كثر هذا من صنيعه هرب من معسكره أحمد بن إبراهيم جران، وجرت أمور عديدة وحروب حتى عُقد الصلح بين السلطان أبي بكر وأحمد جران وتقاسما الحكم، وتسمى أحمد بن إبراهيم جران بالإمام، وصار إليه أمر ضبط البلاد وإقامة الأحكام، وللسلطان أبي بكر السلطنة والاسم.

لكن السلطان عاد إلى سيرته الأولى من إظهار المنكر، وأظهر العداوة للإمام أحمد ابن ابراهيم وأراد قتله، لكن انقلب السحر على الساحر وقتل الإمام السلطان، وعين أخاه عمر دين سلطانًا مكانه، وهدأت الأمور آنذاك، وضبط الإمام البلاد، وأقام فيها حكم الإسلام، وحارب القبائل الصومالية المفسدة حتى دخلت تحت الطاعة واتخذ من بلدة هرر عاصمة له.

وابتدأ سلسلة من المعارك الطويلة ضد الحبشة الصليبيين وعمره واحد وعشرون عامًا فقط، وقد كانت الحبشة تُغير على الصومال، بل سيطرت عليها في بعض الأزمنة وجعلتها تابعة لها، والصراع الحبشي الصومالي صراع طويل مرير حاولت فيه الصليبية العالمية أن تسيطر على الصومال منذ زمن بعيد وإلى يوم الناس هذا.

دعا الإمام القبائل الصومالية للجهاد في سبيل الله تعالى، فاستجاب له عدد كبير من المجاهدين، وصار له جيش قوي مرهوب الجانب، فخرج به إلى بلاد الحبشة، فلما سمع به ملك الحبشة النجاشي لينا دنكل خرج للقائه بجيش كثيف كثير العدد ومعه مئات البطارقة والقادة وعشرات الآلاف من الفرسان والرجّالة، ومع الإمام اثنا عشر ألفًا من الرجالة وحوالي خمسمائة فارس، واصطدم الجبلان والتقى الجمعان في موقعة هائلة في رجب من سنة ٩٣٥هـ.

وكان للإمام أحمد أثر كبير جدًا في المعركة من حيث التخطيط وتقسيم الجيش

وتثبيته في مواضع[١] بآيات وأحاديث ومواعظ، وكان لثباته وقوته وشجاعته أثر كبير في التغلب على عوامل التفوق عند الحبشة، فقد كانوا أكثر عددًا وعدة، وكانوا يقاتلون في بلادهم.

لكن صبر المسلمون صبرًا عظيمًا في معركة تسمى «صمبر كوري» حتى قُتل منهم خمسة آلاف، وهو عدد كبير بالنسبة إلى من كانوا مع الإمام، وأنزل الله تعالى نصره، وقُتل من الأحباش عشرات البطارقة وزيادة عن عشرة آلاف، وغنم المسلمون غنائم هائلة، وعظمت هيبتهم، وارتقت سمعتهم، ولله الحمد والمنة، وعاد الإمام بجيشه إلى هرر مسرورًا بفضل الله تعالى ونصره.

ولم يمكث الإمام إلا قرابة شهرين ثم انطلق للغزو، وقد حلف ألا يعود إلا بعد النصر أو الشهادة، وكان معه بعض العرب يجاهدون معه، واصطدم بالأحباش في معارك عديدة كبيرة وصغيرة حتى قام له ملك الأحباش بنفسه يريد قتاله، لكن لم يستطع وهرب من أمامه، والإمام أحمد في كل ذلك يغزو ويغنم ويفتح البلاد أو يصالحه أهلها.

وكان مع الملك أربعون رجلاً من إفرنجة أوربا يقاتلون معه ويخططون له ويعينونه، لكنهم لم ينفعوه بشيء أمام همة المسلمين وقوة اندفاعهم في الجهاد، وأسلم كثير من الأحباش بعد ما رأوا قوة الإمام واستيلاءه على البلدان واحدًا تلو الآخر، وكثير ممن أسلم حَسُن إسلامه وقاتل مع الإمام بعد ذلك.

وبعد أن رأى الملك أن الإمام قد انتصر في كل معاركه وفتح كثيرًا من أرض الحبشة عزم على السير إلى أرض أجداده وأصل ملكه وتدعى «أَمْحَرَة»، وفيها أعظم كنيسة في الحبشة، بناها الأحباش في ثمان وثلاثين سنة، وصفحوها بصفائح الذهب، وطولها مائة ذراع (قرابة سبعين مترًا) وعرضها كذلك، وعلوها مائة وخمسون ذراعًا، كل ذلك ذهب مرصع باللؤلؤ والمرجان، وفيها قبر أبي الملك، و«أمحرة» بلدة ذات حرث وزرع وضرع، وأنهار ومطر، وفيها القساوسة والرهبان، وهي دار الملك، وفيها كنائس كثيرة إضافة إلى الكنيسة الضخمة.

---

(١) مواضع جمع موضع. والموضع اسم مكان من وَضَع. وَضَع عن: محل أو مكان.

وكان الملك آنذاك في مكان قريب من «أمحرة» اسمه واصل، فبغته الإمام ليلاً في جماعة من الفرسان، فهرب الملك من أمامه، وغنم المسلمون خيمته الهائلة وسريره وفرشه وأموالاً لا تحصى، وكانت الوقعة سنة ٩٣٨هـ.

ثم سار الإمام إلى «أمحرة» فدخلها بسهولة ولم يلق مقاومة لأن الملك هرب، وتعجب هو ومن معه من عظم الكنيسة وهول ما فيها، ووجدوا في الكنائس من الذهب والفضة شيئًا لا يمكن تقويمه حتى أنهم وجدوا عجلاً من الذهب طوله كقامة الآدميّ، ووجدوا في بعض الكنائس الضخمة حريرًا مثقلاً بالذهب قدر خمسمائة حمل!! وفيها تيجان الملك والملوك المتقدمين، وفيها من الزينة الذهبية شيء لم يُر مثله.

وبعد ذلك قرر الإمام أن يطهر باقي أرض الحبشة من أدران الكفر، فسار في البلاد، وفتح الله على يديه كثيرًا من البلدان والقرى.

وكان الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، ومن لم يدخل الإسلام يعطي الجزية، ومن الأمور الدالة على عدل المسلمين أنهم لما فتحوا بلاد «ورب» ودفع أهلها الجزية أرسل إليهم ملك الحبشة نجدة، فأخبر أهل البلد الأمير الذي عينه الإمام واليًا على البلد واسمه يعقيم.

فقال لهم: ماذا تقولون أنتم؟

فقالوا له: أنتم أحب إلينا منهم، وما استرحنا إلا معكم، وأما أهلنا فإنهم قوم ظلمة يأخذون أموالنا غصبًا فنحن نقاتل معكم، ونحن أشد عداوة منكم!! فعملوا مع المسلمين مثل ما عمل أهل حمص مع أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه.

ولما تغلب الإمام على ثلثي أرض الحبشة تقريبًا ولم يبق إلا أرض «التجراي» وبعض البلاد الآخرى جمع قادة جيشه وأمراءه ورؤساءه واستشارهم في البقاء في الحبشة وعدم الرجوع إلى الصومال، وسوف يرسل إلى نسائهم وأولادهم ليلحقوا بهم في الحبشة، ويتخذونها بلادًا لهم، فوافقوه على رأيه، فأرسل الإمام إلى السلطان عمر دين رسالة يطلب فيها منه أن يرسل نساء الجيش وأولادهن إليهم، وأرسل له هدايا كثيرة وللرؤساء هدايا كذلك.

فأرسل السلطان النساء والأولاد إلى جيش الإمام، وأما الإمام وجيشه فلم يكفوا عن الجهاد، وأراد السير إلى أرض «التجراي» ليفتحها، وكان له ما أراد، لكنه لم يستطع المكث فيها لأنها كانت مُجدبة آنذاك، وانتشر فيها الطاعون ومات عدد من قواده، فارتحل منها إلى بلاد «الدنبية» واتخذها مقرًا له، وهي قريبة من بلاد «بقي مدر» التي افتتحها أيضًا، وكان ذلك سنة ٩٤١هـ، وبنى فيها مساجد، واستوطنها، وجعل فيها نساء العسكر وأولادهم، وصار يغزو منها ويجاهد ويعود إليها، ووزع قواده وأمراءه على بلاد الحبشة.

وظلت المعارك تدور بين الإمام وصليبية الحبشة ردحًا من الزمن، ونتائج تلك المعارك في أغلبيتها الساحقة لصالح الإمام، فقد جاهد الصليبيين هو وقادته في مائة معركة تقريبًا بين معارك كبيرة وأخرى صغيرة من سنة ٩٣٣هـ/ ١٥٢٧م إلى سنة ٩٤٩هـ/ ١٥٤٣م، لم تنهزم فيها قواته إلا مرة أو مرتين!! وذلك من فضل الله تعالى عليه وعلى من معه.

وفاته:

ولما رأى ملك الحبشة أنه يُهزم في كل مرة أمام الإمام لم يبقَ أمامه إلا أن يستعين بالبرتغاليين، وكانوا آنذاك قوة بحرية حربية كبيرة، فاستنجد بهم، وحثهم على المجيء لإنقاذه، فخفّ البرتغاليون سراعًا لنجدته فهم يحركهم الوازع الديني الصليبي.

وفي الوقت نفسه يريدون الهيمنة العسكرية والسياسية على الموانئ المطلة على البحر الأحمر وبحر العرب، فتلك الدعوة كانت الفرصة المناسبة لتحقيق ذلك، فاشترك البرتغاليون مع الأحباش لقتال الإمام، وكانت أسلحة البرتغاليين حديثة وقوية، وأسلحة الإمام قديمة وضعيفة نسبيًا، واشتبك الجيشان في معارك عديدة.

كان النصر فيها حليفًا للحلف البرتغالي الحبشي تارة، وللإمام أخرى إلى أن تمكن البرتغاليون من قتل الإمام برصاصة أصابته في معركة «زنطرا» في ١٧ ذي القعدة سنة ٩٤٩هـ/ ٢٢ فبراير ١٥٤٣م، فلم يتمكن جيشه من التماسك بعده وتفرق، وحاول

بعض قادته وزوجه الاستمرار في المعارك لكن لم يتمكنوا من مواجهة الحلف الصليبي ؛ فأضاعوا ما حققه الإمام من فتوحات باهرة .

وقد ذكرت من قبل أن جيش الإمام كان قصير النَفَس ، فإذا حقق انتصاراً ونال الغنائم فإنه لا يريد الاستمرار في المعارك ، بل يرغب في العودة إلى الوطن ، وهذا هو الخطأ الإستراتيجى القاتل الذي وقع فيه ذلك الجيش ، ولم يستطع الإمام إجبارهم على غير ما يريدون في أحيان كثيرة ، فسبب هذا الأمر ضياع مكاسب كثيرة كان يمكن تحقيقها لو استمر الجيش في القتال - كما رغب الإمام - ولم يقطع ذلك بالعودة إلى بلاده ، فذلك الجهاد الطويل الذي استمر خمسة عشر عامًا كان كفيلاً - لو استمر بدون انقطاع - أن يطهر أرض الحبشة كلها ، لكن المقدر كائن ، ولله الحمد والمنة ، وبمقتل الإمام وتفرق جيشه انتهت مرحلة من البطولات والانتصارات الإسلامية في أرض الحبشة لم تتكرر بعد ذلك في التاريخ إلى يومنا هذا ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وكان من نتائج معارك الإمام الطويلة فتح أكثر بلاد الحبشة ، ودخول الآلاف من النصارى والوثنيين إلى الإسلام ، وعاد بعض من أُجبر على التنصر إلى الإسلام ، وجاهروا بنصرة هذا الدين العظيم ، وعادت للمسلمين هيبتهم في تلك البقعة الجغرافية المهمة ، ودفع كثير من النصارى الجزية للإمام ، والتف حوله كثير من القبائل ، ووثقوا به وجاهدوا معه .

فما أحسن صنيعه ، وما أجمله ، فقد كانت حياته سلسلة من الجهاد المتصل ضد الصليبيين الأحباش ، ولم يعد إلى وطنه ، بل فضل العيش في الغربة مع الجهاد على العودة إلى وطنه مع العز والتمكين ، فلله دره ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة ورفع درجته إلى عليين .

●●●

المجاهد الصومالي: أحمد بن إبراهيم جران ٢/٢

ذكرت في الحلقة الماضية ولادة هذا الإمام على أرض الصومال ونشأته فيها، وتبوئه مراكز عسكرية متقدمة حتى صار أميرًا لمقاطعة، ثم إمامًا يقاسم السلطان الصومالي سلطته، ثم جهاده الطويل للأحباش وهزيمتهم أمامه في ٩٨٪ من المواقع!! إلى أن استعان ملك الحبشة بالبرتغاليين، وتمكن الحلف الصليبي من القضاء على الإمام وإنهاء ذلك الجهاد الرائع الطويل، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

صفات الإمام:

الإمام هو اللقب الذي عُرف به هذا المجاهد الصومالي، الذي كان له جزء من السلطة مع سلطان «هرر»، كما بينت في الحلقة الماضية، لكن كان له القيادة الدينية الشعبية.

وقد كان للإمام صفات جليلة منها: الشجاعة والإقدام، فما كان يهاب الموت بل يهجم عليه في مظانّه، ويثبت عسكره من المجاهدين، أو يردهم إذا أرادوا الهرب في المعارك العظيمة، ويعدهم ويمنيهم، فكان أكبر عامل من عوامل النصر في الجيش بعد طاعة الله تعالى، فكم خُوف من قوة الحبشة فلم يخف ولم يرجع عن جهادهم، رحمه الله تعالى.

ومن صفاته: الحماسة في الجهاد، والرغبة في التوغل في بلاد الحبشة حتى أنه في إحدى المرات التي توغَل فيها في بلاد الحبشة أراد الغارة على الملك نفسه فلم يطعه أكثر العسكر وأرادوا الرجوع، فرجع بهم لكنه بكى بكاء شديداً بسبب قلة موافقتهم له آنذاك، ثم بعد ذلك كان عسكره يثنونه عن التوغل في أرض الحبشة إذا أراد فعل ذلك، ويحتجون عليه بأن ذلك لم يكن من فعل أسلافهم، بل كانوا يغيرون على الأحباش فإذا انتصروا عادوا إلى بلادهم بالغنائم ولا يبقون، فلم يكن الإمام يملك إلا أن يطيعهم وقلبه مليء بالحسرة.

ومن صفاته : الإنفاق في سبيل الله وتجهيز المجاهدين ؛ حتى أنه لم يكن يُبقي سهمه من الغنيمة ، بل كان ينفقه راضية بذلك نفسه ، بل كان - أحيانًا - ينفق ذهب نسائه ويبيع أثاث بيته لينفق على المجاهدين .

وكان الإمام حسن المداراة لعسكره ولمن مَلّ الجهاد من قواده ، بل كان يعفو عنهم إذا أخطأوا ، وبلغ من حسن مداراته لهم أنهم تمالأوا مع السلطان عمر دين - الذي نصبه الإمام أحمد بنفسه - على خلعه لأنه أراد أن يصرف أموال الزكاة في مصارفها الشرعية وهم قد اعتادوا أكلها ، فلما علم بمؤامرتهم أحبطها لكن لم يعاقبهم وعفا عنهم .

لكنه كان حازمًا في موضع الحزم ولا يتهاون .

ومن صفاته : حسن الصلة بالله تعالى ؛ فقد كان يدعو الله تعالى في ساحات الجهاد بالنصر أو الشهادة ، وكان قد وطّن نفسه ألا يبقى في عاصمته «هرر» كثيراً بل يندفع للجهاد بعد أن يستريح من غزوة سابقة شهرين أو أقل أو أكثر ، وكان من عادته أن يأتي بمن يذكر الجيش ويقرأ عليهم القرآن ويحضهم على الجهاد إذا التحمت الصفوف ؛ فيهجم المسلمون على الكافرين مكبرين مهللين ، وإذا كان الجيش مستعداً للقتال لكن الصفوف لم تلتحم بعد فإن العسكر يقرأون القرآن ويدعون الله تعالى ، وهذا هو على التحقيق سر النصر .

وكان كثير المشاورة لقواده ؛ لا يبرم أمرًا إلا بالرأي الذي تستريح له الأغلبية .

ومن صفات الإمام : ثباته الكبير ورباطة جأشه في أصعب المواقف ، وقال أحد رواة معاركه : «رأيت ليلة عظيمة الريح والمطر . . . أظلمت السماء ، واحلولك الظلام ، وغابت النجوم ، وجاءنا ريح ومطر ، كأفواه القِرَب ، فلقد رأيت الريح تنقل الخيمة من الأرض وتطير بها فوق الخيمة التي تليها ، ولقد رأيت الإمام ورجلين من أصحابه ماسكين الخيام وهم يصيحون بالتهليل والتكبير كأنهم أيقنوا هلاكهم في ذلك المكان ، فرفع الله عنهم الظلام والمطر والريح ، واجتمع المسلمون عند الإمام وهم يقولون : كيف كانت هذه الليلة؟ فقال ناس : هذا طوفان نوح» .

وكم صادف الإمام من الصعاب العظام والمصائب الجسام في غزواته الكثيرة فما لان ولا استكان، بل ظل على ثباته، رحمه الله تعالى.

ومن صفاته: أنه كان هادئًا لينًا مع أصحابه وأهله، ومن الطرائف أن الإمام اصطحب زوجه دلونبره بنت الأمير محفوظ معه في إحدى المعارك في بلاد الحبشة، فقال له العسكر: لا نذهب إلى بلاد الحبشة إلا إذا أرجعت زوجك إلى بلاد الإسلام، والأمراء الذين من قبلك ما خرجوا بزوجاتهم معهم، فرفضت الزوجة الرجوع ومضت مع زوجها الإمام للقتال، وكان الطريق صعبًا حتى أنه في إحدى الممرات الضيقة حُملت الزوجة على رقاب بعض الرجال من شدة تعبها من الطريق، ومرّ المسلمون بموضع من أرض الحبشة يسكنه مسلمون يؤدون الجزية إلى ملك الحبشة، فأكرموا الإمام وجيشه وأعطوه عشرين مثقالاً من الذهب، فأراد أمراء العسكر أن يعطوا الذهب لزوج الإمام لكنه رفض واشترى به سلاحًا وقال للأمراء: لا يحل لها، هذه معونة للإسلام ولا أعطيها منه شيئًا.

ثم خرجت زوجه معه في غزوة أخرى وكانت حاملاً، لكنها ولدت في الطريق غلامًا سموه محمدًا، وتخلفت عن الجهاد بسبب ولادتها.

هذا الذي استطعت الوقوف عليه من أخبار المجاهد الصومالي أحمد بن إبراهيم الغازي الملقب بـ «جران»، رحمه الله تعالى رحمه واسعة، وأعلى درجته في عليين[1]، وذلك أن أخبار هذا المجاهد العظيم قد أغفلها المؤرخون الصليبيون سواء أكانوا أوربيين أم أحباشًا، بل إنهم لم يسمحوا بتداولها ونشرها دهرًا طويلاً؛ وذلك لأن هذا المجاهد العظيم قد فعل بهم الأفاعيل، وفتح أكثر بلاد الحبشة، ورد العدوان الصليبي المتكرر على بلاد الصومال، وأفشل مخططات أعداء الإسلام

---

(١) استخلصت هذه الدراسة من كتاب «تحفة الزمان» في فتوح الحبشة لشهاب الدين أحمد بن عبدالقادر بن سالم بن عثمان الجيزاني الشهير بـ «عرب فقيه» الذي شاهد أكثر معارك الإمام وسجلها في كتابه هذا، ومن هنا تنبع أهمية هذا الكتاب، وهو من جزأين، لكن الجزء الآخر مفقود، ولعل المصنف ذكر فيها تفاصيل نهاية جهاد هذا الإمام العظيم، فاستكملت هذه الدراسة من بعض المصادر الموجودة على الشبكة العنكبوتية، والله أعلم.

فيها، فلا ريب أن الحنق عليه كان عظيمًا والتعتيم على أخباره كان شاملاً، لكن أبى الله إلا أن يُظهر من أخباره ما كان مكتومًا، ويبين من أعماله ما كان سرًا مكنونًا، فاللهم لك الحمد.

قالوا عنه:

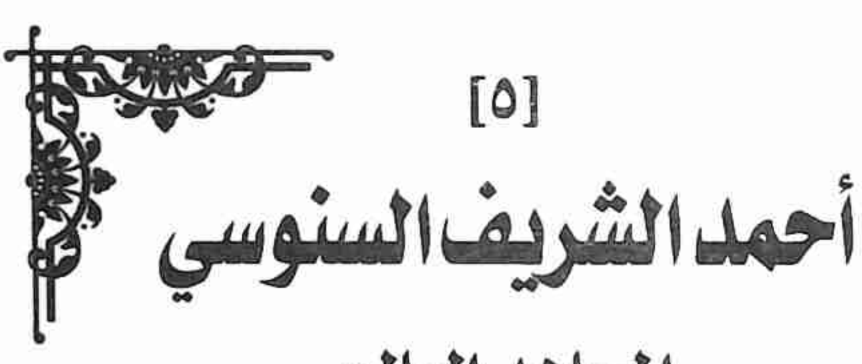
قال المستشرق رينيه باسيه:

«إن فتوحات أحمد جران تعتبر آخر الفتوحات الإسلامية لبلاد الحبشة، وهي من أشهر أحداث الحبشة التاريخية التي وعتها ذاكرة الغرب، فقد كادت هذه الفتوحات أن تسحق المسيحية، وتودي ببلاد الأحباش إلى مثل ما كانت عليه البلاد النوبية في ذلك الوقت».

وقال السفير الصومالي الأستاذ عبدالله آدم:

«واقع الأحداث في هذه المنطقة في ذلك الوقت يختلف تمامًا عما يصوره المؤرخون غير المحايدين وبخاصة ما كتبه المستشرقون، فالحقائق التاريخية أن موجات الجهاد المتصلة لسلاطين المسلمين في هذه المنطقة إنما كانت بقصد الدفاع عن أرضهم، وقيمهم الإسلامية، وعقيدتهم التي كان يُغار عليها في الفينة بعد الفينة، ولم يكن هناك مفر من مواصلة الجهاد».

●●●



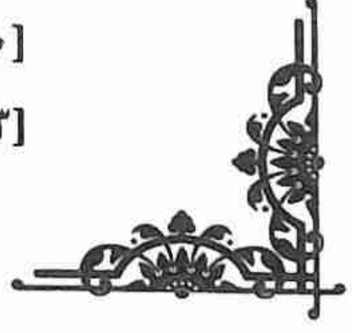
[٥]

أحمد الشريف السنوسي

المجاهد العالم

[١٢٩٠-١٣٥١]

[١٨٧٣-١٩٣٣]



المجاهد العالم: أحمد الشريف السنوسي ١/٢

لقد كان للحركة السنوسية آثار جليلة في ليبيا وبعض بلدان إفريقيا السوداء، وكان لرجالها عمل جليل، ويكفي أن منهم عمر المختار، الذي وقف ببطولة فائقة في وجه جيوش إيطاليا الصليبية، وأثبت أبطال السنوسية أن في بلاد الإسلام رجالاً لا يقبلون الضيم، ولا يرضون بالهوان، ومن هؤلاء السنوسيين البطل المجاهد أحمد الشريف السنوسي أكبر وأقوى شخصية ليبية يوم نزل الإيطاليون بليبيا، والزعيم الثالث للحركة السنوسية بعد جده المؤسس وعمه محمد المهدي، كما سيأتي ذكر ذلك قريبًا، إن شاء الله تعالى.

ولد سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م في واحة الجغبوب في ليبيا، وهي واقعة جنوب شرق طبرق متاخمة للحدود المصرية بالقرب من واحة سيوة، وحفظ القرآن في سن مبكرة، ودرس على مشايخ عديدين، منهم جده لأمه عمران بن بركة الفيتوري، ومنهم عمه السيد محمد المهدي السنوسي زعيم السنوسية، وقد لازمه طويلاً وهو الذي ابتدأ بتحفيظه القرآن، منهم: أبوه العالم محمد الشريف السنوسي، وجده إمام السنوسيين محمد بن علي السنوسي، وهو من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما.

وعمه العالم الداعية محمد المهدي السنوسي، هو الذي كان خليفة أبيه الإمام محمد بن علي السنوسي في زعامة السنوسيين، وبقي في الزعامة أربعًا وأربعين سنة، وأعلن تبعيته للدولة العثمانية، ثم اتخذ قرارًا بنقل العاصمة من الجغبوب إلى الكفرة لينأى بنفسه وجماعته عن الضغوط الأوربية عليه، وشكواها المتكررة للسلطان العثماني وطلبها سحب المهدي إلى إستانبول لتخلو لها إفريقيا السوداء، فلم يجد المهدي بدًا من الانتقال إلى الكفرة، وأشرف السيد أحمد على انتقال قافلة السنوسيين البالغة ٢٦٠٠ شخصًا من الجغبوب إلى الكفرة في رحلة طويلة.

ثم في سنة ١٣١٧هـ/ ١٩٠٠م تحول المهدي إلى «غرو» في تشاد، وكان ذلك تحولاً

تاريخيًا من أجل الدعوة إلى الله تعالى، ورافقه ابن أخيه السيد أحمد الشريف، لكنه فوجئ بتقدم فرنسا، فرأى أنه لا يمكن النأي بنفسه وجماعته عما يجري فقرر الدخول في معركة ضد فرنسا وكبدها خسائر كبيرة، وأظهر السيد أحمد بطولات وشجاعة نادرة في جهاده ضد الفرنسيين.

فلما شعر محمد المهدي بدنو أجله رأى أن ولده إدريس - الذي صار ملك ليبيا بعد ذلك، وثار عليه الهالك القذافي ثورته المشؤومة - لا زال صغيرًا ولا يصلح للزعامة، فعهد بخلافة السنوسيين إلى ابن أخيه أحمد الشريف السنوسي؛ لما رأى فيه من قدرة وكفاية ولحسن بلائه في جهاد الفرنسيين في الصحراء، وقد كان أول من دعا في ليبيا لجهادهم، وعُقد اجتماع في الكفرة مقر الزاوية السنوسية الرئيسة سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م، واختير أحمد الشريف السنوسي اختيارًا عامًا من مشايخ الزوايا السنوسية بعد محمد المهدي السنوسي الذي توفي في «غرو» بتشاد، ونقل جثمانه إلى الكفرة ودفن فيها.

ثم بعد ذلك تسلم السيد أحمد الشريف زعامة السنوسيين، وجعل الكفرة عاصمة بلاده.

جهاده ضد فرنسا:

واصل السيد أحمد الشريف جهاده ضد الفرنسيين الذين جاهدهم من قبل في زمن عمه، وألف كتابًا يحث فيه أتباعه على الجهاد واسمه «**بُغية المساعد في أحكام المجاهد**»، واتصل بسلطان دارفور علي دينار، وبسلطان واداي - في تشاد اليوم - داود مُرّة، وببعض مريديه في مصر، وذلك لعمل جبهة إفريقية إسلامية للجهاد ضد المستخرب الفرنسي، لكن ذلك لم يتم.

وبايعه آلاف الليبيين على الجهاد في سبيل الله.

وكان الفرنسيون يتقدمون من جهة الجنوب يريدون احتلال ليبيا التي كانت اسمًا تحت الخلافة العثمانية التي بلغت من الضعف مبلغًا كبيرًا، لكنها أمدت الشريف ببعض

الأسلحة، وحاول السيد أن يوقف الفرنسيين من التقدم إلى الكُفرة برفع العلم العثماني عليها لكن جاء الاحتلال الإيطالي لطرابلس ليوقف الزحف الفرنسي.

وكان يبذل ماله وجهده لإمداد المجاهدين بالسلاح، ويشجع التجار على جلب السلاح للمجاهدين، واشتهر قوله: «ليس عندي صديق أعز ممن يساعدني بالسلاح».

وكان يتحرق شوقًا للسلاح؛ لأنه قليل في ليبيا آنذاك حتى أُثر عنه القول: «ليس في هذه الدنيا أعز لدينا من السلاح والكتب؛ بالسلاح نهزم عدونا وعدوكم، وبالكتب يزداد علمنا، وهما أحرص ما يحرص عليه المسلمون».

وقال أيضًا: «إننا نحتاج إلى الأسلحة أكثر من أي شيء آخر».

وقد كان يحث التجار على السفر إلى السودان - أي: بلاد السودان مثل تشاد وليس المراد السودان بحدوده المعروفة الآن - ليبيعوا السلاح هنالك، ويقول لهم: إنها من أربح التجارة.

وكان يكاتب أعيان برقة ويطلب منهم أن يرسلوا الأسلحة، وكاتبهم مرةً في سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م، وطلب منهم أن يبعثوا له بألف وخمسمائة بندقية من حسابه الخاص، وأرسلها إلى المجاهدين في السودان.

ومن شدة اهتمامه بأمر السلاح وتتبعه لمصادره فإنه - كما ذكر الأستاذ عبدالرحمن عزام أول رئيس للجامعة العربية - انتقل بنفسه إلى شرق سرْت، وهي مدينة ليبية على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وأقام على شاطئ البحر في منطقة سلطان ليكون قريبًا من الغواصات الألمانية التي تحمل المال والذخيرة للعرب، وإنما صنعت ألمانيا ذلك نكاية في فرنسا وإيطاليا أثناء الحرب العالمية الأولى.

وجاهد الفرنسيين في تشاد في منطقة «غرو» وغيرها، واتصل بسلطان واداي داود مُرة سنة ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م وأقنعه بسحب اعترافه بالحماية الفرنسية على «كانم» و«باقومي»، واستجاب السلطان وسحب الاعتراف.

ولما دانت تشاد للحكم الفرنسي بعد ذلك بست سنوات انتقمت من الشريف بأن هدمت زوايا الإرشاد السنوسية، وألغت وجودها في البلاد التشادية تمامًا.

وبعد نزول الإيطاليين إلى ليبيا بسنتين هزمت فرنسا القوات السنوسية في «غرو» بتشاد، لكن الجهاد ضد فرنسا لم يتوقف، ولم تستطع فرنسا أن توقفه في تشاد وما حولها إلا بعد سنوات طويلة.

وقاتل السنوسيون أتباعُ السيد أحمد الشريف فرنسا في النيجر وفي جنوب الجزائر سنوات عديدة.

جهاده ضد إيطاليا:

لما غزت إيطاليا الصليبية ليبيا جمع السيد أحمد زعماء السنوسية والقبائل وشاورهم في الجهاد ضد الإيطاليين، فرأى منهم بعض الفتور فشجعهم بقوله: «والله نحاربهم ولو وحدي بعصاي هذه»، وقال لهم مرة أخرى: «إن هذا أمر لا يقبل المشاورة».

ولما نزل الإيطاليون على الساحل الليبي كانوا مدفوعين برغبة صليبية في احتلال ليبيا يتنازعها طمع في ثروات البلد، ومزاحمة الفرنسيين والإنجليز على الغنائم المنهوبة من الدول العربية التي ابتليت بالاحتلال والخراب، وكانت الدولة العثمانية آنذاك ضعيفة لا تستطيع عمل كبير شيء لليبيين؛ لذلك كانت ترغب في الصلح مع إيطاليا، فتحرك أحمد الشريف وأرسل وفدًا من زعماء السنوسية وكبار الأهالي وعدده أربعون شخصًا إلى دَرْنَة، وهي مدينة على الساحل الليبي، لمقابلة الوالي العثماني أنور بك - الذي صار وزيرًا للحربية بعد ذلك في الدولة العثمانية ولقبه أنور باشا - وسلمه الوفد رسالة من السيد أحمد جاء فيها: «نحن والصلح على طرفي نقيض، ولا نقبل صلحًا بوجه من الوجوه إذا كان ثمن هذا الصلح تسليم البلاد إلى العدو».

فأرسل الوالي أنور باشا عزيزًا المصري - الذي كان ممثلاً للدولة العثمانية في ليبيا ومديرًا للعمليات العسكرية فيها - إلى الجغبوب مركز القيادة السنوسية، وطرح مسألة الصلح على السيد أحمد الشريف، فكان رده حازمًا: «والله لا أسلمهم من أرضنا طراحة حصان».

لكن الدولة العثمانية أرغمت - بعد أن هاجمت إيطاليا أراضيها بالطائرات والمدافع - على توقيع معاهدة (لوزان) مع إيطاليا في أكتوبر سنة ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م وتنازلت

فيها عن ليبيا، فعمد السيد أحمد إلى تكوين حكومة سنوسية وطنية لتتولى أمر البلاد بعد انسحاب العثمانيين منها، وأصدر السلطان العثماني فرمانًا عين فيه أحمد الشريف رئيسًا للحكومة، وأعلن السلطان استقلال الولايات الثلاثة برقة وفزان وطرابلس لحفظ ماء وجهها أمام العالم.

وكان شعار تلك الحكومة: «الجنة تحت ظلال السيوف».

لما انسحب الضباط العثمانيون ترك أنور بك الأسلحة العثمانية للمجاهدين، وأوكلت مهمة القيادة إلى الضابط عزيز المصري، لكنه اتُهم من المجاهدين بالاتصال سرًا بإيطاليا فغضب وانسحب بقواته وأسلحته إلى مصر، فوقف له المجاهدون في طريقه ورفضوا أن يذهب بالسلاح، فاصطدم بهم في معركة، لكن السيد أحمد الشريف أرسل الشهيد بإذن الله تعالى عمر المختار إلى مكان المناوشات، وفاوض عزيز المصري، وفي النهاية سمح له بالخروج مع الأسلحة!! ويبدو أنه وجد أن هذا الحل يحقن دماء المسلمين.

وقرر السيد أحمد أن ينقل عاصمته الكفرة الموغلة بعدًا في الصحراء الجنوبية إلى الجغبوب شمالاً ليكون قريبًا من مناطق الجهاد، وفي الجغبوب اجتمع القواد عند الشريف أحمد ليوزعوا الجبهات، فكُلف أنور بك بقيادة درنة، وكُلف الهالك اللعين أتاتورك بجبهة طبرق، وبنغازي أوكلت إلى الضابط عزيز المصري، واشتعلت الجبهات ضد الغزاة الصليبيين، وأنشأ السيد أحمد عدة معسكرات في عدة مدن ليبية، وزودها بالسلاح والعتاد لمقاومة الإيطاليين.

ثم نادى السيد أحمد الشريف بالجهاد في منشور أرسله إلى مشايخ الزوايا والقبائل وعامة الناس في المناطق الليبية كافة، وطلب من كل شخص يتروح سنه بين الرابعة عشرة والخامسة والستين أن يتزود بالمؤونة والسلاح ويسارع إلى الجهاد، وهذا كله كان في الجبهة الشرقية من الحدود المصرية إلى ما بعد بنغازي وما يتصل بها جنوبًا في الصحراء الكبرى، أما الجهة الغربية من طرابلس وما حولها فقد كان لها مجاهدوها، لكن السيد أحمد أرسل مجموعة من الرجال والسلاح إلى العزيزية بالقرب من طرابلس لدعم المجاهدين هنالك.

اجتمع للسيد أحمد سبعة آلاف مجاهد، فانتقل بهم إلى منطقة المساعد المجاورة للحدود المصرية، ودربهم حتى أصبحوا مثل الجيوش النظامية، وطلب من أخيه صفي الدين السنوسي أن يقود منطقة غرب برقة (بنغازي) وأن يتصل بمجاهدي طرابلس مثل رمضان السويحلي، وأحمد بك سيف النصر، وغيرهما لإحكام الجهاد ضد الإيطاليين.

ووقف السيد أحمد وقفة المجاهد العظيم ضد إيطاليا، ويصور هذا أحسن تصوير شكيب أرسلان بقوله:

«لولا السيد أحمد الشريف رحمه الله لكانت إيطاليا استصفت قطري طرابلس وبرقة من الشهر الأول من غارتها الغادرة عليهما، وإننا لا نزال نتذكر كلام القواد ورجال السياسة الأوربية عن الحملة الإيطالية... إذ قال بعضهم: إن إيطاليا ستقبض على ناصية الأمر وتستكمل هذا الفتح في مدة خمسة عشر يومًا، وقال أشدهم تشاؤمًا، وأقلهم تخيلاً، وأبصرهم بأمور الشرق وهو (اللورد كتشنر) المشهور: إن هذا الفتح الذي يستسهله الناس على إيطاليا أمامه من الصعوبات أكثر مما يظنون، وقد يستغرق ثلاثة أشهر بالأقل، فليتأمل أولو الألباب كيف أن هذه الثلاثة أشهر امتدت عشرين عامًا، ورزأت الدولة الإيطالية بمائة وخمسين ألف عسكري قتلى عدا الجرحى، وبثلاثمائة مليون جنيه من الذهب الوضاح، هذا كان مجموع خسائر إيطاليا منذ سنتين بحسب الإحصاءات الرسمية، وهذا كان ثمرة جهاد السيد السند، نعم لم تأكل إيطاليا في اعتدائها الفظيع هذا مريئًا، ولم تشرب هنيئًا، وعلق في حلقها من سمك الإسلام حَسَك - أي: شوك - لا يزول في الأحقاب ولا في القرون».

وقد أكد السلطان عبد الحميد هذا المعنى - بعد عزله - إذ قال لجريدة ألمانية:

«إن الإيطاليين سيجدون مقاومة عنيفة من قبل السنوسيين وأتباعهم، وستكون خسائرهم فادحة، وحساباتهم خاطئة؛ لأن العرب هناك لن يسلموا طرابلس بسهولة، وأن الدولة قد أمّنت لهم ما يكفيهم من البنادق والمدافع لكي يقووا على المقاومة والدفاع عن وطنهم».

قام السيد أحمد بجولة طويلة في ربوع ليبيا، زار فيها الزوايا والقبائل، وزار المجاهدين في أماكنهم، وشارك في المعارك، وحث المجاهدين على الصبر والتحمل والقيام بأعباء الجهاد.

وقام السيد أحمد بجولات في إقليم برقة، ورتب أمور الضباط، ونظم المجالس الاستشارية بالمعسكرات، وشارك في المعارك بنفسه، ولقي فيها متاعب ومشاق، وأضناه السهر والجوع والعطش لكن كل ذلك لم يزده إلا بسمة في الثغر، وبهجة في الخاطر، كما وصفه بعض من كان معه في الجهاد، وكاد مرةً يُؤسر لكن الله تعالى نجاه.

وأرادت إيطاليا بعد اشتداد المعارك أن تبرم اتفاقًا مع السيد أحمد الشريف تترك له به إمارة البلاد الداخلية وتبقي هي بالموانئ والثغور الساحلية، لكنه كان عالمًا أن إيطاليا مثلها مثل سائر الدول الاستخرابية لا تفي بعهد ولا تصدق في قول.

وعرضت إيطاليا أيضًا بوساطة الخديو عباس حلمي ملك مصر على الشريف إمارة محدودة مقابل الرضا بالإيطاليين فرفض، وقال:

«إنني أقسم أمام جميع المجاهدين إني لن أنفك أذود عن حياض الإسلام ومجاهدة أعدائه إلى النفس الأخير ما دام معي نفر واحد من المجاهدين، وإذا خانني الجميع وسلموا للعدو أهاجر إلى المدينة لأعيش بجوار جدي الأعلى شاكيًا إلى الله خيانة الخونة، مستنزلاً لعنته عليهم إلى يوم الدين».

بعث السيد أحمد برسائل إلى زعماء الدول العربية والإسلامية يدعوهم للوقوف مع ليبيا فسارع عارف بك والي البصرة، وحبيب الله خان ملك الأفغان، ونشأت بك أحد كبار ساسة الترك، وعلى بن عبدالقادر الجزائري، وعمر طوسون من مصر لدعم ليبيا بما استطاعوه آنذاك، ونظم مسلمو الهند ومدغشقر وجزيرة موريشيوس حملات للتبرع لليبيا.

وزبدة الكلام أن السيد الشريف عمل كل ما في وسعه ليجاهد إيطاليا لكن الأمر كان أكبر منه، وسأبين في الحلقة القادمة - إن شاء الله تعالى - ما انتهى إليه أمر جهاده ضد الإيطاليين.

●●●

المجاهد العالم: أحمد الشريف السنوسي ٢/٣

ذكرت في الحلقة الماضية جهاد السيد أحمد الشريف في ليبيا وتشاد ضد إيطاليا، وفرنسا، وفي هذه الحلقة سأبين جوانب جهاده خارج ليبيا في مصر، وما حدث بعد ذلك من اضطراره للخروج من ليبيا، رحمه الله تعالى.

لم يكتف السيد أحمد بالجهاد في ليبيا ضد الفرنسيين والإيطاليين لكنه جاهد الإنجليز في مَصر؛ وذلك أن الدولة العثمانية أرسلت طلبًا على لسان أنور باشا وزير الحربية - الذي كان من قبل مسؤولاً عسكريًا في ليبيا كما ذكرت في الحلقة الماضية - تطلب فيه من السيد أحمد إعلان الحرب على بريطانيا ودخول مصر من الجهة الغربية، وكان ذلك تنفيذًا لاتفاق بين الدولة العثمانية وألمانيا، وأرسل أنور باشا الطلب مع أخيه نوري وعسكري عراقي اسمه جعفر العسكري، وكلاهما من كبار قادة تنظيم عسكري عثماني اسمه «تشكيلات مخصوصة»، فرفض السيد أحمد الطلب لأنه كان يرجو أن تنصره بريطانيا في حربه مع إيطاليا، ولأن بريطانيا كانت تسيطر على مصر التي كانت المعبر الوحيد للمؤن والسلاح إلى السنوسي، وباقي المعابر محتلة من إيطاليا وفرنسا، وكان إدريس بن المهدي السنوسي - الملك إدريس فيما بعد - يطالب بطرد من تبقى من الضباط العثمانيين لكسب تعاطف البريطانيين مع ليبيا في مواجهة صلف إيطاليا وغزوها.

وكلف الجنرال البريطاني (ماكسويل) وفدًا بإبلاغ السيد أن حكومة ملكة بريطانيا تعده أنها ستساعده ضد إيطاليا، وتحذره من الضباط العثمانيين الذين بجواره، لكن الضباط العثمانيين الذين كانوا مع السيد ضغطوا عليه، بل قد قطعوا عليه الطريق بأن شنت مجموعة عسكرية تركية من تنظيم «تشكيلات مخصوصة» هجمات على الإنجليز في السلوم، فغضب من هذا لكنه لم يجد في النهاية إلا دخول الحرب ضد إنجلترا بعد أن ألجأه الضباط العثمانيون إلجاءً لدخول الحرب، ودخل السنوسي مصر، وقاتل الإنجليز حتى هزمهم في السلوم، ولاحقهم حتى منطقة سيدى بَرّاني - وسميت بذلك

نسبة إلى البراني الساعدي أحد مجاهدي السنوسية الذي أنشأ زاوية في تلك المنطقة - حيث التحق بقوات محمد صالح حرب، وكان ضابطًا مصريًا تابعًا للقوات الإنجليزية لكنه تنبه واستيقظ وانضم إلى السيد أحمد الشريف، لكن بريطانيا تمكنت من صد الهجوم في معركة العواقير سنة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م.

وواصل السيد أحمد جهاده في الواحات المصرية فاحتل عددًا منها، واتصل بمشايخ الصعيد في أسيوط والفيوم، واتصل بسلطان دارفور علي دينار لتكوين جبهة ضد الإنجليز، لكن مشايخ العرب لم يستجيبوا، واستجاب السلطان علي دينار وثار على الإنجليز لكنه أخفق في ثورته تلك، وهنا وجد السيد أحمد الشريف أنه يقاتل الإنجليز في الواحات ببنادق قديمة على ظهور الخيل في معركة غير متكافئة، فالإنجليز يملكون الطائرات والمدفعية، وعانى من انقطاع الطعام فاضطر للتراجع والانسحاب.

وكانت هذه المعركة سببًا لخروج السيد أحمد من مصر، وذلك أنه اتجه بعد المعركة إلى الجغبوب، فهدده الإنجليز إن بقي فيها أن يضربوه بالطائرات ويدمروا قبر جده مؤسس السنوسية محمد بن علي السنوسي، وإنما صنع الإنجليز ذلك لتخوفهم من بقاء السيد أحمد قريبًا من الحدود المصرية، فلم يرَ بدًا من الخروج من الجغبوب فاتجه إلى جالو، ثم زلّة، فسُوكنة ثم هُون، ثم انتقل إلى ميناء العقيلة في الشمال.

وأقفل الإنجليز حدود مصر فلم تعد الميرة تأتي منها، وكان الإيطاليون قد استولوا على الموانئ، فلم يعد السيد أحمد يجد وسيلة لتدبير المؤونة لشعبه، ومات كثير من جنده بسبب المجاعة، وفاتحه ابن عمه إدريس بن المهدي -الملك إدريس فيما بعد- بحقيقة المجاعة والوضع الصعب الذي يواجه الناس لا سيما في برقة التي كان وكيلاً للسيد عليها، فأذن السيد لإدريس بالتفاوض مع الإنجليز والإيطاليين لفتح الحدود والموانئ، فعقدت اتفاقية فُرض فيها على السيد أحمد الشريف التنحي عن الحكم، وتشكلت الحكومة السنوسية الثانية برئاسة إدريس، ولم يجد السيد أحمد الشريف إلا أن يخرج من ليبيا إلى إستانبول ليدبر أمر ليبيا، واتصل بالسلطان وحيد فأذن له بالمجيء، فاستقل في سنة ١٣٣٦هـ/ سبتمبر ١٩١٨م غواصة ألمانية من مرسى العقيلة

إلى النمسا ومنها اتجه إلى إستانبول؛ فاستقبله أنور باشا وكبار رجال الدولة استقبالاً حافلاً.

ومن لطائف ما جرى له في ركوب هذه الغواصة أنه سأل الضباط الألمان: هل في ركوب الغواصة من خطر؟ فأخبروه أن الأمر لا يخلو من الخطر، لكنه مضى في ركوبها اعتماداً على الله تعالى ثم على رؤية رآها، فقد رأى شيخه أحمد الريفي في المنام فقال له: الشيء الفلاني ستأخذه من (بولا)، فسأل أحد الضباط: هل يوجد محل اسمه (بولا)؟ فقال له: نعم، إن المرسى الذي ستنزل فيه من بلاد النمسا اسمه (بولا)، فاعتقد أنه آمن في قصده النمسا، وقد تعطلت الغواصة في مدخل يابسة أوربا وتوقفت محركاتها، وخاف قباطنتها وبحارتها خوفًا شديداً لكن السيد أحمد الشريف كان مطمئنًا مستغرقًا في صلاته ودعائه، فأخبروه الخبر فقام معهم إلى لوحة التحكم بالمحركات فأداروها فدرات بفضل الله تعالى، فسُرّ الجميع بما جرى.

واستقبله السلطان في مسجد أبي أيوب الأنصاري، واتفق مع السلطان ووزير الحربية أنور باشا على استمرار الجهاد في ليبيا، لكن الحكومة سقطت، ونُحي أنور باشا، فلم ينجح الاتفاق.

وعقب هزيمة الأتراك في الحرب العالمية الأولى تولى الكماليون الحكم بقيادة الهالك مصطفى كمال أتاتورك، ونُحيت جمعية الاتحاد والترقي عن الحكم، وغزا اليونان تركيا، وقاد الهالك مصطفى كمال الجيوش، وظهر بلباس الإسلام، وأمر بإقامة الصلاة وإلغاء الجمارك ودور البغاء؛ فاغتر بحاله السيد أحمد الشريف وأعلن مساندته له، وبعث له الشيخ محمد عبدالله الزوي ومعه مصحف وسيف، ودعاه للثبات وإبقاء الخلافة، ووقف السيد معه خاصة أن مصطفى كمال كان يخوض حرباً ضد اليونان آنذاك، وساهم السيد أحمد في رفع معنويات الأتراك، ودار على بعض المدن التركية يأمر الناس بالوقوف مع أتاتورك، وأرسل إلى الأكراد رسائل تتضمن المعنى نفسه، وكانت صورة لأحمد الشريف بجوار صورة أتاتورك تطبع في الرسائل الموجهة إلى الأكراد ومعهما صورة متخيلة لصلاح الدين لإلهاب مشاعر الأكراد

وكسب تأييدهم لأتاتورك، وهدّأ السيد أحمد الأكراد، وطلب منهم الوقوف مع الأتراك ضد الغزاة، ثم بعد انتصار الأتراك رسخ مصطفى كمال أقدامه في تركيا.

أما السلطان وحيد خان فقد كان يحذر السيد من غدر أتاتورك، لكن السيد أحمد لم يكن يستجيب لتحذير السلطان، لفرط ثقته في الغادر الهالك الذي تصور بصورة المسلم التقي النقي!!

وأرسل إليه خالد درويش باشا رسالة محذراً له من الغادر اللئيم، قال له فيها:

«يا مولانا؛ يا خادم الإسلام؛ يا فرع الدوحة النبوية المباركة؛ إياك أن تغتر بمظاهر الدين التي يصطنعها مصطفى كمال للوصول إلى غايته فإني ربيته في بيتي، وبين عائلتي، وعرفت ظاهر أمره وباطنه، فما في قلبه ذرة من إيمان أو خوف من الله أو مبالاة بما يعمله، ودينه هواه، ولو تمكن لأضر الإسلام والمسلمين، وأنا كابنك وأخيك ومحبك أقول لك هذا، ولولا محبتكم التي ملكت عليّ جوارحي ما قلته لكم، وربما سيكون قولي هذا في يوم من الأيام جريمة نؤاخذ عليها، ونسأل الله أن يرشدنا إلى ما فيه سعادتنا في الدارين، آمين»، لكن للأسف لم يستجب السيد أحمد الشريف لهذه النصيحة وغيرها، وذلك ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وعرض عليه مصطفى كمال منصب نيابة الخليفة، فاعتذر إليه.

وبعد الحرب غدر أتاتورك فعلاً بالسيد أحمد الشريف، ذلك أن مصطفى كمال بدأ في حربه للإسلام وتغييره للشريعة، فغضب السيد وقال له: «إننا والمسلمين لم نناصرك ونقف معك إلا لأجل حفظ كيان الدين الإسلامي»، وطلب منه إعادة النظر في صنيعه، فلم يَرُق هذا الكلام لمصطفى كمال وعدّه تدخلاً في سياسته الشيطانية، وبدأ يضايق السيد أحمد، وفرض عليه رقابة لصيقة، وسحب حراسته من الضباط والجنود، وأوقف المصروف الذي كان يصرف له، وعملوا له مكيدة بأن أرسلوا له شخصاً ادعى أنه طالب علم فطلب منه تزكية لحفيد السلطان عبدالحميد الذي كان مقيماً في بيروت ليعينه في مهمته، وألح عليه حتى خجل منه السيد وأعطاه ما يريد، فوصل الكتاب إلى مصطفى كمال، فجمع مجلس الحكومة وقرأ عليهم الكتاب، فقالوا: هذه خيانة عظيمة للدولة؛

وذلك لأن الدولة قطعت كل صلة لها بالدين وبالخلفاء خاصة السلطان عبدالحميد وكل ما يمت إليه بصلة، وقرروا عقب هذه المكيدة إبعاد السيد أحمد عن تركيا في مدة لا تتجاوز عشرة أيام أو إلزامه بالإقامة الجبرية، فاختار السيد الخروج.

وتوجه السيد أحمد الشريف إلى دمشق، واستقبله سعيد الجزائري حفيد الأمير عبدالقادر وأعيان الشام الذين فرحوا به واحتفلوا بمقدمه، لكن اضطر للخروج من دمشق بعد أن قرر الفرنسيون إبعاده منها، فخرج إلى القدس، وقابل المجاهد أمين الحسيني فيها.

ثم إن الإنجليز أبعدوه من القدس، فاتجه إلى طرطوس في الشام، وهناك عرض عليه الإنجليز ملك العراق، لكن الملك فيصل بن الحسين سبقه إليها لكثرة أتباعه آنذاك، ولقد عينه مجلس المبعوثان العثماني (مجلس الأمة) ملكًا على العراق سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م، لكن القدر لم يساعده.

وأراد بعض المسلمين - ومنهم مسلمو الهند - المناداة بأحمد الشريف خليفة بعد إسقاط الهالك الأثيم مصطفى كمال الخلافة في تركيا، وقد فُضل على الملك فؤاد المصري والشريف حسين شريف مكة فقد كان كلاهما يتمنى الخلافة لنفسه، وكذلك حاول ملك الأفغان أن يظفر بالخلافة، لكن الأمر لم يتم لأحد منهم، وبقيت بلاد الإسلام إلى الآن بدون خليفة!!

وطلب منه الفرنسيون مغادرة مناطق نفوذهم مرة أخرى، فطلب السيد أحمد من الملك عبدالعزيز الإقامة في الحجاز، فوافق الملك، فاتجه السيد أحمد إلى مكة المكرمة، ثم إلى المدينة النبوية المنورة.

واتخذ من مقامه في الحجاز من موسم الحج وسيلة للاتصال بالليبيين من قادة الجهاد، ولجلب الدعم من المسلمين القادمين للحج.

وعمل في مدة إقامته في الحجاز أعمالاً جليلة، منها:

- استطاع أن يدعم الهدنة بين الملك عبدالعزيز وإمام اليمن يحيى، ونجح في إقناع الإمامين بتوقيع الاتفاقية بينهما.

- وأصلح بين قبيلتي شمر وعنزة إثر خلاف وصراع، وعقد صلحًا بينهما.

والعجيب أن السلطات الإيطالية عرضت عليه العودة إلى ليبيا والتفاوض فأبى السيد إلا بعد أن تفاتح إيطاليا إدريس بهذا الشأن وتفاوضه لإثبات صدقها، وبعث السيد أحمد المهتدي النمساوي محمد أسد - الذي كان يهوديًا فأسلم - إلى برقة ليقابل عمر المختار وليطلب منه مغادرة البلاد خوفًا عليه، لكن عمر المختار رفض إلا أن يجاهد إلى النهاية، وبعد المقابلة بمدة يسيرة أسر عمر المختار وأعدم، رحمه الله تعالى وتقبله في الشهداء، فأرسل السيد أحمد رسالة إلى ليبيا يُعين بها يوسف بورحيل قائدًا عامًا لحركة الجهاد في ليبيا، وشدد على مواصلة الجهاد وقرب النصر.

وزار السيد أحمد الشريف صبيا عاصمة الأدارسة وبلاد عسير، وهي تقع جنوب المملكة اليوم، ووجد أن أميرها هو علي بن محمد بن علي، وكان عمره آنذاك ١٨ عامًا.

وقد تولى الإمارة بعد وفاة والده السيد محمد بن علي الإدريسي سنة ١٣٤١هـ، وجده لا يصلح للإمارة، وأن الأصلح لها هو عمه الحسن بن علي الإدريسي الذي انصرف عنه وزراء الأدارسة لقوته وعينوا ابن أخيه لضعفه، وكان الأمير قد اتخذ من جيزان عاصمة له، فارتحل إليه السيد أحمد الشريف ووعظه ونصحه أن يترك الظلم والملاذ الحرام، لكن لم يجد عنده استجابة للنصح، فعاد إلى صبيا وتمكن من مقابلة الأمير الحسن بن علي، وطلب منه أن يتولى الإمارة فتردد، لكن السيد أحمد الشريف شجعه وقال له: «رقبتي هذه قبل رقبتك»، فتشجع وأرسل إلى مشايخ صبيا والمخلاف السليماني وأخبرهم برغبة السيد أحمد الشريف، ففرحوا وبايعوا السيد الحسن بن علي تلك الليلة، وانصرف الناس عن الأمير علي وتركه أخلص الناس له، وانصرف عنه جيشه وبايع الحسن.

ثم إن الحسن استشار السيد أحمد الشريف مع من يميل: إلى إمام اليمن أم إلى الملك عبدالعزيز، فأشار عليه السيد أحمد أن يكون مع الملك عبدالعزيز، فاستجاب له وعقد معاهدة مع الملك، وأشهد عليها السيد أحمد الشريف السنوسي.

وفاته:

توفي السيد أحمد الشريف - بعد جهاد طويل - في مدينة رسول الله ﷺ سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٣م، ودفن في بقيع الغرقد بين الإمام مالك وإبراهيم ابن سيدنا رسول الله ﷺ ورضي عنه.

وقام بدفنه الشيخ عبدالمالك الطرابلسي نزيل الحجاز رحمهما الله تعالى، ومشى في جنازته أمير المدينة المنورة، وقيل: لم ير أهل المدينة مثل جنازته.

وصُلي عليه صلاة الغائب في مصر وفلسطين وعدد كبير من أقطار الإسلام، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

وأعلنت إيطاليا أنه بموت أحمد الشريف ماتت جميع مخاوفنا في إفريقيا!!

وفي الحلقة القادمة - إن شاء الله تعالى - سأذكر صفاته، ومناصبه، وما قيل فيه.

●●●

المجاهد العالم: أحمد الشريف السنوسي ٣/٣

ذكرت في الحلقتين الماضيتين بعض أحوال المجاهد الكبير السيد أحمد الشريف السنوسي داخل ليبيا وخارجها إلى أن توفاه الله تعالى، وفي هذه الحلقة أذكر بعض صفاته وما قيل فيه.

صفات السيد:

من أحسن من وصفه أمير البيان شكيب أرسلان فقد قال فيه:

«قد رأيت في هذا السيد السند بالعيان ما كنت أتخيله عنه بالسماع، وحُق لي والله أن أُنشد:

كانت محادثة الركبان تخبرنا ... عن جعفر بن فلاح طيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت ... أذني بأحسنَ مما قد رأى بصري

رأيت في الرجل حبرًا جليلاً، وسيدًا غطريفًا - أي: حسنًا- وأستاذًا كبيرًا، من أنبل من وقع نظري عليهم مدة حياتي، جلالةَ قدر، وسراوة - أي: مروءة وفضل - حال، ورجاحة عقل، وسجاحة - أي: دماثة ولين - خلق، وسرعة فهم، وسداد رأي، وقوة حافظة، مع الوقار الذي لا تغض من جانبه الوداعة، والورع الشديد في غير رياء ولا سمعة، سمعت أنه لا يرقد في الليل أكثر من ثلاث ساعات، ويقضي سائر ليله في العبادة والتلاوة، والتهجد... وأكثر أحاديثه في قصص رجال الله وأحوالهم ورقائقهم، وسير سلفه محمد بن علي السنوسي والسيد محمد المهدي وغيرهما من الأولياء والصالحين، وإذا تكلم في العلم قال قولاً سديدًا... وقد لاحظت منه صبرًا قلّ أن يوجد في غيره من الرجال، وعزمًا شديدًا تلوح سيماؤه على وجهه... وقد بلغني أنه كان في حرب طرابلس - يعني ليبيا مع الإيطاليين - يشهد كثيرًا من الوقائع بنفسه، ويمتطي جواده بضع عشرة ساعة على التوالي بدون كلال، وكثيرًا ما كان يغامر نفسه، ولا يقتدي بالأمراء وقواد الجيوش الذين يتأخرون عن ميدان الحرب مسافة كافية ألا تصل إليهم يد العدو فيما لو وقعت هزيمة».

وكانت صلته بالله حسنة، وقد ذكرت في الحلقة الماضية قصة الغواصة الألمانية، وكذلك من الدلائل على حسن تلك الصلة أنه في إحدى معاركه ضد الإنجليز عدم جيشه الماء، فأمر بصلاة الاستسقاء، فأنزل الله تعالى المطر، وظل ينهمر يومين كاملين، ولله الحمد والمنة.

وقد وصف الضابط العراقي العثماني جعفر العسكري الذي كان عضواً في تنظيم عسكري يُدعى «تشكيلات مخصوصة»، وقد بينت حاله من قبل، وصف معسكر المجاهدين حول السيد أحمد الشريف، ووصف كتيبة خاضعة للقيادة المباشرة للسيد أحمد، فكان مما قاله في هذه الكتيبة الخاصة:

«كانوا أربعمائة من طلبة العلم وحفظة القرآن، وكانوا مسلحين بأحدث الأسلحة، ووظيفتهم المحافظة على حياة السنوسي، وإقامة الحرس في أطراف الزاوية السنوسية، وكانوا يرتلون القرآن بصوت جَهْوَري مدة الحراسة، ولم يخل ذلك من التأثير العظيم في كل من يشهد ذلك الخشوع والإجلال».

وقال الشيخ مصطفى المصراتي - فيما نقله عنه الأستاذ إبراهيم صهد - وكان أحد أفراد هذا المعسكر:

«كنا في معية السيد أحمد نتبادل نوبات الحراسة، وكنا نقضي فترة الحراسة بتلاوة القرآن الكريم، وعندما كانت تتقضى نوبة أحدنا فإنه يسلم لمن يليه شيئين: سلاح الحراسة، والآية التي وقف عندها، فيتابع المناوب الجديد القراءة من حيث وقف سابقه، وهكذا كان لكل نقطة حراسة ختمتها المنفصلة، والله وحده يعلم كم مرة ختمنا القرآن».

وقال أيضًا:

«كنت مناوبًا في إحدى ليالي الجبل الأخضر - منطقة قرب بنغازي - الشاتية، وكان الجو شديد البرودة، وكانت أمطار غزيرة قد هطلت، فأحالت المنطقة إلى بِرك وأوحال.

وكنت قد بلغت في تلاوتي آية سجدة، فنظرت حولي: الأرض موحلة، والبِرك

في كل مكان، والبرد شديد، فخملت نفسي وتكاسلت فلم أتوقف للسجود وواصلت التلاوة، فإذا بصوت السيد أحمد يناديني من داخل الخيمة: اسجد أيها القارئ، فسجدت، العجيب أنني لم أجد في سجودي أثرًا للوحل أو للبلل، فقد قيض الله لي أرضًا جافة سجدت على أديمها، وفي اليوم التالي بعد صلاة الفجر تحدث إلينا السيد أحمد عن حكم سجود التلاوة، ووجوب طاعة الله في المنشط والمكره دون أن يذكر شيئًا عن سبب موعظته، وقد اكتشفنا بعدئذ أن السيد أحمد كان يتابع قراءتنا، ويصحح للمخطئ أو يفتح على الناسي، فسألناه: كيف تبقى مستيقظًا دون أن تنام؟ فقال لنا: كيف أنام والقرآن يتلى على مسمعي؟».

مؤلفاته:

ألف كتابًا كبيرًا في «**تاريخ السادة السنوسية وأخبار أتباعهم**».

وله كتاب «**الشموس البرهانية النورانية العرفانية**».

وألف كتابًا سماه «**السراج الوهاج في رحلة السيد السنوسي من الجغبوب إلى التاج**». والتاج زاوية في الكُفْرة، وقد دون في هذا الكتاب رحلاته مع عمه المهدي السنوسي زعيم الحركة السنوسية الثاني من الجغبوب إلى الكفرة ثم إلى غرو في تشاد.

وله ثَبَت - أي: فهرست - اسمه «**الفيوضات الربانية**».

وله كتاب اسمه «**الأنوار القدسية في مقدمة الطريقة السنوسية**».

وقد أجاز الكثيرين إجازة خاصة وعامة في الرواية وغيرها، في الحجاز والشام وليبيا وغيرها، رحمه الله تعالى.

وله كتاب «**المساعد في أحكام المجاهد**».

مناصبه:

بالإضافة إلى زعامة الحركة السنوسية ورئاسة الحكومة الليبية الأولى عينه السلطان العثماني سنة ١٩١٥م نائبًا له على إفريقيا، ومنحه منصب وزير، ولقب باشا، فصار بإمكان السيد أحمد منح الألقاب العلية لقادة المجاهدين.

ما قيل في السيد:

قال فيه أمير البيان شكيب أرسلان في كتابه الجليل «حاضر العالم الإسلامي»:

«اتحاد الكلمة على نزاهة هذا الرجل، وتجرده من المآرب الشخصية، وعزوفه عن حظوظ الدنيا، وانصراف همه كله إلى الذبّ عن بيضة الإسلام بدون غرض سوى مرضاة الله وحفظ استقلال المسلمين».

وقال فيه أمير البيان شكيب أرسلان -أيضًا- قولاً عظيمًا معبراً بقوة عن حياة المجاهد العظيم أحمد الشريف:

«إن هذا الفقيد العظيم لو عاش في زمن السلف الصالح، وأيام الغزوات والفتوحات العُمرية لما كان مكانه في ذلك الوقت ليقصر عن مكان أحد من أولئك الأبطال الذين نشروا الإسلام في الخافقين».

وقال فيه شكيب أيضًا:

«كان يقضي سائر الليل في العبادة والتهجد، وأكثر أحاديثه في سيرَ رجال الله، وكان كثير الاهتمام بالجهاد، والتدريب على فنون الطراد، لأنه تلميذَ مدرسة أعطت لمبدأ الجهاد في سبيل الله المقام الأول من اهتماماتها يريد المدرسة السنوسية».

ولقد وصف طول قيامه في تراويح رمضان، وكيف كان يصلي كل يوم بأصحابه بخمس القرآن حتى أنه لم يعد يستطيع أن يجاريه.

وقال فيه النمساوي محمد أسد الذي اهتدى إلى الإسلام بعد أن كان يهوديًا واسمه (ليوبولد فايس)، في كتابه «الطريق إلى الإسلام»:

«ليس في الأمة العربية كلها شخص أحببته كما أحببت السيد أحمد، ما من رجل ضحى بنفسه تضحية كاملة مجردة من كل غاية في سبيل مثل أعلى كما فعل هو، ولقد وقف حياته كلها - عالمًا ومحاربًا - على بعث المجتمع الإسلامي بعثًا روحيّاً، وعلى نضاله في سبيل استقلاله السياسي».

وقال فيه محمد أسد أيضًا:

«لم يكن اهتمامي البالغ بمصير السنوسيين ناشئًا عن إعجابي ببطولتهم المتناهية في

قضية عادلة مُقسطة فحسب، بل إن ما كان يهمني أكثر من ذلك هو ما كان يحدثه انتصار السنوسيين من تأثير على العالم العربي بأكمله؛ إذ إنني لم أستطع أن أرى في العالم الإسلامي كله إلا حركة واحدة كانت تسعى صادقة إلى تحقيق المجتمع الإسلامي المثال: الحركة السنوسية التي تحارب الآن معركتها الأخيرة في سبيل الحياة»، وكلامه هذا رائع.

وقال فيه محمد أسد - أيضًا- رحمهما الله تعالى:

«كان يحمل اسمًا مشهورًا في طوال العالم الإسلامي وعرضه: السيد أحمد الشريف إمام السنوسية، ما من اسم آخر أقضّ مضاجع الحكام الاستعماريين (الاستخرابيين) ذلك العدد الكبير من الليالي في شمالي أفريقيا حتى اسم عبدالقادر الجزائري في القرن التاسع عشر أو عبدالكريم الريفي (الخطابي) الذي كان شوكة قوية في جانب الفرنسيين، ذانك الاسمان مهما كانا خالدين عند المسلمين كافة لم يكن لهما إلا معنى سياسي، في حين أن السيد أحمد طريقته كانت قوة روحية عظيمة».

نعم إن هذا الذي قاله محمد أسد رحمه الله تعالى هو سر صمود السيد أحمد الشريف وجهاده الطويل أكثر من أربعين سنة، رحمه الله تعالى.

وقال فيه الشيخ الطاهر الزاوي العالم الليبي المعروف:

«السيد أحمد الشريف صقله العلم، وهذبته العبادة؛ فعفّت نفسه، وكبرت همته، وأخلص عمله لله فتولى توفيقه، وأطلق ألسنة الناس بمدحه والثناء عليه».

وختامًا أقول:

لقد كان السيد أحمد الشريف السنوسي آية من آيات الله تعالى في الجهاد، فقد جاهد ضد ثلاث دول كبرى: فرنسا وإيطاليا وانجلترا، ولم يكن له نصير أو مساعد إلا قليلاً، ولو سوعد الرجل لتغير وجه التاريخ، لكن أنى ذلك وديار الإسلام كلها - تقريبًا - كانت ترزح تحت احتلال بغيض طويل، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وربما اختلفت الأنظار في تقويم صنيع السيد أحمد الشريف وجهاده الطويل، لكن الكلمة اتفقت على عظم وجلال ما قام به، رحمه الله تعالى.

[٦]

خوجة نياز حاجي

القائد العام للجهاد التركستاني ورئيس الجمهورية الإسلامية التركستانية

[١٣٠٥-١٣٥٩ هـ]

[١٨٨٠-١٩٤٠ م]

كم ضحى المجاهدون التركستانيون الشرقيون، وكم بذلوا من الغالي والنفيس لتحرير بلادهم من الهمجية الصينية؛ لكن الأحوال لم تكن مواتية، وموازين القوى كانت في صالح الصين، أما العالم الإسلامي آنذاك فكانت كل بلد مشغولة عن الأخرى بهمومها وأحوالها، والمسلمون أصبحوا بعد إسقاط الخلافة- مثل الغنم التي ليس لها راع في الليلة المطيرة الشاتية المظلمة؛ فمن أين سيأتي المدد لإخواننا التركستان الشرقيين؟ لكنهم مع كل ذلك استفرغوا وسعهم وبذلوا جهدهم في مقاومة الاحتلال، وثاروا عليه مرة بعد مرة، ومن ذلك الثورة الجهادية الشهيرة سنة ١٣٥٠/ ١٩٣١، وبرز فيها أبطال من أهمهم وعلى رأسهم خوجة نياز حاجي.

ولد سنة ١٣٠٥/ ١٨٨٠ تقريبًا، في ولاية قمول المجاهدة في أقصى شرق أرض تركستان الشرقية الطاهرة في قرية قارادوه، وكان أهل تلك البلاد رعاة غنم ومروضة خيول وأصحاب بأس؛ فنشأ فيهم خوجة نياز على التقشف والشدة، وهم أهل مروءة ونخوة، مستمسكون بالإسلام لا يعرفون غيره.

وبشجاعة خوجة نياز وفروسيته وصرامته توظف لدى الطاغية شاه مقصود وانك، ووانك كلمة صينية تعني الحاكم المطلق والمتصرف العام، وهو معين من قبل الحكومة الصينية، ويتعهد لها بجمع المال وتسليمه، وعليه زيارة إمبراطور الصين كل ٤-٥ سنوات محملاً بالهدايا الثمينة، ومقابل هذا تطلق الصين يده في ولايته فيظلم كما شاء!!

ولما قامت ثورة قمول الجهادية على شاه مقصود وانك وكانت تسمى ثورة تورفان- تعاطف معها، فلما أُخمدت بالسيف خرج خوجة نياز إلى المناطق الجبلية، وتسمى باسم إسحاق، وخالط الصيادين في الجبال؛ فاجتهد شاه مقصود بالبحث عنه، وضغط على أهله؛ فكتبوا إلى مساعده أمير ترخسيون ليتوسط بين خوجه نياز وشاه مقصود للعفو عنه، فتوسط وعفا عنه شاه مقصود، وعاد إلى وظيفته رئيسًا للحرس الأميري.

ثم استأذن للحج هو وأمه وأخواه فأذن له شاه مقصود؛ فبقي في الحرمين خمس سنوات، وعاد سنة ١٣٣٠/ ١٩١٢، فوجد أن قمول قد ثارت مرة أخرى بقيادة تيمور خلفة القمولي؛ فانضم إليه خوجة نياز، وصار مسؤولاً عن قطع طريق أورومجي -وهي العاصمة- إلى قمول، ثم استطاع شاه مقصود القضاء على هذه الثورة- ثورة تيمور خلفة بالمكر، كما سيأتي في ترجمة تيمور، إن شاء الله تعالى؛ فعاد خوجه نياز إلى الاختفاء باسم مستعار، وبعد سنة ١٣٣٩/ ١٩٢٠ توفي شاه مقصود؛ فعينت زوجته ربيبها متصرفًا بدلاً عن زوجها ووكيلاً عنها، فعاد خوجة نياز إلى موطنه وعاش مع أهله وعمل بالتجارة.

وفي سنة ١٣٥٠/ ١٩٣١ وهي سنة الثورة الإسلامية الجهادية، أراد القائد الصيني ني لون في مدينة قمول الزواج بإحدى التركستانيات وهي وردة بنت عبد نياز مراب، فلم يرض أبوها فهدده، فاتفق أبوها مع رجل مجاهد اسمه صالح على خداعه، وأظهر الموافقة؛ فقدم القائد إلى العرس ومعه ثلاثة وثلاثون من رجاله، فوضعوا سلاحهم جانبًا وجلسوا للغداء، أما القائد فدخل على عروسه التي لم تكن إلا شابًا قوي الجسم فقتله، فقتلوا جميعهم. وقد صور ما جرى الدكتور نجيب الكيلاني -رحمه الله تعالى- في قصة جليلة بعنوان «ليالي تركستان».

وكانت تلك الواقعة شرارة البدء في الثورة المباركة التي عَمّت كل التركستان، فاجتمع المجاهدون وقرروا أيضًا إرسال مجموعة منهم إلى منغوليا لطلب السلاح والمعونة، وقرروا قرارات أخرى، وتعاهدوا عليها، فاستجابت منغوليا وأرسلت خمسمائة بدلة عسكرية، وسبعين بندقية، وأربعين ألف مثقال من العملة الفضية، وسمحت لبعض الشخصيات الإيجورية المقيمة في منغوليا بالذهاب إلى قمول.

وكان هناك قائد صيني مسلم اسمه ماجونكين استعان به خوجة نياز، وأبلى بلاءً حسنًا في البداية، لكن سرعان ما نشب الخلاف بينهما بسبب إرادة القائد الصيني التفرد بقيادة الثورة ورئاسة التركستان؛ فحصل من وراء ذلك الخلاف شر كثير، وكان يوسّع شقة الخلاف قائد صيني كافر في أورومجي اسمه شين سي سه الذي حكم البلاد ما بين سنة ١٣٥٣-١٣٦٣هـ/ ١٩٣٤-١٩٤٤م.

وفي ذلك الوقت قامت ثورة محمد أمين بوغرا في ولاية خوتان سنة ١٣٥٢/ ١٩٣٤، ونجحت الثورة، ونُصب الشيخ محمد نياز أعلم أخو نوم مفتي ولاية خوتان سلطانًا على الحكومة الثورية في خوتان، ثم عمت الثورة حتى التحمت بثورة كاشغر، فلما نجحت أيضًا عُين خوجه نياز رئيسًا للجمهورية التركستانية، وثابت داملا رئيسًا للوزراء، وأُعلن أن كاشغر هي العاصمة المؤقتة إلى حين تحرير مدينة أورومجي العاصمة التي كان فيها الصينيون وعليهم قائدهم شين سي سه السالف الذكر، ونودي خوجة نياز لدخول كاشغر، فجاء ودخل في يوم مشهود بين هتافات الأهالي، الله أكبر الله أكبر، العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا، الإسلام ديننا والقرآن حجتنا والسنة شريعتنا، الملك لله والسيادة للأمة والحكم لرئيس جمهوريتنا المباركة والدنا وحبيبنا ومحررنا وباني مجد أمتنا السيد خوجة نياز حاجي، سِر على بركة الله محفوفًا بالعزة والسؤدد يا قائد الأمة، تعيش سعيدًا ونحيا سعداء.

ثم جرت أمور أسفرت عن نقل خوجة نياز عاصمته إلى بلده تورفان، وأناب عنه في كاشغر الجنرال محمود محيطي.

لكن خوجة نياز تكالب عليه الروس بمكائدهم، فقد حسّن له السفير الروسي في أورومجي أن يكون نائبًا لحاكم أورومجي الصيني الكافر شين سي سه، وضغطوا عليه لقبول ذلك، وأحاطت به أمور ساقته إلى هذا سوقًا، فذهب إلى أورومجي، وعُين نائبًا لشين سي سه، وكان ذلك سنة ١٣٥٣/ ١٩٣٤ فروعي أمره في البداية؛ فكان يشترك في الاجتماعات الحكومية، ويبدي رأيه في بعض الأمور الإدارية، ثم استقل الحاكم الصيني بالأمر فصار يقضي الأمور دونه، ولم يعد يلتفت إليه؛ فشغل خوجه نياز وقته بقراءة القصص ولعب الشطرنج وافتتاح بعض المشاريع الخدمية!!

وفي تلك الأوقات قام شين سي سه ببعض الخطوات التي تقلّم أظافر المسلمين في الولايات المختلفة؛ فقتل القائد المسلم المجاهد اللواء محمود محيطي بحيلة مدبرة، وكان يلي أمر كاشغر - كما بينت من قبل - وكذلك قتل كثيرًا من التونكان، وهم من الصينيين المسلمين، وقد كانوا عونًا للمسلمين التركستانيين في كثير من الأوقات،

وشرد الآخرين إلى داخل الصين، وخطا خطوات أخرى؛ فلما رأى أن خوجة نياز أصبح مجردًا من عوامل القوة سجنه!! ثم بعد بضع سنين من السجن تدهورت صحته؛ فسمح شين سي سه لزوجه قمرخان أن ترافقه، ثم في سنة ١٣٥٩/ ١٩٤٠ قتل شين سي سه خوجه نياز مع عدد كبير من رجال تركستان في السجن، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ورحم الله عبده خوجه نياز (١).

ويظهر من سيرة خوجه نياز أنه خُدع بالحاكم الصيني الكافر، وأنه ما كان ينبغي له أن يكون نائبًا له، ولا يقبل التخلي عن فريقه في كاشغر، وأنه ارتكب خطأ كبيرًا بانفراده عن قادة الجهاد مثل الجنرال محمود محيطي، ولكن قد يشفع لخوجه نياز كثرة الضغوط عليه من قبل الروس والحاكم الصيني، وتفرق كلمة المسلمين، وكذلك قلة الخبرة وضعف الوعي الذي كان السمة العامة لمجاهدي تركستان. والله أعلم.

●●●

(١) «الإعلام لبعض رجالات تركستان»: ٣٤٤-٣٤٩.



[٧]

تيمور خلفة القومولي

[١٢٧٥-١٣٣١هـ]

[١٨٥٧-١٩١٣م]

هو تيمور بن بهاء الدين. ولد في عام ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٧م لأسرة فقيرة، وكان هنالك في ولاية قومول إقطاعي ظالم باع طاغية اسمه شاه مقصود وانك، استولى على ثروات الولاية، واحتكرها لنفسه جريًا على سنن أجداده الظلمة، وكلمة وانك صينية تعني المتصرف أو الحاكم المطلق، وكانت الحكومات الصينية تعتمد على طغاة ظلمة في كل ولاية، وتفرض عليهم مالاً معينًا عليه أن يسلمه كل مدة، وفي كل ٤-٥ سنوات عليه أن يزور إمبراطور الصين ويجلب إليه الهدايا الثمينة من المجوهرات وبُسُط الحرير والذهب، فاستبد شاه مقصود بالولاية وسام الناس سوء العذاب، ومثل هؤلاء الطغاة هم الذين مهدوا للاحتلال الصيني أن يستولى على تركستان، فالظلم خراب للممالك، وقد ثار على هذا الطاغية أهل الولاية سنة ١٣٢٥/ ١٩٠٧، لكنهم لم ينجحوا في إسقاطه لقلة حيلتهم وفناء أقواتهم، فاستسلم بعضهم وهرب بعضهم الآخر؛ فاستفاد تيمور من تلك الأحداث، ودبّر أمره فقام بثورة على شاه مقصود سنة ١٣٣٠ / ١٩١٢.

وبعد عدة معارك دامت قرابة سنتين استطاع أن يجبر شاه مقصود على الاستجابة لمطالبه في الحرية والعدالة وترك الظلم والاستيلاء على الثروات.

وحلف له شاه مقصود أيمانًا غليظة على الوفاء بعهده، وأن يمنح الشعب حقوقه كافة على ما يقتضيه الشرع المطهر، وكان تيمور ساذجًا على سجيته، وليس له خبرة كافية؛ فانقاد لوعود الطاغية، ووجدت الحكومة الصينية الفرصة سانحة للخلاص منه؛ فولته بعض الأمور العسكرية في العاصمة أورومجي، ثم استدرجته بالمكر والخديعة، فقبضت عليه فضُرب إلى أن استشهد، ثم صُلب على عمود في ساحة القصر الحكومي، وذلك سنة ١٣٣١/ ١٩١٣ مع أربعة من معاونيه، وأعدمت الصين خمسة عشر من المجاهدين في ولاية قومول، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

والملاحظ على شهيدنا العظيم قلة وعيه بمؤامرات شاه مقصود والصينيين؛ ولذلك سقط في حبائلهم سريعًا، رحمه الله تعالى ورفعه في عليين[1].

(١) «الإعلام لبعض رجالات تركستان»: ٣٠١.



[٨]

محمد أمين بوغرا

المجاهد العالم

هو خوتاني من أهل تركستان الشرقية، ولد سنة ١٣١٩/ ١٩٠١، في بلدة من محافظة قراقاش في ولاية خوتان، ودرس على والده فريد الدين وكان عالمًا تخرج على يديه نخبة من علماء خوتان، ولم يلبث والده أن توفي وتركه هو وإخوته في رعاية أمهم، وكانت امرأة صالحة فاضلة، ودرس واجتهد حتى مهر في العلوم، وتعلم العربية والفارسية، ودرّس في مدرسة في مدينة قارقاش؛ ثم دُعي للتدرس في خوتان ولم يتجاوز الخامسة والعشرين؛ فأظهر براعة علمية؛ فكثر حساده فعاد إلى مدينة قارقاش.

ثم ارتحل شمالاً حتى وصل إلى مدينة جوجك وكان فيها شيخ يدعى مراد رمزي وهو تتاري الأصل من قازان، وكان عالمًا ومؤرخًا؛ فأخذ عنه محمد أمين علوم الجهاد، والتقى في رحلته بالشيخ ثابت داملا؛ فأخذ عنه حب الجهاد، وتواعد هؤلاء الثلاثة على الجهاد في سبيل الله تعالى، وفي سنة ١٣٥٢/ ١٩٣٣ أعلنوا الجهاد في خوتان ضد الحكم الصيني، وباغتوا المحكمة فقتلوا من فيها واستولوا على خوتان، ثم تقدموا إلى مدن أخرى مثل ياركند حتى وصلوا إلى كاشغر، وفي سنة ١٩٣٣ أعلى عن قيام جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية، وبويع خوجة نياز رئيسًا، وثابت داملا رئيسًا للوزراء، ومحمد أمين قائدًا عامًا للجهاد، وعمت الثورة بلاد التركستان الشرقية وأهلها الإيجور.

لكن هذه الحكومة لم تدم طويلاً؛ نتيجة غفلة القائمين عليها وقلة وعيهم، والفتن التي وقعت بين المسلمين؛ فسقطت الحكومة في السنة التالية (١٣٥٣/ ١٩٣٤)، وحكمت الصين تركستان بمساعدة الاتحاد السوفيتي، وهناك تفصيل لهذا سقته آنفًا في ترجمة خوجة نياز حاجي.

فخرج محمد أمين بوغرا من التركستان متوجهًا إلى كابل، وذلك في أوائل عام ١٩٣٥، ووعده الأفغان بالتدخل لكنهم لم يفوا له؛ فبقى في كابل وألف كتابه «تاريخ تركستان الشرقية»، وطبعه في كشمير.

أقام في أفغانستان ثماني سنوات، ثم انتقل إلى بشاور، ثم انتقل إلى الصين، وجرت أحداث على إثرها قامت حكومة في أورومجي مشتركة بين التركستانيين والصينيين، وكان رئيسها الدكتور مسعود صبري، وعيسى يوسف البتكين في سكرتارية الحكومة، ومحمد أمين بوغرا وزيرًا للإنشاء والتعمير، وكان ذلك سنة ١٣٦٣/ ١٩٤٤، ثم سقطت الحكومة بعد ذلك، وتولى رئاستها برهان شهيدي الذي سلم أورومجي للصينيين سنة ١٣٦٩/ ١٩٤٩، وقبل هذا السقوط الأخير انسحب محمد أمين وعيسى يوسف البتكين إلى كشمير، ثم انتقل محمد أمين إلى أنقرة ودرّس التاريخ واللغة في جامعتها، وبقي فيها إلى أن توفي سنة ١٣٨٥/ ١٩٦٥ رحمه الله تعالى.

أسس عدة جرائد ومجلات في الصين وتركستان وتركيا والقاهرة وكشمير، وله قصائد وأشعار وعدة كتب(١).

●●●

(١) «الإعلام لبعض رجالات تركستان» ٢٠٤-٢١٤.



[٩]

جانم خان قازاق

المجاهد العابد

[١٣٠١-١٣٧٠هـ]

[١٨٨٤-١٩٦٠م]

من مجاهدي التركستان، ولد سنة ١٣٠١/ ١٨٨٤ لأسرة عُرفت بالدين والثراء، ودرس الإدارة في مدينة جوجك. وكانت سيرته مع والده شيئًا عجيبًا؛ فقد كانا يتناوبان الصيام صيفًا وشتاءً، يصوم هذا يومًا فيفطر ذاك، ويفطر هذا ويصوم ذاك، وهكذا دواليك، وكان من أصحاب الغيرة على الدين، والعاطفة الجليلة تجاهه، وهذا -على التحقيق- ما نفتقده في أكثر الناس اليوم؛ إذ عاطفتهم تجاه دينهم خامدة باردة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما قامت الثورة الإسلامية على الصين سنة ١٣٥٠/ ١٩٣١ جاهد مع المجاهدين، وكان تحت قيادة المجاهد شريف خان في ولاية آلتاي، وتقلد عدة مناصب بعد ذلك.

ثم لما قامت حكومة الدكتور مسعود صبري، وهي الحكومة الثانية بعد سقوط الحكومة الأولى بقيادة خوجة نياز حاجي- كما مر آنفًا في ترجمته- شارك فيها فصار أميرًا بالنيابة على مدينة أورومجي -وهي عاصمة التركستان الشرقية- ومحافظ الخزينة المركزية، ووزيرًا للمالية والاقتصاد.

ولما تولى ماو حكم الصين أرسل جيشًا إلى التركستان سنة ١٣٦٩/ ١٩٤٩؛ فما كان من برهان شهيدي -وهو رئيس الحكومة آنذاك- إلا أن أعلن استسلامه لتلك القوات الهمجية، لكن جانم خان لم يرض بما جرى، ورفض الاستسلام للشيوعيين، ولاذ بالفرار إلى الجبال -جبال آلتاي- واشترك مع القائد عثمان باخور في الجهاد لمدة خمسة عشر شهرًا، لكنه أصيب فأسرته القوات الصينية سنة ١٣٦٩/ ١٩٥٠، ثم أعدمته بعد عام بالرصاص في ميدان عام بمدينة أورومجي؛ فرحمه الله تعالى وغفر له وأعلى درجته في عليين(١).

●●●

(١) «الإعلام لبعض رجالات تركستان»: ٣٢٢-٣٢٣.



[١٠]

تيمورسيجان بن أحمد

وانك الترفاني

[١٢٩٨-١٣٥٢هـ]

[١٨٨١-١٩٣٣م]

هو أحد المجاهدين التركستانيين الشرقيين «الإيجور» وقَلّ من المسلمين اليوم من يعرف تركستان الشرقية وأهلها الإيجور؛ فهي تحت الاحتلال الصيني منذ مدة طويلة، تقارب سبعين سنة، والصين إلى يوم الناس هذا تضطهد أهلها وتسومهم سوء العذاب، وتمنعهم من الصيام، وتمنع النسوة من الحجاب، وتفعل بهم كل قبيحة، ثم إن الإيجور لا يجدون من الحكومات الإسلامية يدًا حانية تمسح آلامهم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولد تيمور سنة ١٢٩٨/ ١٨٨١ لعائلة وجيهة غنية لها صلة بالحكومة، وربى تربية مترفة، ثم صار تاجرًا كبير القَدْر، فلما قامت الثورة الإسلامية على الصين سنة ١٣٥٠/ ١٩٣١ ساعدها تيمور بماله وجاهه، واستطاع أن يستولى على مدينة كموجار في مدة وجيزة، وجمع حوله ثلاثة آلاف مقاتل، توجه بهم إلى مدينة كاشغر، وهي مدينة تاريخية شهيرة - وكان معه فرقة من الصينيين المسلمين انضموا إليه وقاتلوا معه- فرحب به أهلها، وفتحوا له أبواب المدينة فصار حاكمًا لها، وكان أحد أصحابه ويدعى عثمان قد سيطر على المدينة من قبل وصار حاكمًا عسكريًا لها؛ فلما دخل تيمور صار تحت إمرته، وكان يرى أنه لا بد من إجلاء الصينيين عن المدينة، وأنه لا يستريح لبقائهم فيها؛ فاختلف عثمان وتيمور، فغادر عثمان كاشغر متجهًا إلى مدينة أولونجحات وهي مسقط رأسه؛ فعز على تيمور مفارقة عثمان له، فخرج على أثره مع بعض جنوده ليرده إليه ليبقى معه مساندًا ومساعدًا؛ فانقطع في الطريق عن جنده، وبقى معه قلة من حرسه الخاص؛ فانتهز الصينيون الفرصة للقضاء على تيمور، فلما رجع إلى كاشغر ترصدوا له في الطريق ورموا على عجلات سيارته الرصاص، فتوقفت السيارة فأخذوه وأعدموه رميًا بالرصاص، وقطعوا رأسه وجالوا به في كاشغر، ثم نهبوا البلد، وفتكوا بالعُزّل، وكان هذا غدرًا منهم بولي نعمتهم ومن مكنهم، والعجيب أن يفعلوا هذا وهم مسلمون؛ فلما سمع بذلك عثمان نزل من الجبل إلى كاشغر واستطاع هزيمة الصينيين، وفتك بهم فتكًا ذريعًا، وقطع رؤوس بعضهم وعلقها على السارية التي علق الصينيون عليها رأس تيمور انتقامًا له، وكان ذلك بمشاركة جيش تيمور.

وكانت مقتله في ١٦ ربيع الآخر ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م رحمه الله تعالى، وكانت ولايته على كاشغر أقل من أربعة أشهر(١).

(١) «الإعلام لبعض رجالات تركستان»: ٢٩٨-٢٩٩.



[١١]

حمد الله أعلم آخونوم

[١٢٩٦-١٣٥١هـ]

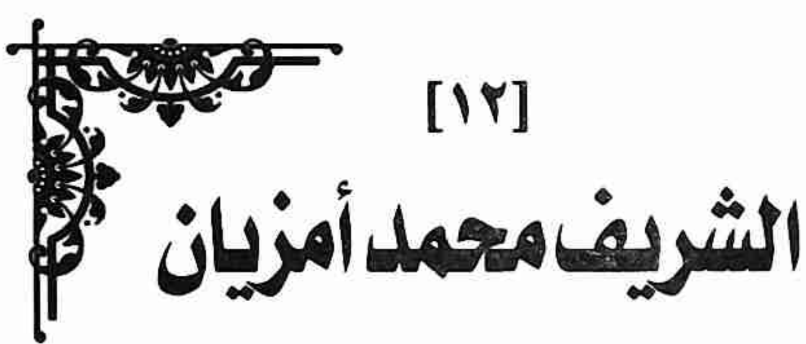
[١٨٧٩-١٩٣٢م]

كم من المسلمين اليوم يعلم عن تركستان الشرقية وجهادها؟، وكم من المسلمين اليوم يعلم عن المجاهدين العظماء الذين بذلوا حياتهم من أجل دينهم وللتحرر من الاحتلال الصيني الهمجي البغيض؟

لو عملنا استبانة اليوم بين المسلمين؛ لنعلم مَنْ منهم مطلع على كل ذلك لوجدنا النتيجة مخجلة؛ فالمسلمون -خاصة العرب- يكادون لا يعرفون شيئًا عن تركستان وأهلها، وإنا لله وإنا إليه راجعون. ومن هؤلاء العظماء: المجاهد حمد الله بن عبد الله أعلم آخو نوم. ولد في مدينة طورفان سنة ١٢٩٦/ ١٨٧٩، ودرس في عدة مدن، ثم درّس منذ عام ١٣٢٥/ ١٩٠٧، وتولى القضاء سنة ١٣٣٦ / ١٩١٨، وكان فقيهًا عالمًا بالكتاب والسنة، ووقر في قلبه أن الجهاد في تركستان من فروض الأعيان، وكان يردد قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، وكان من شأنه أنه يحث الناس على الجهاد ويرغبهم فيه، وقال لهم: فلنجاهد في سبيل الله حق الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وقال لهم: لنحيا كرامًا أو لنموت أعزة، ونادى فيهم: الجهاد الجهاد يا أمة الإسلام، وكان هو أول من أعلن الجهاد في مدينة طورفان، وحمل فيها السلاح، فضيق عليه الصينيون؛ فخرج إلى مدينة قمول المجاهدة مع الأستاذ مقصود محيطي أحد المجاهدين التركستانيين أيضًا، وكان مقصوده أن يلتحق بقائد الثورة الجهادية العام خوجة نياز، وعندما وصل إلى مدينة لوكجون بالقرب من مدينته طورفان وقعت معركة حامية بين المجاهدين والصينيين استشهد على إثرها الشيخ حمد الله آخو نوم ومقصود محيطي وغيرهما، ودفن في لوكجون رحمه الله تعالى رحمة واسعة وأعلى درجته في الجنة، وكان ذلك سنة ١٣٥١/ ١٩٣٢[1].

---

(١) «الإعلام لبعض رجالات تركستان»: ٣٢٨-٣٢٩.



[١٢]

الشريف محمد أمزيان

قائد الريف المغربي

[١٢٧٥-١٣٣٠هـ]

[١٨٥٩-١٩١٢م]

ظهر مجاهدون عظماء في الريف المغربي، وقفوا في وجه الاحتلال الإسباني، والفرنسي، وأبلوا بلاء حسنًا رائعًا، وعملوا كل ما يستطيعون من أجل نصرة هذا الدين ورد المعتدين؛ ومن هؤلاء الشريف محمد أمزيان، والمجاهد العظيم الأمير محمد عبد الكريم الخطابي؛ أما الخطابي فحاشاه أن يكون من المجاهدين المنسيين؛ فسيرته الطاهرة لازالت حاضرة في أذهان كثير من المسلمين، لكن الشريف أمزيان هو من يصعب أن تجد ١٪ من المسلمين يعرف عنه شيئًا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولد الشريف محمد بن محمد بن حدو سنة ١٢٧٥/ ١٨٥٩ في قبيلة بني بويفرور قرب مدينة الناظور، وتعلم على الوجه الذي كان يتعلم به أترابه آنذاك؛ فدرس في المسجد، ثم اشتغل بالتجارة، وكان مستقيمًا حسن السمعة؛ فحاز على ثقة الناس، فصار يفصل في خصوماتهم، ويصلح بينهم، وازداد حب الناس له لما تولى زاوية أبيه، وعظم ثراؤه، لكنه لم يتخل عن تقواه وزهده.

وقبيل دخول المحتلين من فرنسيين وإسبان إلى المغرب ثار رجل مشبوه يدعى بوحمارة - لحمارة كان يركبها ويجول بها- وساعده الفرنسيون؛ فشارك الشريف محمد أمزيان الدولة في قتاله، فتضعضع بوحمارة وانتهت ثورته بعد خسائر جسيمة في المال والعتاد والرجال، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

بعد القضاء على ثورة بوحمارة سنة ١٣٢٧/ ١٩٠٩ سافر إلى فاس ليلقى السلطان عبد الحفيظ ويطلب منه المساعدة ليقف في وجه الإسبان في الريف فلم يلق جوابًا، فالسلطان كان أضعف من أن ينجده بشيء، وقد تكالبت عليه أوروبا تكيد له في كل وقت وبكل وسيلة ممكنة؛ فعاد إلى بلاده مصممًا على أن يتولى المسؤولية بنفسه؛ فما أحسن هذا وما أعظمه؛ أن يتولى المرء المسؤولية بنفسه إن لم يجد على الحق أعوانًا.

فبدأ يجمع حوله الأعوان، وتُلي باب الجهاد من كتب الفقه في القرى والقبائل والأسواق والزوايا، وهذا من أعجب ما سُمع في الجهاد في العصر الحديث، وبهذه العزيمة القوية والهمة العلية- وقبل ذلك بتوفيق الله تعالى الله -خاض أكثر من مائة معركة مع الإسبان!! وقتل منهم آلافًا ولله الحمد والمنة.

قال علال الفاسي :

«وفي سنة تسع بعد تسعمائة وألف / ١٣٢٧ جمع الإسبان بضواحي مليلية جيشًا ذا ثلاث فرق وقرروا غزو الريف؛ فانبرى لمقاومتهم بكل الريف الأول السيد محمد أمزيان، واشتد القتال بين الريفيين والإسبان مدة سنتين تكبد فيها الإسبانيون خسائر كبيرة، يقدرها مؤرخوهم بعشرة آلاف قتيل من بينهم جنرالات، وقد قتل ضباط كثيرون برتب متنوعة.

ومن أكبر المعارك التي خاضها سيدنا الشريف معركة (وادى الذئب) سنة ١٣٢٧/ ١٩٠٩ على بُعد أربعة أميال من مليلية، قُتل فيها الجنرال (بنتو) الذي أرسل من إسبانيا من أجل إيقاف انتصارات الشريف، وسبعة عشر ضابطًا، وجُرح ضباط كثيرون، وقتل سبعمائة جندي، ويكمن عظم الانتصار في أن حاكم مليلية المحتلة الجنرال مارينا كان على رأس الجيش، لكن ذلك لم يفد شيئًا. فظل الشريف أمزيان يهزمهم في معركة تلو معركة حتى اتبعت إسبانيا سياسة «فَرِّق تَسُدْ» فحرَّضوا القبائل بعضها على بعض، واستعانوا بالريفيين بعضهم على بعض. ولاستغلال هذا العمل احتل الإسبان الناظور، واقتربوا من قبيلة بني بويفرور بجيش قوامه سبعة عشر ألف جندي، ومعه أربعة وأربعون مدفعًا، وعليه خمسة جنرالات، فاصطدموا بالمجاهدين؛ ففر جنرالان، وقتل ثالث، وقتل وجرح عدد كبير من الجنود، وكانت هذه المعركة وبالاً على الإسبان تشبه في نتائجها معركة وادي الذئب.

ثم انتصر عليهم سيدنا الشريف في معركة باهرة تدعى إزرورا قُتل فيها عدد من الضباط الكبار والصغار، وقُتل وجُرح جنود كثيرون.

لكن خطة الإسبان بالاستعانة بالخونة من المغاربة، وتحريض بعضهم على بعض، وضرب الشريف أمزيان بإخوانه المسلمين؛ أثمرت عن واقعة أليمة؛ وهي استشهاد الشريف المجاهد سنة ١٣٣٠/ ١٩١٢ على يد قائد مغربي خائن يدعى محمد حسين؛ كان تحت إمرة الجيش الإسباني. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

لكن جهاده لم يذهب هباءً منثورًا بل أُكمل على يد القائد البطل العظيم أمير الريف محمد عبد الكريم الخطابي، الذي أذهل العالم كله من عظم مقاومته للإسبان وتكبيده إياهم خسائر هائلة جسيمة.

ومن نتائج المقاومة الريفية: سقوط حكومة أنطونيو مورا، وعوضت بالحكومة الليبرالية لسيخيموندو موريت (Segismundo) في ٢١ أكتوبر من سنة ١٩٠٩م، واستقالت هذه الحكومة بدورها في ٩ من فبراير ١٩١٠ لتعوض بحكومة بديلة يقودها خوصي كاناليخاس (José Canalejas).

وانشغل البرلمان الإسباني بقضية الريف وبالضبط في جلسات يوليو من سنة ١٩١٠م؛ لكون هذه القضية المصيرية أصبحت تؤرق الرأي العام الإسباني، وكذا حكام مدريد ورجال السياسة والإعلام، وبدأ البرلمانيون وزعماء الأحزاب السياسية ينصحون الحكومة بالتخلي عن مشروعها الإمبريالي.

وقام الملك ألفونسو ١٣ بزيارة لمنطقة الريف مرفوقًا بوزير الحكومة كاناليخاس ووزير الحربية أثنار (Aznar) ووزير البحرية أرياس دي ميراندا (Arias de Miranda)، وكان الهدف من هذه الزيارة تقديم الدعم المعنوي والنفسي للقوات الإسبانية الموجودة في جبهات القتال.

نتائج المقاومة على مستوى مدينة مليلية:

سببت الخسائر المتكررة التي عرفتها القوات العسكرية الإسبانية في استقالة الجنرال خوصي مارينا (José Merina) حاكم مليلية بسبب خلافات جوهرية عويصة مع الحكومة المركزية، وعدم تنفيذه للقرارات والأوامر العسكرية الصادرة من العاصمة، وعدم نجاحه في درء الخسائر والهزائم المتكررة التي لحقت بالجيش الإسباني في منطقة الريف أمام قوات الشريف محمد أمزيان.

أما تأثير هذه المعارك على مدينة مليلية؛ فكان على العموم مأساويًا؛ إذ عمت حالات الرعب والاستياء بها بسبب القضاء على جيش قاعدتها العسكرية خلال شهر يوليو ١٩٠٩م، وعاشت العائلات الإسبانية بها مآتم كثرة القتلى وتفشي الأوبئة داخل

المدينة، لا سيما التيفوييد (حمى تيفة) والتيفوس (الحمى الصفراء)؛ فأجبرت السلطات الصحية بمدريد على إرسال بعثات طبية إلى مليلية للسهر على التنظيم الصحي المحكم بالمخيمات العسكرية.

- هذا مثال على جهاد مشرف جليل، يثبت أن إخواننا المغاربة لم يرضوا يومًا بالمحتل، وبذلوا الغالي والنفيس من أجل طرده، لكن لا بد من القول إن الأمر كان أكبر منهم، وأن اختلال موازين القوة لصالح المحتل الصليبي على وجه واضح كان هو السبب في إخماد مقاومتهم واحتلال بلادهم لمدة أربعين سنة، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

●●●



[١٣]

موحا الزياني

مجاهد في التسعين

[استشهد في: ١٣٣٩هـ/١٩٢١م]

لقد قام البربر بجهد عظيم، وجاهدوا فرنسا جهاد الأبطال، ولم يستسلموا للقوة القاهرة، ولم يلتفتوا لاختلاف موازين القوى، بل فعلوا ما يستطيعونه استجابة لقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]؛ فمن هؤلاء محمد بن حمو المعروف بـ «موحا» الأمازيغي البربري، من قبائل زيان.

كان والده رئيسًا على عشيرته، وبعد وفاته ورثه ابنه موحا، على صغر سنه، لكن مخايل القوة والنجابة كانت لائحة عليه فتمكن من سيادة عشيرته.

لما هُزم المغرب أمام فرنسا سنة ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٤م في وقعة إيسلي، ثم هزم أمام إسبانيا في تطوان سنة ١٢٧٦/ ١٨٦٠ اضطربت الأمور، وتولى السلطان الحسن الأول فلم تستقم له أمور القبائل ولم يؤدوا إليه ما كانوا يؤدونه من قبل؛ فاستعان السلطان بـ «موحا» لتأديب قبائل الأطلس الأوسط، وزوده بثلاثمائة جندي، وثلاثة مدافع، فاستطاع السيطرة على قبائل زيان، وتوسع خارجها ليسيطر على عدد من القبائل الأخرى، وهذا أكسبه ثقة السلطان الحسن الأول؛ ففوضه في تعيين قادة القبائل في تلك المناطق.

بقي الأمر كذلك إلى أن احتلت فرنسا الدار البيضاء بحجج واهية، وذلك سنة ١٣٢٥/ ١٩٠٧؛ فزحف على الدار البيضاء في قبيلته زيان ومن انضم إليها، لكنه لم يتمكن من صنع شيء للمدينة التي تحولت إلى خرائب وحرائق؛ فعاد إلى موطنه وجمع إليه المجاهدين الذين رفضوا الاستسلام لفرنسا، وكذلك اجتمع إليه العسكر الذين رفضوا العمل تحت إمرة الفرنسيين؛ فانزعجت فرنسا، وحاول حاكم المغرب العسكري المارشال ليوتي -وهو أحد كبار المجرمين الذين أفسدوا في الجزائر والمغرب كثيرًا- أن يستميله إليه، وأرسل إليه الوفود محملة بالهدايا النفيسة، ووعدوه بقصر في فرنسا، وضمنوا له بقاء أملاكه في أرض زيان، وعرضوا عليه وظيفة عسكرية سامية، لكن ذلك لم يُجْد مع شخصية صلبة مؤمنة ترى الجهاد سبيلها، وكان يجيبهم: «لن أرى نصرانيًا إلا مَن خلال فوهة بندقيتي، وإصبعي على زناد الرمي» الله أكبر.

وهنا قررت فرنسا مهاجمته؛ وذلك لأسباب عديدة، منها:

١ - إيقاف دعوات الجهاد ضدها.

٢ - الاستفادة من ثروات منطقة موحا المائية والزراعية؛ ففيها الأنهار والثلوج على الجبال، وهذا يساعد على توليد الكهرباء.

٣ - منطقة الأطلس المتوسط، هي منطقة مهمة لفرنسا من حيث قربها من الجزائر، وكونها تفصل الشمال المغربي عن جنوبه.

٤ - إخضاع قبائل زيان المعروفة بقوتها وشدتها، وكذلك إخضاع من يلجأ إليها من المقاتلين، قال الجنرال كميوم:

«لا تكمن قوة الزيانيين في كثرة عددهم بقدر ما تكمن في قدرتهم على مواصلة القتال؛ بالاعتماد على ما كانوا يتحلون به من بسالة وتماسك وانتظام، وأيضًا بفضل مهارة فرسانهم البالغ عددهم ٢٥٠٠ رجل؛ فكانوا بحق قوة ضاربة عركتها سنوات طويلة من الاقتتال، كما كانت أيضًا سرعة الحركة والإقدام إلى جانب القدرة العفوية على المخاتلة في الحرب من الصفات المميزة لمقاتليهم...».

وقد قال «الماريشال ليوتي: «إن بلاد زيان تصلح كسند لكل العصاة بالمغرب الأوسط، وإن إصرار هذه المجموعة المهمة في منطقة احتلالنا، وعلاقتها المستمرة مع القبائل الخاضعة، يشكل خطرًا فعليًا على وجودنا؛ فالعصاة المتمردون والقراصنة مطمئنون لوجود ملجأ وعتاد وموارد، وقربها من خطوط محطات الجيش ومناطق الاحتلال جعل منها تهديدًا دائمًا لمواقعنا؛ فكان من الواجب أن يكون هدف سياستنا، هو إبعاد كل الزيانيين بالضفة اليمني لأم الربيع».

انظروا كيف يقول المحتل إن المقاوم المجاهد هو عاص متمرد قُرصان!! إن هذا لمن عجائب الدهر.

أرسلت فرنسا قواتها بقيادة الكولونيل «العقيد» هنري (Henrys)، وكان جيشًا عرمرمًا بلغ ثلاثين ألف مقاتل مدجج بأسلحة حديثة؛ فما كان من (موحا) إلا التقهقر

ليدخل الفرنسيون إلى منطقة تاولا سنة ١٣٣١/ ١٩١٣، ثم دخلوا إلى مدينة خنيفرة سنة ١٣٣٢/ ١٩١٤ في يونيو بعد مواجهة شرسة مع قوات موحا.

ومع هذه الاختلال الواضح في ميزان القوى؛ اضطر موحا للجوء إلى حرب العصابات؛ فأنهك الفرنسيين في عدة معارك متتالية.

ثم بدأ يعيد ترتيب قواته؛ فجمع الزيانيين، ووحد القبائل الأمازيغية بالأطلس المتوسط، وتحالف مع القبائل الأطلسية المجاورة؛ فكون جيشًا قويًا مدربًا- على نقص العتاد والأسلحة والمؤن، قال المارشال «ليوتي»: «لقد كونت القبائل جيشًا يكاد يكون منظمًا، في راية واحدة وروح موحدة، وعناصره المختلطة تطيع القيادة طاعة تلقائية، وله انتظام تلقائي أيضًا، وكان هذا الجيش يواجه الموت بمثل أعلى موحد».

وقال الكولونيل لو بريفوست: «كانوا يتسللون إلى داخل المعسكر عراة بعد أن يطلوا أجسامهم بشحم ابن آوي الذي لرائحته خاصية تخدير الكلاب... ثم عسكر مع أتباعه في مخيم بمنطقة لهري، وهي تقع على مسافة ١٥ كيلو مترًا من خنيفرة على الضفة الشرقية لنهر وادي شبوكة.

وكانت أسلحة موحا قديمة من القرن الثالث عشر الهجري - التاسع عشر الميلادي، إضافة إلى الأسلحة التي يضمها من الفرنسيين، أما أسلحة الفرنسيين فكانت قوية حديثة.

ومع كل الفوارق بين تسليح جيشه وتسليح جيش الفرنسيين، وبين عدد جيشه وعدد جيش الفرنسيين؛ فإنه استطاع إلحاق الهزيمة بهم في معركة لن ينساها التاريخ سُميت بمعركة «لهري»، فقد حاصره الفرنسيون من جهات قرية «لهري» الأربع، ورموا عليه القنابل من المدافع، واغتر الفرنسيون بقوتهم وكثرتهم فتقدموا، وتركهم موحا يتقدمون في الجبل ويتوغلون فيه، واستنفر القبائل المحيطة به فقاموا بحصار القوات الفرنسية فوقعوا بين المطرقة والسندان، واشتبكوا مع القوات الغازية حتى بالفؤوس والخناجر، وبالبنادق وبكل ما يملكون حتى أفنوا نصف القوات، وقتلوا الكولونيل لافريدور؛ فاستسلم الفرنسيون بعد أن قُتل منهم ٦١٣، منهم جزائريون

وتونسيون وسنغاليون!! وللأسف كان الفرنسيون يجندون المسلمين لقتل المسلمين، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وقتل كثير من الضباط حتى قال الجنرال كيوم: «لم تُمْنَ قواتنا قط في شمال إفريقيا بمثل هذه الهزيمة المفجعة». الله أكبر، أرأيتم ماذا يصنع الجهاد والإيمان؟ إنه يحقق ما يشبه المستحيل في دنيا الناس.

حصل موحا على ثلاثة مدافع ثقيلة، وعشرة مدافع رشاشة وبنادق كثيرة، وخيول محملة بالذخيرة والمؤن، والتف أبناء القبائل حول موحا يجاهدون معه ويثقون بقدراته، حتى أن الدولة العثمانية وألمانيا أرسلتا إليه رسلاً وأموالاً نكاية بفرنسا التي كانوا يحاربونها آنذاك؛ فأجابهم برسالة جليلة جاء فيها: «إننا لا نستكين لعدو ديننا وعدو نبينا، ولا تتراءى أعيننا، فليطمئن خليفة الإسلام وقائد الألمان» الله أكبر.

بقي موحا سبع سنوات يقاتل الصليبيين حتى استشهد في ساحات الشرف سنة ١٣٣٩/ ١٩٢١، عن قرابة تسعين سنة؛ فرحمه الله تعالى وأعلى درجته في عليين.

ومما يذكر بمداد الفخر والشرف أن موحا لم يكن يجاهد بمعزل عن أهله؛ فقد كانت زوجه تجاهد معه، وتشد أزره؛ فتسعف الجرحى، وتداوي المرضى، وتنقل السلاح إلى المجاهدين.

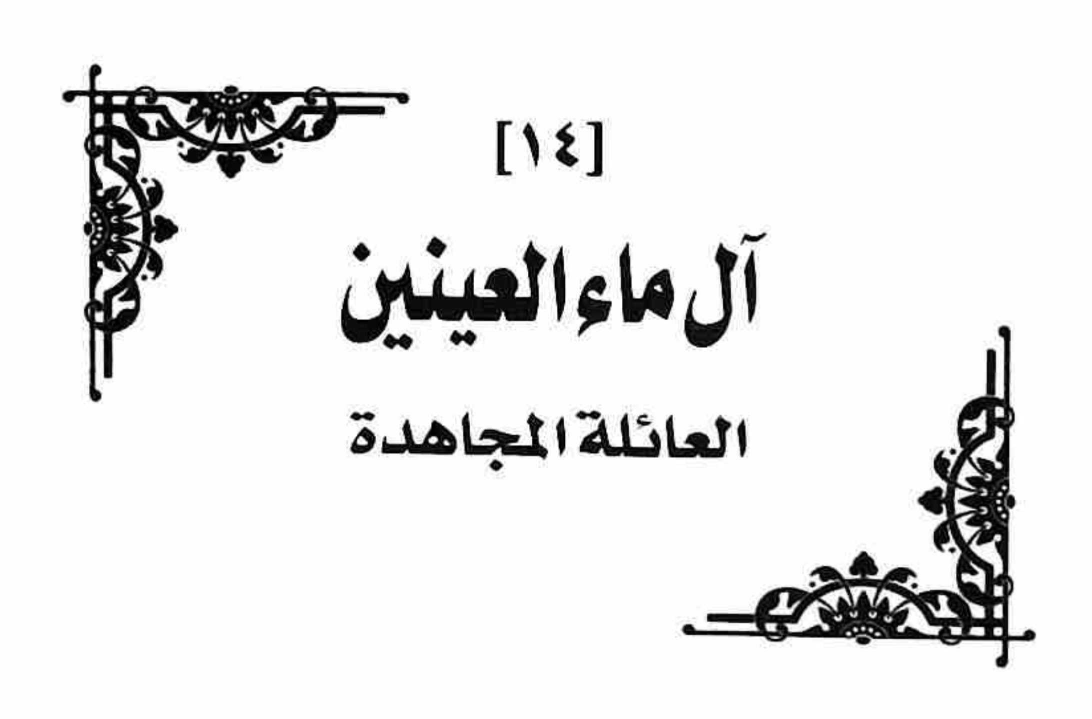
وكانت ابنته «إيطو» مثالاً رائعًا للقوة والحماسة؛ فقد وقفت بجواره حتى استشهدت معه رحمها الله تعالى.

ومن الثناء عليه ما جاء في كتاب «كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر» أن المعركة: «استمرت سبع سنين شابت فيها النواصي، عصمهم من ويلها أطلسهم الأشم وما به من صياصي، كان محمد أوحمو قطب رحاها، وفارس هيجاها، يمدهم بآرائه وماله إمدادًا، ولا يدخر عنهم نفسًا ولا عتادًا، ولا يتأخر على كبر سنه عن حضور المعارك، ويتمنى أن تكون الخاتمة هنالك. وبينما هو ذات غداة آمنًا في سربه، لا يفكر في عدو ولا في حربه إذا بكبكبة من الخيل تهاجمه بين حريمه وأولاده؛ فارتمى على صهوة جواده، وتسابق لرد غارات العدو المنازل الذي كاد يصل إلى الخيام والمنازل، ويروع النساء الغوازل، وخب فيها شيخ التسعين ووضع، وصوبها طلقات وهو يقول:

«خذوها وأنا ابن الأكوع، واليوم يوم الرضع»، ولكنها كانت له خاتمة المطاف في تلك المصاف ليحصل له أجر الشهادات؛ فهو شهيد دون أهله، شهيد دون ماله لحديث النبي ﷺ: «**من مات دون أهله فهو شهيد، ومن مات دون ماله فهو شهيد**»، ثم الشهادة الكبرى في ساحة الوغي لقوله جل ثناؤه: ﴿**لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ [آل عمران: ١٦٩]، فقد أصيب بطلقة نارية صادفته في صدره ونحره؛ دليل على أنه مات وهو مقبل ولم يمت وهو مدبر (. . .) هي الشهادة التي طالما أملها ليقابل بوجهه الطاهر النقي وجه حبيبه محمد ﷺ كما كان يعبر عن ذلك طول حياته.

تلك سيرة مجاهد بقي سنوات طويلات يجاهد في سبيل الله تعالى؛ فما أحسن ما صنع، وما أجمل ما قدم، فاللهم زُفّه في موكب من حور على وجناتها النور إلى فردوسك الأعلى وذلك المقام الأسمى.

●●●



[١٤]

آل ماء العينين

العائلة المجاهدة

من نظر في تاريخنا القديم والحديث؛ سيجد آلافًا من عظماء المجاهدين، لكن أن يقع المرء على أسرة مجاهدة فهذا قليل، ومن هؤلاء القليل أسرة ماء العينين الصحراوية المغربية.

كان الشيخ مصطفى ماء العينين من صحراء المغرب الجنوبية، ولد في منطقة الحوض سنة ١٢٤٦/ ١٨٣٧، ودرس على والده القرآن العظيم وعلوم الشريعة، وتبحر في الفقه حتى عُدّ من شيوخ المالكية، ثم قاوم الإسبان لما توغلوا في صحراء المغرب، وقد ابتدأ احتلالهم للصحراء المغربية مبكرًا، وذلك عن طريق إنشاء شركات تجارية منذ سنة ١٣٠٠/ ١٨٨٣، ثم صدر مرسوم ملكي إسباني باعتبار الصحراء منطقة إسبانية!! ثم أنزلوا العساكر الإسبانية في تلك الأرض الطاهرة؛ فهب الشيخ مصطفى لمقاومتهم؛ فأسس مدينة السمارة في الصحراء ليجعلها منطلقًا للهجمات على الصليبيين، وذلك سنة ١٣١٥/ ١٨٩٨، وأصبحت تلك المدينة معقلاً للجهاد ومعقلاً لطلبة العلم والمشايخ، تُقصد من كل جهة. وقد كان الشيخ مصطفى شجاعًا شديد البأس، جمع حوله عددًا من أبناء القبائل من أهل الشكيمة والحرب، وجاهد بهم الإسبان.

هذا وقد كانت فرنسا قد اعترفت بملكية إسبانيا للصحراء المغربية سنة ١٣١٧/ ١٩٠٠!! اعتراف من لا يملك لمن لا يستحق، لكنها بعد ذلك قَدمَت المنطقة لتحتل جنوب الصحراء المغربية «موريتانيا أو بلاد شنقيط»، وذلك سنة ١٣١٩/ ١٩٠٢؛ فوجه الشيخ مصطفى جهوده لجهاد الصليبيين الإسبان والفرنسيين معًا، وأرسل أحد أبنائه عام ١٣٢٣/ ١٩٠٥ إلى منطقة أدرار ليجاهد الفرنسيين؛ فتمكن من قتل المفوض الفرنسي في ديار شنقيط كزافييه كيبولاني في السنة نفسها، ولله الحمد والمنة، واتصل السلطان عبد العزيز المغربي بالشيخ مصطفى وبعث إليه أموالاً وسلاحًا؛ على أن يعترف الشيخ بتبعية المنطقة للسلطان المغربي، وهذا الذي جرى، وأرسل السلطان وفودًا إلى القبائل ليساعدوا الشيخ مصطفى في جهاده، لكن الفرنسيين احتلوا وُجدة بعد ذلك سنة ١٣٢٥/ ١٩٠٧ وضغطوا على السلطان ليتوقف عن دعم الشيخ مصطفى مقابل أن ينسحبوا هم من وُجدة، وهذا الذي جرى؛ فاضطر الشيخ مصطفى أن يترك الرباط بالسمارة ويتراجع إلى تيزنيت.

وفي ذلك الوقت ثار عبد الحفيظ على السلطان عبد العزيز بدعوى أن عبد العزيز قد عرّض المغرب لخطر الاحتلال الصليبي، وأنه هادن فرنسا وإسبانيا وترك الجهاد، فثار معه جمع عظيم من علماء المغرب، وكان منهم الشيخ مصطفى الذي وصل إلى فاس وأعلن خلع السلطان عبد العزيز وتعيين السلطان عبد الحفيظ، لكن السلطان عبد الحفيظ خيب آمال الجميع؛ فلم يصنع شيئًا ذا بال أمام الصليبيين الإسبان والفرنسيين، بل عقد معهم معاهدة سَلّم بها المغرب لقمة سائغة لهم سنة ١٣٣٠/ ١٩١٢ . وإنا لله وإنا إليه راجعون.

هذا وقد طلب الشيخ مصطفى من السلطان أن يفي بوعوده التي قطعها على نفسه أمام العلماء بالجهاد، وأن يمده بالعساكر والسلاح لكن لم يجد عنده شيئًا، وهزمته فرنسا في واقعة جرت سنة ١٣٢٨/ ١٩١٠؛ وذلك لأنه لم يكن عند السلاح الكافي، ومقاتلوه لم يتجاوزوا ستة آلاف أمام جيش فرنسي جرار مدجج بالسلاح الحديث.

بعد تلك المعركة بشهور انتقل الشيخ مصطفى إلى الدار الآخرة، وتولى القيادة ابنه المجاهد أحمد الهيبة، الذي وجد البلاد قد احتلت من الصليبيين بعد وفاة والده بسنة ونصف تقريبًا؛ فاجتمع عليه أهل سوس، ووفدت على تيزنيت وفود الجهاد من قبائل عدة فبايعوه أميرًا عليهم ليجاهد بهم، وورث جهاد أبيه بل زاد عليه، وألغى الضرائب التي فرضتها الحكومة المغربية على الناس هنالك فأثقلتهم بها.

وبعد احتلال المغرب بستة أشهر قاتله الفرنسيون في معركة سيدي بوعثمان، وقد وقعت في الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٣٣٠/ ٦ سبتمبر ١٩١٢، وانتصر المجاهدون انتصارًا باهرًا في البداية وتقهقر الفرنسيون، لكن المجاهدين فوجئوا بمغاربة خونة اندسوا فيهم وقتلوا كثيرًا من المجاهدين، وقام أحد الخونة المسمى بالقائد العيادي بحرق مستودعات المؤن ولوازم المجاهدين، وهذا كله قلب النصر إلى هزيمة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي اليوم التالي قاتل الخونة بجوار إخوانهم الصليبيين، وأغلقوا أبواب مدينة مراكش أمام من تراجع من المجاهدين، وكانوا عيونًا للصليبيين على المسلمين

يخبرونهم بتحركات المجاهدين، وإنا لله وإنا إليه راجعون؛ فالخونة ضررهم على المسلمين أكبر بكثير من ضرر العدو الظاهر، بل ذهب الأمر بخونة المغاربة أنهم كانوا يحرضون الفرنسيين ضد أحمد الهيبة ويعدونهم بالمساعدة إذا قدموا المنطقة!! وهذا الماريشال المجرم ليوتي الذي كان الحاكم العسكري للمغرب يعترف بذلك بوضوح قائلاً عن تعاون القادة الخائنين معه:

«النداءات الملحة ووعود المؤازرة المنبعثة من مراكش[(١)]؛ كل هذا يخلق إحدى هذه الفرص السانحة التي يمكن أن يؤدي عدم انتهازها إلى الندم أبد الدهر. فإن من المستحيل أن يتوفر لدينا تجمع كاف قبل سبعة أو ثمانية أيام عددًا وعدة وآلات ووسائل نقل لتدخل في مراكش بطريقة ناجحة.

وكيفما كانت عاقبة القتال المعلن؛ فإنه لم تبق تحت تصرفنا بالشاوية ولو وحدة واحدة والمراكز لانشغالها، إلا فرقًا ضئيلة فهي إذن بدون حماية تمامًا، وليس لدينا ما نستقدمه من المناطق الأخرى المهددة هي نفسها على جبهاتها، إن التطور المفاجئ للنفوذ السحري لحركة الهيبة بنداداته بالجهاد خلق الوضعية الأكثر خطورة إنه حقًا (FiORI) الذي كان يقبض على الخيوط الموجهة التي قادت فرقنا إلى مراكش في الظروف الأكثر ملاءمة والذي مكننا من ربط انسجام مع الداخل». «إن انتصار مانجان لم يكن ليتحقق لولا تعاون قواد الرحمانة».

أما مانجان فهو القائد الفرنسي الذي انتصر أمام أحمد الهيبة، وأما قواد الرحمانة فهم خونة المغاربة الذين ساعدوا الفرنسيين.

وبعد تلك المعركة وقعت عدة معارك مع الفرنسيين والإسبان إلى سنة ١٣٣٧/ ١٩١٦، وهي سنة وفاة أحمد الهيبة.

ثم تولى أخوه القيادة واسمه «مربيه ربه» واستمر جهاده إلى سنة ١٣٥٢/ ١٩٣٤، فقد كانت معركة يتزي بمنطقة السوس آخر المعارك المسلحة.

---

(١) يعني بالوعود: وعود الخونة المغاربة الذين اتصلوا بالفرنسيين ورغبوهم في المجيء إلى المنطقة!!

والجدير بالذكر ها هنا أن قوات الفرنسيين دخلت مدينة السمارة التي أنشاها الشيخ مصطفى ماء العينين سنة ١٣٣١/ ١٩١٣، ودمرتها وحرقت مكتبتها التي كانت تحوي خمسة آلاف كتاب، وأعاد الفرنسيون بذلك سيرة أسلافهم الصليبيين الذين ما إن يدخلوا بلدة إسلامية إلا ويحرقوا كتبها، ويا للعجب: اليوم يتهم الغرب الصليبي المسلمين بأنهم حرقوا مكتبة الإسكندرية، وما للمسلمين عهد بحرق الكتب؛ إن هي إلا عادة صليبية متأصلة في القوم.

وهكذا طويت صفحة تلك العائلة المجاهدة الكريمة، التي جاهدت أكثر من عشرين سنة، وكان لها أثر عظيم في الجنوب المغربي، وجمعت آلافًا من المجاهدين تحت رايتها؛ فاللهم ارفع درجتهم في عليين، وجازهم خير الجزاء كفاء ما صنعوه للمسلمين.

●●●



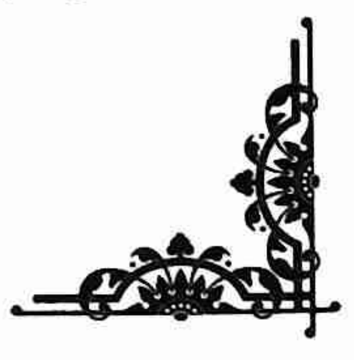
[١٥]

عَسُّو أوبسلام

مَن قهر ٨٣ ألف جندي فرنسي

[١٣٠٧-١٣٨٠هـ]

[١٨٩٠-١٩٦٠م]



كان للبربر الأمازيع أيادٍ بيضاءُ جدًا في جهاد فرنسا ؛ منهم هذا المجاهد العظيم عَسّو أوبسلام .

ولد سنة ١٣٠٧/ ١٨٩٠ بقصر تاغيا جنوب تانغير ، منحدرًا من فروع قبيلة آيت عطا ، وكان أبوه أحد وجهاء قبيلته : إيملشان ، وورث عسو السيادة عن أبيه ؛ فعين وهو دون العشرين شيخًا لقبيلته ، وهذا يدل على كفاءة ونباهة نادرتين ، ثم عين شيخًا عامًا «أمغار» لقبيلة آيت عطا ، وقد كثر مدح الفرنسيين له ؛ فهذا النقيب مون دوسافاس : «le capitaine mont de Savassee» يقول عنه : «رجل ذو فكر ثاقب واستقامته نزيهة ، شريف ، أمين شديد التدين ، متصوف وسلطوي يعمل كل ما في وسعه ليكون عادلاً ، وباختصار فإن عسو أوبسلام كان زعيمًا طبيعيًا بدون منازع ، يأخذ بزمام آيت عطا ، ويحظى باحترام كل الرفاق تقريبًا خارج القبيلة وطيلة السنوات التي قام فيها بمهمته ، كما أن عمله دائب لا يعرف التوقف» انتهى كلامه . .

ويقول عنه العقيد ماتيو (colonel Mathieu) في كتابه : حياة مجيدة (une vie exlatantee) : «أمغار عسو أوبسلام ذو قامة ضخمة ونظر نفاذ ، عينان صغيرتان سوداوان براقتان وماكرتان ، تظهران وكأنهما تسحرانك ، يعرج برجله اليسرى نتيجة إصابته بجرح في صاغرو ، وترك أثرًا واضحًا عليه ، كان يتكلم قليلاً كما كانت كل تدخلاته مدعمة بحجج وحلول ملموسة . كان رجلاً مستقيمًا ذا كلمة واحدة» .

أما الأكاديمي الفرنسي هنري تماندو فقال عنه : «كان رجلاً ذا وجه وسيم حازم وجسم نحيف مفتول العضلات صعب ، لكنه فخور ممتلئ عزة بالنفس ، يفرض الاحترام والثقة ، كانت القبائل محظوظة لكونها تحت إمرة رئيس معترف به من طرف جميع القبائل مما زاد في مضاعفة قوتها ، ولولاه لما استطاعت الصمود طيلة هذه المدة ، لقد كان روح المحاصرين» . .

وكتب عنه جورج سبيلمان يقول ما يلي : «أمازيغي صلب يزهو بعنصره ، معروف بشهامته في المعركة ، ذو شخصية ، رئيس ويجمع حوله بطواعية كل الذين يرفضون سلطة الكلاوي والقوات الفرنسية» .

حاولت فرنسا استمالته وإغراءه (كما فعلت مع العظماء مثله) بمناصب عالية، لكنه رفض كل ذلك. .

بل أكثر من ذلك كان يرفض أي حوار أو نقاش مع العدو؛ فمراده هو خروجهم جميعًا من المغرب ولو بالقوة، ونقلاً عن شهادة شفوية «عندما راسلت فرنسا آيت عطا بأنها على استعداد للمفاوضات والحوار مع المقاومة أجابهم ببلاغ يقول فيه: ليأت الذي حرر هذه الرسالة إلى هنا ليتلقى الجواب».

ركز عَسّو مقاومته في جهتين:

الأولى: مقاومة الخونة من المغاربة الذين باعوا دينهم بعرض من الدنيا قليل، مثل الباشا التهامي الكلاوي، وقد طالت خيانة هذا التهامي، ومكن للفرنسيين في مراكش وما حولها، وباع بلاده بثمن نجس، قال ديفيد مونتجمري هارت:

حينما قام الحاج التهامي الكلاوي، بدافع ومقابل مبالغ مالية كان يؤديها له الماريشال ليوتي، أول مقيم عام للسلطات الفرنسية بالرباط، باقتحام المناطق الأطلسية والمطلة على الصحراء شرق ورزازات، وقف عسو أوبسلام ضده، منذ ذلك الوقت تزعم عسو أوبسلام ذويه من قبيلة آيت عطا المناهضين للكلاوي.

جمع عَسّو حوله سبعة آلاف مقاتل من أشداء البربر، واختار جبل «صاغرو» مركزًا لقيادة عملياته الحربية، ويبلغ ارتفاعه حوالي ٢٣٠٠ متر، ويبعد عن مدينة ورزازات ٢٠٠ كيلو متر، وابتدأ حرب عصابات مؤثرة في الفرنسيين أشد التأثير، ودام هذا قرابة أربعة عشر عامًا؛ فقرروا مواجهته بجيش عرمرم قوامه ٨٣ ألف رجل!! مصاحب بالطيارات!! بينما كان هو في سبعة آلاف جندي مسلح بالبنادق القديمة؛ فتحرك الجنرال كاترو من جهة الغرب، وتقدم الجنرال جيرو من جهة الشرق، وكان لهم خطوط تموين لا تنقطع يمدهم بها الخونة وعلى رأسهم الباشا التهامي الكلاوي.

وفي سنة ١٣٥١/ فبراير ١٩٣٣ اصطدم عسو بالقوات الفرنسية لمدة أربعين يومًا، وشاركت النساء في المعركة والأطفال كذلك، وكبدوا الفرنسيين ثلاثة آلاف قتيل؛ فصارت الطائرات تقذف بقنابلها على رؤوس المدنيين، والجيش الضخم الذي يربو على ٨٠ ألفًا يتقدم في الجبل، وكان المحاصرون يعانون الجوع والعطش ومع ذلك

أظهروا بطولة نادرة حتى قال أحد الضباط الفرنسيين «وقد اصطدمنا بمقاومة لا تصدق للثوار؛ حيث كانت خسائرنا مهمة، ومع استحالة وصولنا إلى قمة بوغافر تقرر الحصار من طرف القيادة؛ وحينئذ، وطيلة شهر بكامله كانت مقاومة الثوار للبرد والجوع والعطش باهرة، على الرغم من تلقيهم لوابل من القنابل نهارًا وليلاً، وإطلاق الرشاشات عليهم كلما اقتربوا من أحد الآبار؛ فقد قاوموا كل العروض المغرية الموجهة إليهم من طرف المترجمين. . . ».

واستشهد من جيش عسو مع من استشهد من النساء والأطفال قرابة أربعة آلاف!! وفقد عسو أخاه وزوجته وابنه وابنته ذات الثلاثة عشر ربيعًا، ومع كل تلك الأحوال غير المواتية قرر البطل عَسّو الاستسلام لعدوه حتى يحفظ باقي الناس في الجبل من الموت؛ فقبل التفاوض بعدما أثخن في عدوه، وأصيب هو نفسه بجراح نتج عنها إصابته بإعاقة دائمة في رجله، وذلك يوم ٢٥ من مارس ١٩٣٣/ ١٣٥١.

وبعد استسلامه ظهر أمام أعدائه رابط الجأش، يقول القبطان مونت دو ماساف: لم يتخلص الرجل من بندقيته حينها كما أمره بذلك الجنرال الفرنسي هوري (Huré)، لكنه ورفاقه كانوا يرفعون أيديهم نحو الأعلى إيذانًا بالاستسلام.

في تلك اللحظة أخذ فرنسي آلة تصوير، وبدأ يضبط عدستها نحو عسّو ورفاقه ليلتقط صورة تؤرخ لصف من الرجال يضعون أسلحتهم، وفي لمح البصر أدار عسو أوبسلام بندقيته (بُوشفر) تجاه صاحب الآلة العجيبة، وكذلك فعل سبعة من رفاقه ممن ما يزالون يحتفظون بأسلحتهم.

عندها صاح الجنرال هوري وترجم الشاويش حميدة الدمناتي كلامه مخاطبًا عسّو: «يا أوبسلام؟ أما تزال تصر على المواجهة والقتال؟ وليس من شيم المسلمين الغدر والخيانة».

ويا للعجب؛ إنه يعرف أكثر ممن ينتسبون للإسلام الآن أن المسلمين ليس من شيمهم الغدر والخيانة؟!.

فرد عسو: «رجُلكم هذا (وأشار لحامل آلة التصوير) هو الذي بدأ بتصويب سلاحه تجاهنا، ولا يمكن أن نبقى مكتوفي الأيدي ولو كلفنا الأمر حياتنا».

ثم التفت إلى الشيخ «علي أوحدي» شيخ الرك وأحد المتعاونين مع الجيش الفرنسي، وخاطبه: «قل للجنرال هوري: إن كلمتي بكلمته، ونحن أنداد».

ضحك الجنرال هوري، وطلب من المترجم أن يخبر عسو أن هذه الآلة سلمية لا تقتل. إنما هي آلة تصوير لتخليد اللحظات التاريخية الباذخة كهذه.

ثم نزل معهم ورفاقه من أعلى الجبل بعظمته المعهودة لديهم، حتى قال الجنرال هوري: «كانوا يظهرون هادئين وقورين غير محطمين، بالرغم من أنهم كانوا في أقصى حدود قوتهم، واعين بأنهم صمدوا حتى النهاية وحافظوا على عاداتهم المشبعة بالحرية والشهامة».

ولما طلبوا مفاوضته رفض أن تتم المفاوضة إلا على الشروط التي اشترطها عليهم وتمثلت في:

- الاستسلام للمخزن المغربي؛ أي للحكومة المغربية.
- إبعاد سلطة الكلاوي عن أراضي آيت عطا.
- إبقاء الأسلحة في أيدي السكان.
- عدم تشغيل السكان في أعمال السخرة.
- عدم استدعاء النساء للغناء في الحفلات الرسمية (وكانت فرنسا تتعمد جلب أبناء المغرب العربي للغناء والرقص في حفلاتهم).
- وأن تضرب فرنسا صفحًا على ما مضى في الحرب بين الطرفين، وغير ذلك.

ولما كانت فرنسا تريد أن تتخلص من أزمتهم والخسائر التي لحقت بها في مواجهتهم فقد قبلت بكل شروطه، ووفَّت له بها.

إلا أن كثيراً ممن كان حوله وخاصة النساء ممن أصيبوا بفقدان ذويهم في هذه المعركة كانوا يريدون الثبات في ساحة الوغي حتى يستشهدوا جميعًا، وكانوا يرون أن توقيع الهدنة دون النصر إهانة وخيانة عظيمة لكل الأرواح التي أزهقتها الطائرات الحربية والمدافع الذي لم تكن ترحم إنسًا ولا بهيمة.

حتى إن امرأة غضبي فقدت جُل أهلها خاطبته شعريًا: «عندما صعدنا الجبل كان النبي يتقدمنا، وعندما نزلنا من الجبل تركنا النبي هناك».

ولكن كفاه أن ظل يجاهد الفرنسيين أربعة عشر عامًا، يقول دايفيد منتجومري هارت: «غير أن عسو أوبسلام ورجاله من أهل القبيلة، تابعوا المقاومة لمدة أربعة عشر سنة، وهي مقاومة عرفت نهايتها إبان المعركة البطولية بوكافر في ساحة تعج فيها الصخور البرية على علو ١٦٠٠ متر في صاغرو الشرقي. ودامت انطلاقًا من أواخر أبريل إلى حدود أواسط شهر مارس من عام ١٩٣٣».

ولطالما شهد له من عايشوه من أعدائه بالعظمة؛ فهذا بوردو عضو الأكاديمية الفرنسية حين زار جبل صاغرو بعد مرور سنة على أحداث معركة بوكافر وبالضبط في سنة ١٣٥٢/ ١٩٣٤م، قال: «لقد أُرسلت عليهم (المجاهدين المقاومين) القنابل ليل نهار من السماء ومن الأرض مدة ٤٢ يومًا، اثنين وأربعين يومًا من الحرمان والأرق والعطش، اثنين وأربعين يومًا قضوها مع الحيوانات، وقد جنت وأخذت تصرخ حتى الموت، وقضوها مع الجثث المتعفنة، وتعذر عليهم إيرادها كل هذه الدواب التي أصابها الهلع. فلنقس بذلك قدرتهم على تحمل ما قاسوه من المحن تحملاً يسمو بهم إلى أعالي الدرجات. وليت أحد أولئك البربر الذين دافعوا دفاع الأبطال عن بوكافر كان شاعرًا فليخلد مفاخر ذويه في هذه الجبال التي احتضنت الشهداء، ويخلد مراحل هذه الملحمة الفظيعة التي كانت معجزة من المعجزات».

ولم يكن الرجال يجاهدون فقط، بل كانت النسوة يجاهدن؛ فقد شاركن بجميع أنواع الوسائل؛ ومن أبرزها نجد ما عبر عنه الكولونيل ماجور سبيلمان في كتاب «آيت عطا في الصحراء»؛ حيث قال بأن زغاريدهن هو سلاح معنوي قوي الفعالية؛ إذ يدفع الرجل العطاوي إلى المواجهة القوية. انتهى كلام الكولونيل، إضافة إلى كونهن يتسللن في الجبال لجلب المياه تحت نيران الرشاشات، ويوزعن المؤن والذخيرة، ويدحرجن على المهاجمين الفرنسيين أحجارًا ضخمة تنشر الموت.

شهامته بعد ترك الجهاد:

وقد ظل عسو على شهامته بعد اعتزاله؛ فقد هجمت قوات الاحتلال يومًا عليه في بيته وهم يبحثون عن مجاهد آخر يسمى زايدًا اعتقادًا منهم بأنه يأويه ويحميه؛ فاندهش قائد المقاومة عسو أوبسلام لهذه الجيوش الضخمة؛ فخاطب الضابط الفرنسي بقوله «لقد حاربتكم في جبل صاغرو محاربة الند للند وواجهتكم مواجهة مكشوفة، ولست جبانًا كي أتخلى عن كلمة الشرف بعدما وضعت السلاح واتفقنا على السلم».

واندهش الضابط لرباطة جأش عسو أوبسلام، ومع ذلك رفض الإذعان والاعتراف بخطئه، وأصر على عسو أوبسلام كي يدل الجيوش الاستعمارية على مخبأ زايد أو حماد؛ فرد عليه عسو أوبسلام «إنكم تتوفرون على جيش من الوشاة والمخبرين، وهم الآن معكم وباستطاعتهم إطلاعكم على مكان وجود زايد أو حماد، أما أنا فلن أخون مبادئي».

الأيام الأخيرة في حياته:

وكان عسو أوبسلام قد تقلد مهمة رسمية بمحكمة الاستئناف بإغرم أمزدار، ثم قائدًا رسميًا سنة ١٩٣٩، كما تم تنصيبه قائدًا بمجرد عودة المغفور له محمد الخامس من المنفى سنة ١٣٧٦/ ١٩٥٦، وقد استقبل كبطل من أبطال الحركة الوطنية سنة ١٩٥٧، وظل بمنصبه إلى أن توفي في عام ١٣٨٠/ ١٩٦٠ تحت تداعيات مرض السكري ودفن بمقبرة أجداده بقصر تاغيا إيملشان. .

هذا هو المجاهد عَسّو الذي جاهد وبذل كل ما يستطيع، ولولا الخونة المغاربة الذين كانوا يمدون الفرنسيين ويساعدونهم لطال أمد جهاده وعظم؛ لكن لله الحكمة الكبرى جل جلاله.

●●●

[١٦]

الشريف الريسوني

المجاهد السياسي

[١٢٧٦-١٣٤٣هـ]

[١٨٦٠-١٩٢٥م]



إن القوة التي هي من طبيعة المجاهدين، وتلازمهم في كل مراحل جهادهم لتمنعهم من الجنوح إلى العمل السياسي الذي من لوازمه اللين والنفس الطويل في المفاوضات، والنظر في المآلات، والتنازل عن شيء من خلال القوة وخصال اليُبس والجمود؛ ولهذا قَلّ في تاريخنا الحديث وجود مجاهد ينازل العدو في الميدان، ويجاهده بالسلاح والسنان، وفي الوقت نفسه هو فارس من فرسان السياسة والمفاوضات. وكان من هؤلاء القلة الشريف الريسوني، المجاهد السياسي، وإن شئت قل: السياسي المجاهد؛ فقد جاهد طويلاً، وجنح إلى السلم والمفاوضات مرارًا عديدة.

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله الريسوني، ويدعوه الأوروبيون: الريسوني، ويسمى أيضًا بريّسول. ولد في قرية الزينات قرب طنجة من بلاد المغرب الأقصى سنة ١٢٧٦/ ١٨٦٠، وقد نشأ يتيمًا، ثم ترقت أحواله إلى أن يكون قائدًا عسكريًا جمع حوله قبيلة بني عَرّوس. وخرج بهم على السلطان الحسن الأول لسوء الأوضاع في المغرب آنذاك، وقاتلته الجيوش المغربية لكنها لم تستطع الإمساك به، فاستُعمل معه الحيلة إلى أن أُمسك به؛ فبقي مسجونًا في «الصويرة» مكبلاً بالأغلال في يديه ورجليه وعنقه، ويعاني أيما معاناة؛ فاستعطف الشرفاء الريسونيين، فشفعوا في إطلاق سراحه بعد ثلاث سنوات عجاف جدًا مرت به. ولما اضطربت أحوال بلاده في زمن السلطان عبد العزيز ثار على الحكومة والإسبان معًا، واستولى على بعض الجهات القريبة، وكان السلطان آنذاك مشغولاً بالقضاء على ثورة بولادة التي أكلت الأخضر واليابس في المغرب، ومهدت لاختلاله ثم احتلاله، ومنذ ذلك الوقت اتبع الشريف الريسوني طريقة جديدة؛ إذ أخذ في خطف الأوروبيين الذين يعملون في طنجة وما حولها؛ وذلك من أجل الضغط عليهم ليحصل منهم على ما يريد من حرية وكرامة للمغرب ولتمويل جهاده وإنفاقه على مناطقه التي يسيطر عليها؛ فاضطرت السلطات لتعيينه واليًا على ما حول طنجة «إقليم الفحص»؛ فالتزم بأوامر الحكومة، واستتب الأمن ما بين طنجة وتطوان، وصار له نفوذ في طنجة نفسها؛ فلم يعجب هذا الأوروبيين المقيمين في طنجة فرفعوا أمره إلى السطان؛ فساءت العلاقة بينهما فاستولى

الشريف على مدينة أصيلة سنة ١٣٢٤/ ١٩٠٦ فاضطر السلطان لإقراره عليها، ثم ساءت الأوضاع واختل الأمن في طنجة وما حولها؛ فطلبت البعثات الأوروبية من السلطان أن يتدخل؛ فعزل الريسوني عن إقليم الفحص وعين عليه حاكمًا جديدًا.

لجأ الشريف إلى بلدته الزينات؛ فهاجمته فيها عساكر السلطان سنة ١٣٢٥/ يناير ١٩٠٧؛ فغادرها ليلاً هربًا هو وأهله؛ فضيق عليه المخزن؛ فالتجأ إلى بعض القبائل ليحتمي بها بذريعة أن السلطان عبد العزيز ضعيف أمام الأوروبيين، بل باع البلد لهم؛ فاضطر السلطان لمهادنته مرة أخرى، فأرسل جنرالاً إنكليزيًا يعمل بالجيش المغربي آنذاك يُدعى ماكلين فعقد معه الصلح، لكن كان هنالك رسالتان من السلطان؛ رسالة إلى وزير الحرب يأمره فيها بمهادنة الريسوني حتى يطمئن إليه ثم يعتقله، ورسالة أخرى إلى الريسوني يخبره بالعفو عنه وتعيينه حاكمًا على المنطقة، لكن الجنرال ماكلين الذي لم يكن يعرف العربية دفع برسالة الأمر بالقبض على الريسوني إليه!! فاعتقل الشريف الجنرال ماكلين!! فأرسل له السلطان جيشًا وكلفه بتحرير ماكلين بكل وسيلة ممكنة؛ فهزم الريسوني الجيش!! وطلب منه قائد الجيش أن يعفو عنه ويعيده إلى فاس ففعل وأصبح بطلاً بين القبائل هنالك؛ فهو الذي هزم الحكومة المتواطئة مع الأوروبيين، وهو الذي يعتقل جنرالاً انكليزيًا لم تفلح الجهود الأوروبية المغربية المشتركة في تحريره.

ثم اتفقت الحكومة المغربية مع الريسوني على تحرير ماكلين مقابل فدية مالية، وحمايته من قبل بريطانيا، وشروط أخرى فوافق الطرفان، وعُين الريسوني حاكمًا على المنطقة مرة أخرى واتخذ أصيلة مقرًا له، وبايع السلطان عبد الحفيظ الذي عزل السلطان عبد العزيز، وعاد الريسوني إلى طريقته مرة أخرى؛ فاختطف بعض رجال الأعمال من الإنجليز والأمريكان، وبُذلت الأموال لافتدائهم.

ثم لما احتل الإسبان شمال المغرب سلك الريسوني معهم طريقة عجيبة قوامها مهاجمتهم وإزعاجهم في تطوان وغيرها، ومن ثم مسالمتهم وعقد الهدنة معهم، وهكذا، ورأى أن هذا -مع الاختطاف- سبيل وحيد لمقاومتهم.

ومما فعله الريسوني ومن معه من أهل الريف آنذاك:

١- مهاجمة الزورق المسلح كونشا والاستيلاء عليه، وقتل ١٧ من بحارة الإسبان، ومثلهم جرحى، وأسر أحد عشر بحارًا.

٢- قطع طريق المواصلات بين سبتة وتطوان.

٣- إسقاط أول طائرة إسبانية مقاتلة.

ثم عاد إلى التفاوض مع الإسبان فعُين قائدًا لمنطقته مرة أخرى.

وفي الحرب العالمية الأولى اتصل الريسوني بالألمان؛ مما أثار الفرنسيين فاعترضوا على هذه السياسة واشتكوا للإسبان، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء مع الريسوني الذي كان لا يقبل أي تدخل في عمله أو المناطق التي يحكمها وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى عادت إسبانيا وفرنسا إلى سياسة البطش في المغرب؛ فأرسل الشريف الريسوني رسالة إلى إسبانيا قال فيها:

«إن القادة العسكريين للمواقع التي توجد تحت قيادتكم، لا يمر يوم دون أن يقترفوا أعمالاً ضد الناس تستلزم العقاب، منتهزين كل الفرص لاعتقال الأهلين في المدن والأسواق والطرق، مسببين لهم أضرارًا في محاصيلهم وأراضيهم المزروعة، نازعين منهم أموالهم وأملاكهم، كما أنهم لا يكفون عن زرع الموت وإحداث الجروح والتبرع بالضربات وأشكال أخرى من التعذيب العسكري، وإن الشكاوى ضد كل هذا تصلني بدون انقطاع، وقد أصبح الوضع يستوجب الاستعجال.

وإني مقتنع تمام الاقتناع أن هذه الأعمال يتم القيام بها بنية مسبقة لإشعال نار الثورة والتمرد، وذلك بتوليد عناصر لإثارتها، وإذا كان معالي المفوض السامي يتطلع إلى إرهابنا وإفزاعنا بنهج هذه السياسة؛ فليكن في علمكم أننا لا ننتمي إلى فصيلة الأشجار التي تترك فاكهتها تتساقط تحت وقع الهزات العنيفة. إننا من معين تلك الصخرة التي لا ينال من طبيعتها، لا الضغط المنخفض للبرد القارس، ولا تأجُّج النار الشديدة المسلطة عليها».

وفي رسالة أخرى موجهة إلى المفوض السامي :

«أنت جنرال عندك قوة وتملك البنادق والمدافع، إنك كبير مثل البحر، لكنني أنا الشريف مثل الريح، وعندما تكون الريح هادئة يكون البحر ساكنًا، ولما تهب يهيج البحر ويتموج، فلا تدفعني إلى الهبوب» .

وحاول الريسوني، كما فعل سنة ١٩١٣، إثارة سخط قبائل جبالة وعزل الإدارة الإسبانية عن خلفيتها بقطع الطرق المؤدية إلى تطوان وسبتة والعرائش وطنجة، مما دفع الجنرال بيرن كور إلى القيام بعمليات للتخفيف من الضغط وتقوية حصن فندق عين الجديدة، ولما وصلت أخبار هذه المعارك إلى إسبانيا أدانت المعارضة حرب المغرب، وأكدت جريدة جمهورية أنه «مازلنا نقاتل في المغرب خلافًا لوعود الحكومة. لقد قتل المغاربة الكثير من جنودنا وتستمر الحرب، إن الشعب لا يريد الذهاب إلى المغرب ولا يريد تبذير قرش آخر هناك. وقد ضجرت إسبانيا من التضحية بأبنائها في غزو أرض لا تعود عليها إلا بالأحزان. ولماذا يجب على إسبانيا المخاطرة من أجل غزو منطقة لا يمكن لإسبانيا أن تصدر إليها حضارتنا ومثلها العليا في الحياة؟» .

انظروا إلى هذه المغالطات، وهل لإسبانيا مثل عليا في الحياة إلا تصدير الأحزان إلى المغاربة وتخريب بلادهم.

ولمعرفة تأثير مقاومة المغاربة للإسبان إليكم هذا التقرير :

«بلغت النفقات العسكرية رقمًا قياسيًا جديدًا سنة ١٩٢٠ ؛ حيث إنها بلغت ٥٨١,٠٠٠,٠٠٠ بسيطة، وازداد عدد الجيش ليصل إلى حد ٢٢٦ ألف رجل. وبالرغم من ذلك لم يتحسّن التنظيم : أسلحة غير ملائمة، ضباط كسلاء، مجندون أميون وجنود ذوو تكوين ضعيف. وكانت ثقة القادة في «فحولتهم» أكبر من ثقتهم في معارفهم الهزيلة في الفن العسكري، وكان عليهم أن يواجهوا رجالاً يعرفون الأرض شبرًا شبرًا ومقتنعين بعدالة كفاحهم. وكانت إدارة جميع المناطق تتم بشكل سيئ للغاية، وكان الغش والرشوة والمحسوبية والظلم والانتهاكات عاديًا على كل المستويات، وكان كل ذلك منتشرًا إلى حد أن وزير الحرب لم يكن واثقًا من تقارير إدارة الإمدادات والتموين ولا من البيانات حول الذخيرة، ولم يكن يعلم علم اليقين الإمكانات التي تتوفر عليها هذه الفرقة أو تلك في لحظة معينة.

وكانت معنويات الجنود في الحضيض، وكان لعب القمار والإدمان على الخمر والدعارة مع نساء إسبانيات ومغربيات ويهوديات وفرنسيات قوتنا اليومي، ويُعطى مثال الكثيرين الذين كانوا يعملون على إصابتهم عنوة بمرض الزهري أو التعقيبة ليصبحوا في تعداد المرضى». وحتى الجنرال مُولا كتب: «إن الجنود وأطر القيادة لا يعرفون بعضهم البعض نتيجة الطريقة التي تم بها تكوين وحدات الحملة. ولم يمارس الجنود إلا رماية التدريب، أما الميدان فلا يعرفونها قط. إن البنادق، في غالبيتها، غير مضبوطة العيار، وكانت الرشاشات من نوع «كولط» تتعطل منذ الطلقات الأولى، ونفس الشيء كان يقع لمسدسات «كامبو خيرو»، ولم يكن هناك احتياطي من الذخيرة ولا قدرة على صنعها بما يكفي. ولم تكن حيوانات الجر مروضة، كما أن سائقيها المرتجلين، كانوا بدون تجربة. ولم يكن الجيش ملائمًا لحرب الجبال».

وازدادت حالات الهرب من الجندية يأسًا وخوفًا، ولله الحمد والمنة، حتى أن إسبانيا كانت تجند جنودًا مغاربة في جيشها عوضًا عن الهاربين واليائسين والخائفين.

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى وإصدار الرئيس الأمريكي ويلسون مبادئه الأربعة عشر التي تنص على حقوق الشعوب في التحرر من الاستخراب العالمي؛ أرسل إليه الريسوني رسالة من ثلاث صفحات بخط عربي، يطلب منه فيها أن يضغط على إسبانيا وفرنسا لإنهاء احتلالهما للمغرب، وسلمها إلى السفير الأمريكي بمدريد، وذلك سنة ١٣٣٩/ مايو ١٩١٩.

وهذا يظهر مدى وعي الريسوني وفهمه لأوضاع العالم آنذاك، واستغلاله ذلك بذكاء لإنقاذ بلده.

وبعد سبع سنوات من احتلال الإسبان لشمال المغرب تمكنوا من احتلال الشاون وتضييق الخناق على الريسوني، الذي بادر إلى عقد صلح مع الإسبان؛ فرفض ذلك الصلح مجاهد المغرب الكبير محمد عبد الكريم الخطابي؛ الذي أرسل إلى الريسوني من اعتقله وتم نقله إلى بلدة تماسينت التي تبعد عن الحسيمة عشرين كيلو مترًا في إقامة جبرية هنالك.

وعرض عليه السلطان والإسبان أن يتعالج في تطوان من مرض ألم به فقال لمن جاءه ناظرًا إلى بندقيته المعلقة:

أنا في آخر عمري يدعس النصارى على لحيتي؟! لن يكون هذا، أنا مثل المعتمد الذي قال: رعي الإبل خير من رعي الخنازير، ولن أكون تحت حماية النصارى. ثم توفي رحمة الله تعالى سنة ١٣٤٣ / ١٩٢٥.

وهناك كتاب اسمه «الريسوني سلطان الجبال» كتبته صحفية إنجليزية زارته بمقر إقامته في تجرون، وهي سيرة ذاتية بلسانه، ثم ترجم إلى الإسبانية.

وأعدت انجلترا فيلمًا سينمائيًا في سيرته سمته «الريح والأسد» وخصصته لقضية اختطاف بعض رعاياها من قبل الريسوني.

علاقته بالخطابي:

إن مما حيرني في سير مجاهدي المغرب أن كل واحد منهم كان يجاهد بمعزل عن أخيه، وكلٌّ يستقل بجهاده في منطقته دون تنسيق بينهم، وهذا أمر أضعف الجهاد، ومكَّن الصليبيين من القضاء على المجاهدين كلاً على حدة؛ ومثالاً على ذلك الريسوني والخطابي، فقد طلب الأمير المجاهد محمد عبد الكريم الخطابي من الريسوني الانضمام إليه لكنه رفض وسارع إلى عقد صلح مع إسبانيا!! مما جعل الخطابي يعتقله ويقيمه جبرًا في بلدة تماسينت.

وهناك كتاب «محمد بن عبد الكريم الخطابي نادرة القرن العشرين في قتال المستعمرين»، أشار مؤلفه محمد بن علي العزوزي الجزنائي أنه: «لما قام الأمير الخطابي بحركته المباركة وصار يدعو إلى الجهاد وإلى الاتحاد، وإلى العمل الجدي لمحاربة الاستعمار والدفاع عن وحدة التراب الوطني المغربي، بادر الريسوني إلى إبرام صلح مع الحكومة الإسبانية؛ رغم أن الخطابي لم يترك جهدًا إلا واستعمله بإقناعه بالعدول عن موقفه تجاه هذا الصلح مع العدو».

ولخص الأستاذ العزوزي الجزنائي ما جاء في كتاب روبرت فورنو «عبد الكريم أمير الريف» الحقائق التالية: «في تصريح لابن عبد الكريم الخطابي قال: «إننا بعثنا مندوبًا

يعرض عليه مركز الحاكم في الريف رغبة في توحيد الصفوف، وإزالة سوء التفاهم ولكنه رفض ما عرضنا عليه؛ فاضطرت جنودنا لمواجهته وأسره وتم نقله إلى منطقة الريف بتماسينت، وبعد فترة من الزمن توفي في أسره ودفن هناك».

وربما فعل ذلك الريسوني لأنه لم يكن على علم تام بصدق نية الخطابي؛ فقد ذكر أنه لما كان في إقامته بتماسينت (بعد اعتقاله) جاء إليه الخطابي متنكرًا واستأذنه بالجلوس، وقيل إنه امتنع، ولكن بعد أن قالوا له إنه فقيه يريد رؤيتكم وزيارتكم فقط والتبرك بكم، أذن له وتحدثا طويلاً ما، وعرف ابن عبد الكريم كيف يستغل فرصة الحديث معه خصوصًا بشأن الحرب الدائرة بين المغاربة والدولتين المستعمرتين، والأهداف التي يريد الأوربيون تحقيقها، وفي الأخير ودعه وهو يتمنى له الشفاء من مرضه الذي كان قد ألم به، متمنيًا له العودة إلى بلدته وقريته في تازروت في بلاد جبالة، وحين خرج سأل الريسوني من يكون هذا الفقيه؟ فأجابوا إنه ابن عبد الكريم فقال: لو كنت أعلمه هكذا لقاتلت إلى جانبه ودخلت تحت حكمه، إنه رجل مقاتل يستحق التقدير والاحترام والدخول في طاعته. . . » / أ. هـ. كلام المؤلف.

وهكذا انتهت حياة مجاهد اختلفت فيه الأنظار كثيرًا بسبب تخلل جهاده جنوحًا إلى الصلح مرة بعد أخرى مع الإسبان، لكني إنما أعيد ذلك إلى معرفة الريسوني باختلال موازين القوى مع الإسبان، وأنه يفعل ما يصلح له ولجهاده، ومعرفته كذلك بأن الحكومة المغربية لا تملك من أمرها شيئًا، وأنها ضعيفة أمام المحتلين، فلربما كان ذلك كذلك، والله تعالى أعلم.

وإليكم بعض ما وصفه به خصومه الأوروبيون:

المؤرخ مانويل أورتيغا يقول في كتابه عن الريسوني:

«عندما نتأمل سيرة هذا الرجل، إمبراطور الجبل، المحتمي بالغابات الطبيعية والجبال، والذي تحدى قوة إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية رغم الأسلحة والمدافع التي تملكانها، ورغم الذهب الذي ظلتا تغريانه به؛ فإننا ندرك أن الريسوني لم يكن دنيئًا».

ويقول توما غارسيا فيغراس في كتاب «المغرب» : «كان الريسوني يتمتع بذكاء عال ويقظة كبيرة، وله ممارسة سياسية على قدر كبير من النضج ودراية كبيرة بالأوضاع السياسية الدولية والعالم الإسلامي، وكان يطمح إلى رؤية المغرب حرًا من دون أية وصاية أجنبية» .

ويقول فرانسيسكو هيرنانديث مير : «كانت فرنسا وإسبانيا تدركان قوته وتأثيره في القبائل؛ لذلك حاولت الدولتان ترويج تهم الخيانة ضده والقول إنه ساعد إسبانيا على احتلال العرائش والقصر الكبير» .

●●●



[١٧]

المجاهد البطل

أحمد بن عرفان الشهيد

[١٢٠١ - ١٢٤٦ هـ]

[١٧٨٧ - ١٨٣١م]

لله ما أعظم تاريخ الإسلام والمسلمين في الهند، وكم في تلك الأراضي الشاسعة البعيدة من عظماء، وإذا قيل الهند في التاريخ فإنما هي اليوم: الهند وباكستان وبنجلاديش بعد التقسيم السياسي الحديث عقب الحرب العالمية الثانية، فهي إذن أرض شاسعة ضخمة، كان للمسلمين فيها أمجاد عظيمة، وقد غربت شمس المسلمين فيها بانتهاء الدولة التيمورية المغولية التي كان من سلاطينها السلطان أورانج زيب عالمكير، شمس سلاطين المسلمين في أواخر العصر الوسيط وقبل بداية العصر الحديث، فلما سقطت تلك الدولة نهب الإنجليز ممتلكاتها وذهبت أدراج الرياح، وصارت أثرًا بعد عين.

وصار المسلمون بعدها كالشياه بدون راعٍ في الليلة المطيرة المظلمة، فلم يعد لهم عقد جامع، ولا سلطنة كافة، ولا إمام يسوسهم، وانتشرت فيهم البدع والخرافات، حتى أذن الله تعالى ببروز شمس أحمد بن عرفان الشهيد الذي أحيا في المسلمين في الهند شعيرة الجهاد، وخلصهم من كثير من البدع والخرافات، وكانت له أيادٍ بيضاء عليهم.

وهو من أسرة عريقة شريفة، لها صلة بعظماء الهند من آل بيت رسول الله ﷺ الذين كان لهم جهد ملحوظ في إقامة الشريعة في الهند وتربية المسلمين.

ولد في بلدة راي بريلي بالقرب من لكنو في الهند سنة ١٢٠١هـ أول القرن الثالث عشر، وتوفي في وادي بالا كوت شهيدًا -إن شاء الله- سنة ١٢٤٦هـ-١٨٣١م، وعلى أن عمره قصير لكنه حافل بجلائل الأعمال.

ولد والهند في قبضة الإنجليز يمتصون خيراتها، وينهبون ثرواتها، ويذيقون المسلمين صنوف العذاب، ويضيقون عليهم في مدارسهم ومساجدهم، ويمنعونهم من المناصب العالية ويقربون الهندوس منها، بل كانوا يمالئون الهنادكة والسيخ في عداوتهم للمسلمين، ومكنوهم من رقابهم، ثم إنه رأى كيف تأثر المسلمون ببدع وخرافات السيخ والهندوس حتى خيف على عقيدتهم منها، وعلى هذا فقد عاش في ظل أحوال صعبة، فماذا صنع رحمه الله؟

طلب العلم في الكُتاب في صغره، لكن نفسه لم تمل إلى الدراسة فسرعان ما غادر المدرسة، وكانت همته في الجندية وأعمال الفروسية، والضرب والطعن، والرياضة من سباحة وبناء الجسد، وغير ذلك.

ولما بلغ من العمر عشرين سنة ذهب إلى لكنو ليلتحق بمعسكر للجهاد فيها، لكن نفسه كانت تتوق للذهاب إلى دهلي -وليس دلهي التي حرف اسمها الإنجليز- حيث مدرسة آل الدهلوي الذين كان على رأسهم مصلح الهند الكبير شاه ولي الله الدهلوي ولم يدركه، لكن أدرك ولديه اللذيْن رحبا به أعظم ترحيب لما عرفاه.

فمكث ينهل من العلم والعبادة والزهد والتربية حتى تاقت نفسه للجهاد الذي خلق له، فذهب إلى معسكر النواب -أي: نائب السلطنة- ميرخان، واجتهد في المعسكر هذا وتعلم ألوانًا من فنون القتال، لكن نفسه لم تطب فيه بسبب أن ميرخان كان يقاتل للمغنم وليس له هدف واضح، وقد هادن الإنجليز فانسحب من معسكره.

وأقبل على إفادة الناس ودعوتهم إلى الحق، فاستجاب له عدد كبير، وكان منهج دعوته يقوم على إنكار البدع الكثيرة التي كانت في المسلمين بسبب اختلاطهم بالهنادكة، وعلى إرجاع المسلمين إلى كتاب ربهم وسنة رسوله ﷺ، وتعليم الجهال أصول دينهم وفروع شريعتهم التي يحتاجون إليها، وقد أصلح الله على يديه عشرات الآلاف ممن تاب وأناب، وأسلم على يده من الهنادكة جملة كبيرة.

ثم إنه أعلن في كل أنحاء الهند سنة ١٢٣٦هـ أنه يريد الحج إلى بيت الله الحرام، وأن من لا زاد له فزاده عليه، فاجتمع عنده عدد متوسط يقدر بأربعمائة حاج.

وكان عدد من المشايخ ممن لا وعي له كافيًا، ولا فقه في واقع زمانه، قد أصدر فتاوى بإسقاط الحج عن مسلمي الهند بدعوى عدم الاستطاعة بسبب أخطار الطريق، وفاتهم أن الحج قد قام به ملايين من الهنود قبل ذلك وفي أحوال مشابهة، فلم يضرهم ذلك إلا قليلاً، لكن كان للإنجليز أثر في إصدار عدد من هذه الفتاوى؛ لأنهم -وأمثالهم من المستخربين (المستعمرين)- يحرصون على إبقاء المسلمين بعيدًا عن الصلة

بإخوانهم عن طريق منعهم من الحج أو التضييق عليهم تضييقًا كبيرًا، أو بلبلة المسلمين بنشر شائعات عن أمراض معدية في الحجاز، أو أخطار محدقة بالطريق وهكذا، حتى لا يحج المسلمون ويتصلوا بإخوانهم.

وانطلق السيد أحمد بن عرفان الشهيد من بلدته راي بريلي بمن اجتمع معه، ومروا في طريقهم بعدد من المدن أقاموا في كل واحدة منها مدة يدعون إلى الله تعالى، ويصلحون بين الناس، ويذكرونهم بالله، حتى تاب آلاف مؤلفة في مرزابور وبنارس وكلكتا وغيرها.

وقد حدثت له طرائف في مِرزا بُور، فمن ذلك أنهم أرادوا إفراغ حمولة الباخرة فتأخر الحمالون، وكان من العَيب أن يباشر الأشراف والوجهاء والأغنياء الذين رافقوا السيد في الحملة العمل بأنفسهم، فشجعهم وابتدأ العمل بنفسه، وأنزلوا حمولة المراكب والناس ينظرون إليهم في دهشة لأن هذا لم يكن معتادًا في الهند، ولما رأى الحمارون -أي: سائقو الحمير- ذلك التواضع دعوا السيد أحمد إلى بلدتهم فأجابهم، وكان ذلك صدمة للأغنياء والوجهاء والأشراف الذين رجوه ألا يصنع، وأن مؤاكلة الحمارين عيب كبير، لكنه بيّن لهم أن هؤلاء يقومون بخدمة جيدة، وأن الأنبياء كانوا يركبون الحمير فأي ضير في إجابة دعوتهم؟! وحضر وليمتهم فأثابوه بعدها بأموال وهدايا، فرفض أن يأخذ منها شيئًا حتى لا يظن الناس أنه إنما صنع ذلك للدنيا.

وهكذا كان رحمه الله يغير التقاليد البالية بنفسه، حتى إنه لما تزوج أرملة أخيه إسحاق قام عليه الأشراف؛ وذلك لأن المسلمين في الهند تأثروا بالهنادكة في عدم التزوج من الأرامل، فأبطل هذه السنة السيئة بنفسه رحمه الله.

وفي كلكتا تأخر ركب الحج قليلاً لإنجاز إجراءات السفر، فاستغل السيد ذلك ودعا إلى الله هو ومشايخ معه حتى تاب على أيديهم ألوف، وتركوا معاقرة الخمر؛ التي كانت شائعة حتى أغلقت كثير من الحانات، وكسد سوق الخمر؛ فجاء تجارها

إلى الحاكم الإنجليزي يطلبون منه إسقاط الضرائب عن الخمور لكساد سوقها فوافقهم، لكن إلى حين خروج أحمد بن عرفان من كلكتا!!

وفي أثناء تنقله من مدينة إلى مدينة جاءه وفد من مسلمي التبت فقراء يريدون الحج معه فقال لهم: أنتم لا تستطيعون لفقركم، ودلهم على خير من ذلك ألا وهو الرجوع إلى التبت للدعوة، فأخبروه أنهم جهال، فعقد لهم دورة شرعية وإيمانية عادوا على إثرها دعاة، وجوبهوا في التبت بمحن وشدائد لكن في النهاية انساق كثير من الناس لدعوتهم، وانصلح حالهم، وأسلم من أسلم، وانتقلت الدعوة من التبت إلى الصين، وكان في مشورة ابن عرفان الخير الكثير.

ثم تحرك الركب من كلكتا إلى الحجاز للحج فأدوا المناسك وعادوا فرحين، وامتدت مدة غيابهم قرابة ثلاث سنين بسبب وقوفهم في أماكن عديدة للدعوة وتربية الناس وهدايتهم مددًا طويلة نسبيّاً، وأعاد الله بهذا الحج الثقة للمسلمين بسلامة درب الحج، وحصل خير عظيم، ولله الحمد والمنة.

ثم إنه لما عاد من رحلة الحج سنة ١٢٣٩هـ أخذ في دعوة الناس -كعادته هو ومن معه- لكن نفسه تاقت للجهاد خاصة أنه وصلت إلى مسامعه أنباء المجازر التي يقيمها السيخ للمسلمين في البنجاب، فأعد العدة ونادى في ربوع الهند بالجهاد في سبيل الله، واشتاقت النفوس، وسابق الأبناء الآباء، وتحرك بركبه يريد بلاد الأفغان يستنصرهم، لكنه وجد من بعض أمرائهم صدودًا فعاد في رحلة شاقة جداً إلى بشاور، واصطدم مع السيخ في معارك انتهت بانتصاره وتأسيس إمارة إسلامية في بشاور، فوطد دعائم الأمن، وجبى الزكاة، وأقام الإسلام حتى تذكر الناس دولة الإسلام الأولى.

وأقام على ذلك أربع سنين تقريبًا، لكن خيانة بعض أمراء الأفغان ضيقت عليه، حتى إنهم قتلوا القضاة والمشايخ والدعاة الذين أرسلهم السيد أحمد للدعوة في تلك البلاد فكانت صدمة عنيفة له، يضاف إلى هذه الهموم فتاوى مشايخ السوء الذين أفتوا

بأنه وهابي، وأن قتاله جائز بل مطلوب، مما جعل عدداً من أتباعه ينفضون عنه، وهاجمه أمراء من الأفغان، فعزم على ترك بشاور واتجه إلى البنجاب، وقاتل السيخ بزعامة قائدهم رنجيت سيخ وانتصر عليهم.

لكن المؤامرات ضده كانت مستمرة، فعقد العزم على التوجه إلى كشمير حيث دعاه أمراؤها ووعدوه النصرة، فخرج من البنجاب في طريق محفوفة بالمخاطر، واتجه إلى كشمير لكن خانه بعض جنده المسلمين ودلوا السيخ على قافلته، فهاجموها في وادي بالاكوت في ذي القعدة من سنة ١٢٤٦هـ/ ١٨٣١م، وقاتل هو ومن معه قتال الأبطال حتى استشهد وهو لابس كفنه، مقبل على ربه هو ورفيق دربه الشيخ إسماعيل بن عبدالغني بن شاه ولي الله الدهلوي وعدد من أمرائه وجنده، بعد أن هجم عليهم السيخ بجنود كثيرين.

واعتصم من بقي من جنده بالجبال، وواصلوا الجهاد في أحوال صعبة جداً وبرد شديد وجوع وتعب، لكنهم صبروا وثبتوا سنوات حتى قضى على جهادهم الإنجليز، وحاكموهم محاكمات طويلة أظهروا فيها ضروباً من الثبات وصنوفاً من العزة، ما كانت لتخطر على بال أعدائهم، ولقد كان الواحد منهم يقدم على الإعدام أو السجن المؤبد راضياً صابراً ثابتاً، مما يدل على تربية أصيلة، وفهم جليل، وإقبال على الله وتجرد وإخلاص، نحسبهم كذلك والله حسيبهم.

هذا ومن أراد الاستزادة من الاستفادة، فليقرأ الكتاب الفذ الذي ألفه الأستاذ الكبير أبو الحسن الندوي رحمه الله تعالى وغفر له: «إذا هبت ريح الإيمان»، فمن قرأه مقبلاً بعقله وقلبه يُرجى أن تهب ريحه، وأن يعظم عمله، وأن يقتدي بفعال ذلك المجاهد الكبير، الذي حركه الله للعمل في وقت مات فيه الأمل، واضمحل العمل إلا من قليل كان منهم ذلك المجاهد الفذ والبطل العملاق.

تلك كانت دعوة أحمد بن عرفان الشهيد: جهاد باللسان تَوّجه بجهاد بالسنان، وهداية وإرشاد، وتربية وتعليم، ونقض العادات السيئة وإبطالها، وإعزاز للمسلمين،

وبث للثقة في قلوبهم، وصبر على مشاق الطريق، وتضحية بالنفس والنفيس، فلو لم يكن له بعد ذلك من هذا كله إلا تثبيت رحلة الحج واستمرارها، وجهاد السيخ الذين كان من ورائهم الإنجليز، وهداية عشرات الآلاف من المسلمين والهندوس على يده، لو لم يكن له إلا ذلك لكفاه، فكيف وقد أضاف إليه ما ذكرته، فرحمه الله رحمة واسعة، وتقبله في الشهداء.

●●●



[١٨]

المجاهد الداعية

عثمان بن فودي

[١١٦٨ - ١٢٣٢ هـ]

[١٧٥٤ - ١٨١٧م]

الحديث عن هذه الشخصية حديث ذو شجون، فهو حديث عن داعية، وعن عالم، وعن مجاهد، وليس عن مجاهد فقط، بل مجاهد أقام دولة قوية، ومن ناحية أخرى يتطرق الحديث إلى دولة السودان الإسلامية التي تكونت في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، في زمن كانت فيه الدولة الإسلامية الأم -الدولة العثمانية- تجنح إلى الضعف والركود، وسائر الدول الأخرى كانت قد سلكت الطريق الذي سيؤدي بها إلى التفكك والزوال، إذًا إن الزمن الذي نشأت فيه هذه الدولة وعوامل تكوينها قد غاير تمامًا ما كان سائدًا في العالم الإسلامي آنذاك من الضعف والتهاوي.

والشيخ عثمان بن فودي من إفريقيا السوداء، وأعلام تلك البلاد هم كالمجاهيل في عصرنا لقلة المصادر التي تحكي سيرتهم، ولصعوبة الوصول إلى قول فصل محايد في بعض الأحداث التي تتعلق بهم.

وعثمان بن فودي من أصول فُلاّنية -فلاتية- نزح جدّه الحادي عشر موسى جُقّل من غرب إفريقيا في هجرات متتابعة للفُلاّن يريدون الحجاز، ولأسباب غير معلومة توقف جدّه ومعه جماعته في بلاد الهوسا -نيجيريا اليوم- وجدّه من بطن من الفُلاّن يسمون بالتوروبي، وبلغة الهوسا تُورنْكاوا، وكان استقرار جده في تلك البلاد في القرن الحادي عشر الهجري/ السادسَ عشر الميلادي.

ولد الشيخ عثمان -كما كان يلقب- سنة ١١٦٨هـ أو ١١٦٩هـ- ١٧٥٤م، في مملكة جُوبَرا إحدى ممالك بلاد الهوسا آنذاك وأقواها، ونشأ بين والدين صالحين وأخذ عنهما طرفًا من العلوم، ودرس الفقه والعقيدة والحديث واللغة على مشايخ الهوسا والبرنو والفلاتة ليس بينهم عربي واحد، وهذا من نعمة الله على تلك البلاد في ذلك الزمان أن جعل العلم الشرعي منتشرًا بين أهل البلاد أنفسهم، وبرع في العلوم ومهر، وتقدم ونبغ حتى صار مجتهدًا في المذهب المالكي السائد آنذاك في كل إفريقيا الشمالية والوسطى والغربية والشرقية، وهو ما يسمونه بالمجتهد النسبي وليس المطلق.

وتسامع به الناس، وأقبلوا على دروسه اليومية، ووعظه الأسبوعي، حتى صار له أتباع سُموا بالجماعة، وصار هو يلقب بالشيخ، وصار علمًا عليه، حتى إن أبا بكر غومي أقضى قضاة نيجيريا ذكر في سنة ١٣٨٣/ ١٩٦٣ أن الناس في نيجيريا إذا ولد لهم ذكر وسموه بعثمان فإنهم يلقبونه بالشيخ تيمنًا بالشيخ عثمان بن فودي.

حال الإسلام في بلاد الهوسا آنذاك:

بلاد السودان كانت تطلق على بلاد شاسعة تمتد من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي فيما كان يعرف بالسودان الشرقي والأوسط والغربي، ودوله اليوم: السودان، وتشاد، ونيجيريا، والنيجر، ومالي، والسنغال تقريبًا، وجزء من الكاميرون.

وقد دخل الإسلام إلى بعض تلك البلاد منذ القرن الأول، لكن الانتشار والتمكين كان في القرن الخامس يوم أن دخل المرابطون من مراكش إلى السودان الغربي وأنشأوا مملكة مالي، وانتقل الإسلام -أيضًا- عن طريق التجار المسلمين من شمال إفريقيا وكانوا من البربر الصنهاجيين، وانتشر الإسلام بجهود الطوارق أيضًا، فاستنارت المنطقة بنور الإسلام منذ ألف سنة تقريبًا.

وفي زمن الشيخ عثمان كان الناس على ثلاثة أقسام: قسم مسلمون، وقسم وثنيون، وقسم خلطوا بين الإسلام والوثنية، فكان لا بد له من معالجة هذا الأمر، فكانت طريقته في دعوته ووعظه على الوجه التالي:

١- تعليم العامة أصول الدين، وإبعادهم عن البدع الكثيرة المنتشرة آنذاك.

٢- مجالس الوعظ الأسبوعية التي كان يعقدها.

٣- تعليم العامة أمور دينهم من صلاة وزكاة وغيرها، ونهيهم عن المنكرات والمعاصي.

وكان الناس يتقاطرون عليه رجالاً ونساءً، وكانت النساء قبله ليس لهن حظ في وعظ ولا درس، فشجع الرجال على إحضار نسائهم حتى يستفدن ويفقهن، وكان حضور النساء مدخلاً لأعدائه ليشنعوا عليه بدعوى أنه يخلط الرجال بالنساء.

وكانت صفاته الشخصية مؤهلة له لأمر عظيم، فقد كان صاحب همة عالية، كثير التجوال في أنحاء بلاد الهوسا لإيصال الدعوة، حتى إنه مكث مرة في إحدى النواحي خمس سنوات بعيداً عن وطنه من أجل تعليم الناس وإرشادهم، وهذه تضحيات جليلة لا يقدر عليها إلا عظماء الرجال، وكان لا يكل ولا يمل من كثرة الدروس وطولها، مثابراً على إلقاء المحاضرات مثابرة تدل على استعداده الكبير للبذل والتضحية.

ومن صفاته العظيمة إخلاصه وحسن صلته بالله، فقد أخبر ابنه والخليفة من بعده محمد بَلُّو أن أباه كان إذا أراد الخروج للناس اعتزل في ناحية وتكلم بكلام لا يفهمه، فسأله فقال: يابني، إني إذا أردت الخروج للدرس أو الوعظ سألت الله أن يسددني وأن يفهم الناس عني، وأجدد النية، وأعقد العزم على الإخلاص، وهذا منه -رحمه الله تعالى فهم جليل وعمل صائب.

جهاده:

قد وفق الله هذا العالم لجهاد طويل مرير، وكان سبب ذلك أن سلطان جُوبَرا: باواجن غَوْزُو دعاه في عيد الأضحى مع مجموعة من العلماء، وأهداهم هدايا كثيرة، فرفضها الشيخ عثمان، وطلب من السلطان خمسة أمور:

١- الحرية في الدعوة إلى الإسلام والوعظ.

٢-رفع الضرائب الثقيلة عن الشعب.

٣-الإفراج عن المعتقلين السياسيين.

٤- احترام العلماء.

٥-ألا يمنع من رغب من رعاياه في الانضمام إلى الشيخ عثمان.

فاستجاب له السلطان، وجعله مفتياً لبلده.

ثم إنه خوفه بعض علماء السوء من جماعة الشيخ عثمان وازدياد عددها، فضيَّق عليه وحاول قتله، لكن الله تعالى نجى الشيخ عثمان، ثم ما لبث باواجن أن مات وجاء من بعده ابنه نافتا الذي استمر على منهج أبيه في التضييق على الشيخ.

ثم جاء بعده ابنه يُونْفا الذي كان من تلامذة الشيخ لكنه انقلب عليه، وأمر في سلطنته بثلاثة أوامر:

١- ألا يعظ إلا الشيخ.

٢- ألا يتعمم الرجال ولا تختمر النساء.

٣- أن كل من أسلم ولم يكن الإسلام دين آبائه وأجداده فيرتد إلى ما كان عليه!!

وكانت هذه الأخيرة قاصمة الظهر التي لا يُصبر عليها، فأعلن الشيخ عثمان لجماعته وجوب الخروج من مملكة يونفا هذا، وفعلاً خرجوا إلى ولاية أخرى وكان عددهم خمسة آلاف، وانضم إليهم مثلهم فصاروا عشرة آلاف، وسأل الله تعالى أن يريه دولة الإسلام في البلاد السودانية.

وهنا صار يونفا يضيق على الخارجين إلى الشيخ عثمان بأنواع من التضييق، حتى انتهى الأمر إلى إعلان الشيخ عثمان وجوب جهاد يونفا وإيقاف مظالمه، وبايعه جماعته على الجهاد، واستعدوا بالسلاح، فهجم عليه يونفا بجيشه فهزمه الله هزيمة منكرة، واستولت الجماعة على بلاده.

ثم إن سلاطين الهوسا تسامعوا بقوة جماعة الشيخ عثمان فضايقوا من كان منهم في بلادهم، وأعلن بعضهم الحرب على الجماعة، فابتدأت سلسلة طويلة صعبة من المعارك انتهت باستيلاء الشيخ وجماعته على كل بلاد الهوسا وأجزاء من بلاد الكاميرون الآن، وأجزاء من تشاد، وأسسوا دولة ضخمة مساحتها تقريبًا ١٥٠ ألف ميل، وسكانها قرابة عشرين مليونًا، وبويع الشيخ عثمان خليفة على هذه الدولة التي سميت بمملكة سوكوتو الإسلامية، وكانت هذه سابقة في تاريخ الدعوات الإسلامية الحديثة.

وعين الشيخ عثمان ابنه العالم محمداً بَلُّو أميرًا عاماً على شرق البلاد، وأخاه العالم عبدالله على غربها، وقسم بلاده إلى ثلاثين ولاية، وجعل عليها أمراء من أتباعه.

وفي ذلك الوقت برز خلاف بين عبد الله وأخيه الشيخ عثمان في جملة أمور منها: مسألة لبس الأمراء الملابس التي فيها ذهب وحرير مما غنموه من أعدائهم، لكن ليس على وجه الاستدامة بل يلبسونها إظهاراً للفرح ثم ينزعونها، ومنها مسألة استعمال

الطبول في أفراح الانتصار، ومنها مسألة تصور الأمراء بصورة عظيمة إذا خرجوا إلى رعاياهم، وعدد آخر من المسائل، فأجابه الشيخ عثمان أن عمر رضي الله عنه ألبس سراقة سواري كسرى وتاجه وهي من ذهب ليرى الصحابة تحقق المعجزة النبوية، وهؤلاء الأمراء يلبسون تلك الملابس إظهاراً لنعمة الله ثم ينزعونها، وأما المسألة الثانية والثالثة فقد بين له أن البيئة الهوساوية متعلقة بهذه المظاهر ولا تُساس الرعية إلا بها، والأمر فيه خلاف وفيه سعة، وهكذا بيَّن له ما اشتبه عليه في كل المسائل، لكن عبدالله لم يقتنع وأراد الخروج إلى المدينة النبوية المنورة فمنعه أهل كانو وقالوا له: إن أخاك بحاجة لمؤازرتك ومساعدتك فبقي.

ثم إن الشيخ عثمان توفي ولم يعين أحداً بعده، وكان ذلك في سنة ١٢٣٢/ ١٨١٧ عن أربع وستين سنة تقريبًا، وولى أهل الحل والعقد ابنه محمداً بَلُّو في مكانه، وبَلُّو بلغة الفُلاّني هو المعين والمساعد، وقد رضي بذلك عمه عبدالله بعد تمنع وبايعه، واستقر الأمر لمحمد الذى حكم قرابة إحدى وعشرين سنة، واشتهر باسم أمير المؤمنين.

ولَمَّا توفي سنة ١٢٥٣، جاء بعده ابنه، ومن ثم حفيده، وبقيت الدولة مائة عام من سنة ١٨٠٣ إلى ١٩٠٣ حيث أسقطها الإنجليز سنة ١٩٠٣ في عهد الطاهر أحد أحفاد الشيخ عثمان.

آثار دعوة الشيخ عثمان:

١- القضاء على الوثنية في كل السودان تقريبًا، والسودان الذي أعنيه هنا هو السودان التاريخي من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي كما بينت سابقًا، وهذا إنجاز ضخم جداً.

٢- أعاد كثيراً من الناس إلى حظيرة الشرع، والالتزام بالإسلام قولاً وعملاً واعتقادًا، وقضى على كثير من البدع.

٣- أنشأ دولة قوية مترامية الأطراف يهابها أعداء الإسلام، واستمرت شامخة مائة عام، ووضع لها دستوراً محكمًا قوياً.

٤- أنتجت دعوة الشيخ عثمان نتاجًا ثقافيًا ضخمًا، فقد ترك مائة وأربعين مؤلفًا تقريبًا في الجوانب العقدية والسياسية والاقتصادية والفقهية وغيرها، وتخرج على يديه مائة عالم مجتهد في المذهب المالكي، وهذا منه عمل عظيم على كثرة مشاغله وتشعب اهتماماته.

٥- ضبط مسألة الغلو في التكفير، وألف خمسين مؤلفًا تقريبًا في الرد على من ذهب إلى التكفير بالمعصية، ومن ضمنهم شيخه الأثير جبريل بن عمر الذي أحبه كثيرًا حتى قال فيه:

إن قيل فيّ بحسن الظن ما قيلا ... فأنا موجة من أمواج جبريلا

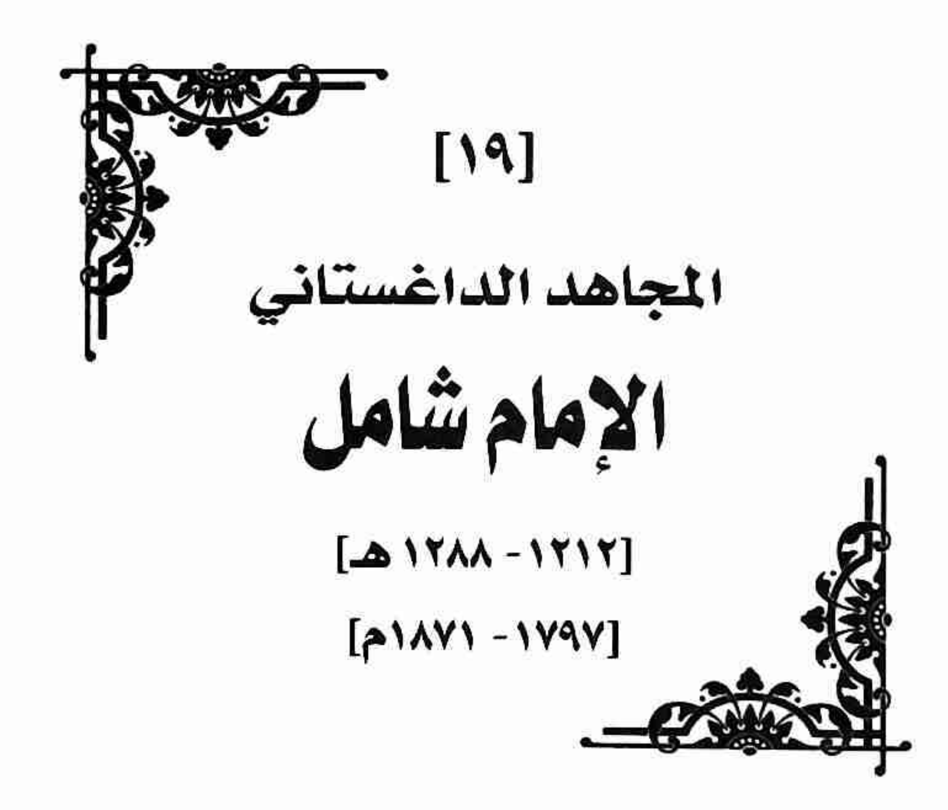
٦- حرر دارفور من الوثنية، ولذلك قصة عجيبة، وذلك أنه قبل أن يموت وصى أتباعه أنه إذا ظهر مهدي السودان فلينصره الفُلاّن - الفلاتة - وكان هذا كرامة له، إذ بعد موته بمدة طويلة ظهر المهدي في السودان، ونصره الفُلان بالهجرة إليه خاصة بعد ضعف دولتهم، واستقروا في وادى النيل ودارفور.

ويقول رئيس السودان السابق إسماعيل الأزهري للشيخ عمر محمد فلاتة المجاور في مدينة رسول الله ﷺ والمدرّس بحرمها الشريف: «لولا أن الفُلان سكنوا دارفور لتحولت المنطقة إلى الوثنية كما حصل في جنوب السودان».

وقد كان المهدي السوداني يحب هؤلاء الفلاتة حبّاً جمّاً، وتزوج منهم، وكان خليفته عبدالله التعايشي منهم، رحمهم الله تعالى.

وفي النهاية أقول:

إن هذه الثمرات الجليلة كانت لداعية عظيم، نصر الله تعالى به الدين في تلك البلاد، وقضى على كثير من البدع، وحمى الناس من الوثنية، وجمع بين العلم والدعوة والجهاد ورئاسة الدولة على وجه مبدع جليل، وهو أمر جديد على دعاة العصر الحديث، وصدق الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت: ٦٩].



[١٩]

المجاهد الداغستاني

الإمام شامل

[١٢١٢ - ١٢٨٨ هـ]

[١٧٩٧ - ١٨٧١م]

هو مجاهد من المجاهدين العظام في زمن اشتدت فيه حاجتنا إلى المجاهدين العظماء، تعرض للشهادة في مواطنها، وأبى إلا أن يغترف من كأسها الطاهر المطهر، لكنه مات على فراشه بعد ملحمة طويلة، ومعارك جليلة أذاق فيها الروس القياصرة الذل والهوان، وهُزموا أمامه مرارًا، هذا وروسيا آنذاك من القوى العالمية في الطبقة الأولى، وكانت في أوج عنفوانها وغطرستها، قد هزمت (نابليون) وتقدمت حتى دخلت (باريس) سنة ١٨١٦م!!

والإمام شامل من داغستان، ولد في قرية منها سنة ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م، ونشأ فيها نشأة الأبطال الفرسان، على أنه درس بعض العلوم على مشايخ من بلاده.

وداغستان جزء من منطقة القوقاز الشمالي الذي يضم معها الشيشان والأنجوش وأوسيتيا، وهذه المنطقة مواجهة تمامًا للروس، وهناك القوقاز الأوسط الذي هو جمهورية جورجيا الآن وكانت تعرف عند المسلمين بالكرج، وهناك القوقاز الجنوبي الذى فيه أذربيجان وأرمينيا.

والقوقاز غزاه المسلمون الأوائل وثبتوا في جنوبه وفي مناطق في شمال غربه، لكن لوعورة المنطقة ولكثرة طوائف وأديان ومذاهب أهلها لم يستطع المسلمون أن يتحركوا شمالاً، وغاية ما فعلوه أن سراقة بن عمرو الذي كان في زمن الخليفة الأموي مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية استطاع دخول تفليس (تبليس، عاصمة جورجيا اليوم).

ثم إن التتار ورأسهم تيمورلنك في مرحلة تحولهم إلى الإسلام نشروا الإسلام في أجزاء من الشيشان والداغستان والأنجوش.

ثم أرسلت الدولة العثمانية في مرحلة متأخرة نسبيًا دعاة إلى الشيشان وأقنعوا جماعات من الشيشانيين بالتحول إلى الإسلام بعد أن كانوا وثنيين، وكان هذا من قرابة ثلاثة قرون من الآن، وكان ذاك عملاً رائعًا في منطقة وعرة ضخمة بها أشجار بلوط ضخمة يبلغ ارتفاع بعضها مائتين وثمانين قدمًا ومحيطها خمسة وثلاثين قدمًا!!

والمنطقة مليئة بهذه الأشجار، وبها جبال وعرة مما يصعّب أي عمل عسكري فيها، وهذا من فضل الله على أولئك الدعاة.

ومنذ أن دخل الشيشانيون إلى الإسلام عمدوا إلى الدفاع عن الإسلام ورفع لوائه إلى يوم الناس هذا، ولم تفلح معهم كل محاولات التغريب والتنصير، وهناك شعوب دخلت قبلهم في الإسلام لكنها أجبرت على التحول إلى النصرانية عندما اجتاح بلادهم الروس القياصرة، مثل شعب الكرج (جورجيا) التي دخلها الإسلام منذ عصر التابعين، لكن الشيشانيين ثبتوا، ولله الحمد.

وعظماء القوقاز -منذ دخلها الإسلام إلى هذا العصر- جملة وافرة، وعدد هائل لكن أين تراجمهم؟ وما لنا لا نعرف منهم إلا أفرادًا معدودين على أصابع اليد الواحدة؟ أهذا جزاء أولئك العظماء؟ لكن يبدو أنه قد اجتمع عليهم إهمال المسلمين وقلة اكتراثهم مع عوامل الخراب التي مرت على المنطقة فأفنت تواريخها وجهّلت أهلها.

كان لشامل صاحب يكبره بخمس سنوات يسمى غازي محمد ملا، وكان رفيق دربه، فكانا يدرسان معًا على المشايخ، ويدوران على المساجد، وابتدآ الجهاد معًا، وكان لبدء الجهاد سبب مؤثر وهو أن غازي ملا رأى النبي ﷺ في المنام ثلاث مرات وهو يدعوه للجهاد ضد الروس.

والروس آنذاك هم الذين ابتدأوا بالاعتداء، حيث كانت القيصرة (كاترين) تملكهم فأرسلت الجيوش إلى تلك المناطق، وتتابع القياصرة من بعدها على إرسال الجيوش.

ولابتداء الضعف في الدولة العثمانية آنذاك -قبل قرابة مائتين وخمسين سنة من الآن- استطاع القياصرة أن يثبتوا احتلالهم لبعض المناطق هناك، وإضافة إلى ابتداء الضعف في الدولة العثمانية كان هناك انعدام في تنسيق المواقف بينها وبين الدولة الصفوية في إيران بسبب تشيُّعها، وكان هناك دولة قبرطاي الإسلامية وهم من الشراكسة، ولم ينسقوا أيضًا مع الحركة الجهادية ضد الروس، فأدى كل ذلك إلى احتلال الروس بعض المناطق في القوقاز، وكان سائر العالم الإسلامي يغط في نوم عميق أو مشغولاً بمشكلاته الداخلية.

تقدمت الدولة الروسية لتحتل القوقاز وكان يدفعها سببان رئيسان: أولهما أن القوقاز طريق إلى التركستان فإذا أخذوا القوقاز سهل عليهم الاستيلاء على التركستان، ومن ثم يتقدمون لأخذ الهند من المغول المسلمين -وهذا هو الدافع أو السبب الآخر- وفعلاً ما إن أسقطوا دولة شامل إلا ودخلوا طشقند عاصمة أوزبكستان إحدى جمهوريات التركستان، ولم يستغرق منهم هذا سوى سنة واحدة فقط بعد سقوط القوقاز.

لما رأى غازي محمد ملا النبي ﷺ في المنام ثلاث مرات يأمره ببدء الجهاد تحدث إلى الداغستانيين بهذا فأجابوه، وجاهد الروس ثلاث سنوات من سنة ١٨٢٩، ثم حوصر في بلدته غمري هو وشامل ومن معهما، فقتل غازي محمد ملا، وهرب شامل.

ثم إن شاملاً استطاع أن يجمع فلول الداغستانيين ويبتدئ الجهاد ضد الروس سنة ١٨٣٤ إلى سنة ١٨٣٩، وفي تلك السنة دل عليه بعض أمراء الداغستان الخونة وحاصره الروس بقوة ضخمة فيها مدافع لم يكن يملك الداغستانيون شيئًا حيالها، حيث كان الروس يدكون البيوت بها دكًا، لكن شاملاً استطاع الهرب أيضًا.

وبعد تفكير ومراجعة لأحواله في ظل خيانة أمراء الداغستان قرر التوجه إلى الشيشان، وهو معقل حصين جبلي كان أهله أقوى إيمانًا من الداغستانيين وأوفى ذمة، وطبيعة الشعب الشيشاني الصعبة لا تسمح لهم بأن يرضخ بعضهم لبعض، فكانوا بحاجة إلى رجل غريب يُسلسون له قيادهم، فكان هذا هو الإمام شامل الذي استطاع أن يصل إلى القسم الجبلي من الشيشان، وجمع حوله فلول أتباعه من الداغستانيين الذين انهزموا من الروس، وبايعه أمراء الشيشان وقبائلهم، وأعلنوه إمامًا عليهم له حق السمع والطاعة والجهاد معه في سبيل الله تعالى.

لما سمع القيصر بهروب شامل وما صنعه في الشيشان استشاط غضبًا وطلب من قائده حسم المعركة مع شامل، فأرسل الجيوش إلى الشيشان وعلى رأسها أعظم القادة وأكثرهم خبرة في الحروب مع الداغستانيين ومع (نابليون)، وقاومهم شامل ومن معه حتى اضطر القيصر لإرسال حملة عرفت بحملة (دارجو) وهي البلدة التي كان يتحصن

فيها شامل وأمراؤه، وكان حولها غابات كثيفة جداً، وكان قائد الحملة يسمى (جراد) لكنه لم يتمكن من الوصول إلى (دارجو)؛ حيث كمن له جيش شامل على أشجار البلوط الضخمة التي سبق وصفها، فكان فوق كل شجرة ٤٠ - ٥٠ من العساكر، وكانوا يسكبون الزيت المغلي على الروس، ويرمونهم بالحراب والبنادق فحصدوا كثيرًا منهم، وفشلت الحملة وعادت أدراجها بعد خسائر ثقيلة.

ثم جرت مناوشات بين شامل و(جراد) متفرقة.

وبعد ثلاث سنوات في سنة ١٨٤٥ أرسل القيصر حملة ضخمة قوامها ثلاثون ألف رجل بقيادة ضابط روسي فذّ اسمه (روندسوف)، فمكر به شامل حيث جعله يتقدم في الأدغال إلى أن وصل إلى البلدة التي كان يتحصن بها شامل، وترك فيها مجموعات قليلة لمقاومة (روندسوف) الذي تغلب عليها، وسوّى بيوت البلد بالأرض بمدفعيته الضخمة، وفي طريق عودته -وكان فرحًا مسرورًا بما صنع- كان الشيشانيون ينتظرون جيشه في الليل فانقضوا عليه كالأسود، وقتلوا منهم خمسة وعشرين ألفًا، ولم ينجُ إلا خمسة آلاف نصفهم جرحى، وقتل قواد روس كبار في المعركة.

لقد كان شامل ومن معه من الصوفية النقشبندية الذين اشتهروا بالجهاد، وهي من أصفى الفرق الصوفية ومن أقلها بدعًا، وكان شامل ومن معه يسمون أنفسهم بالحركة المريدية، وكانت أصول الحركة المريدية تقوم على الشدة والقوة والفروسية وعلى الأذكار والأوراد، ووضع شامل لجيشه نشيدًا جهادياً جميلاً ينشدونه في معاركهم، وقد وصفتهم الكاتبة الأمريكية (ليزا) في كتابها: «سيوف الجنة» وقالت فيه: «إن الشيشانيين كانوا يتقدمون للمعارك مع الروس وهم يرتلون القرآن الكريم، وينشدون أنشودة الموت التي تبعث فيهم الحماس والقوة».

بعد حملة (دارجو) الثانية عمد الروس إلى خطة ماكرة حيث لاينوا أمراء الشيشان ورعاتهم، وأمراء الداغستان، فكانوا إذا أمسكوا بهم يطلقونهم ويكافئونهم بالأموال، وكانوا في المقابل يقسون على المجاهدين جداً، وبهذا الصنيع تأثر كثير من عامة الشيشانيين والداغستانيين، وكان هذا من أوائل بوادر الإخفاق الذي حدث لشامل بعد ذلك.

ارتكب شامل أخطاء عديدة، فقد كان رجلاً عسكرياً قوياً، شديد الشكيمة، صعب المراس، فكان يقسو أحيانًا على أتباعه ويفرض حركته المريدية على الشيشانيين، فكان هذا يوجد نوعًا من التململ، فكان هذا خطأه الأول.

وثاني أخطائه الكبيرة أنه كان هناك رجل داغستاني اسمه مراد عدو لشامل في الداغستان، فأصلح بينهما الشيشانيون وصار نائبًا لشامل في الداغستان، وكانت هناك طائفة من أمراء الداغستان حسدة لمراد فأوغروا صدر شامل عليه وأقنعوه أن يولي ابنه غازي محمداً ولاية العهد من بعده، ففعل شامل وأخذ البيعة من الأمراء الشيشانيين والداغستانيين، وهذا الأمر أغضب الحاج مراد جداً فاستقل عن شامل والتحق بالروس، وهذه خيانة كبيرة لكن الحسد والحقد اللذين استوليا على مراد وسوء التصرف من شامل أدى بمراد إلى هذا الذي صنعه، على أن الروس بعد ذلك غدروا به وسجنوه ثم قتلوه، وهي نهاية أليمة لرجل دوخ الروس عشر سنوات، وكان له عمل جهادي جيد، لكن أعوذ بالله من الحقد والحسد.

قسَّم شامل حركته المريدية تقسيمًا بارعًا، فكان له مائة نائب وألف مرشد ينتشرون في القوقاز الشمالي، وكان الحاج مراد أحد النواب الكبار والساعد الأيمن لشامل الذي فقده في وقت كان في أمس الحاجة إليه.

استمر المد والجزر بين شامل والروس سنوات طويلة، وقتل منهم جنوداً وقادة كثيرين، وهذا يعد عملاً رائعًا بالنسبة إلى قوة الشيشان الصغيرة أمام جحافل الروس لكنه الإيمان الذي يصنع العجائب.

ومن المعارك التي تستحق الذكر -أيضًا- أن الروس أرسلوا ولي عهد القيصر في جيش فيه كبار القادة وثلاثون ألف جندي، كل هؤلاء توجهوا إلى بلدة صغيرة، فغطى الشيشان أبواب بيوتهم ونوافذهم بالطين فصارت البيوت كتلة واحدة، وغيروا سقوف بيوتهم إلى سقوف خفيفة رقيقة وغطوها بالتراب لتبدو كأنها هي السقوف الأصلية، فكان الروس يقفزون فوق السقوف فيقعون في البيوت ليجدوا الشيشانيين المريدين أو المجاهدين في انتظارهم فيعملون فيهم ذبحًا وقتلاً، فرجع الجيش خائبًا خاسراً بسبب هذه الحيلة الذكية.

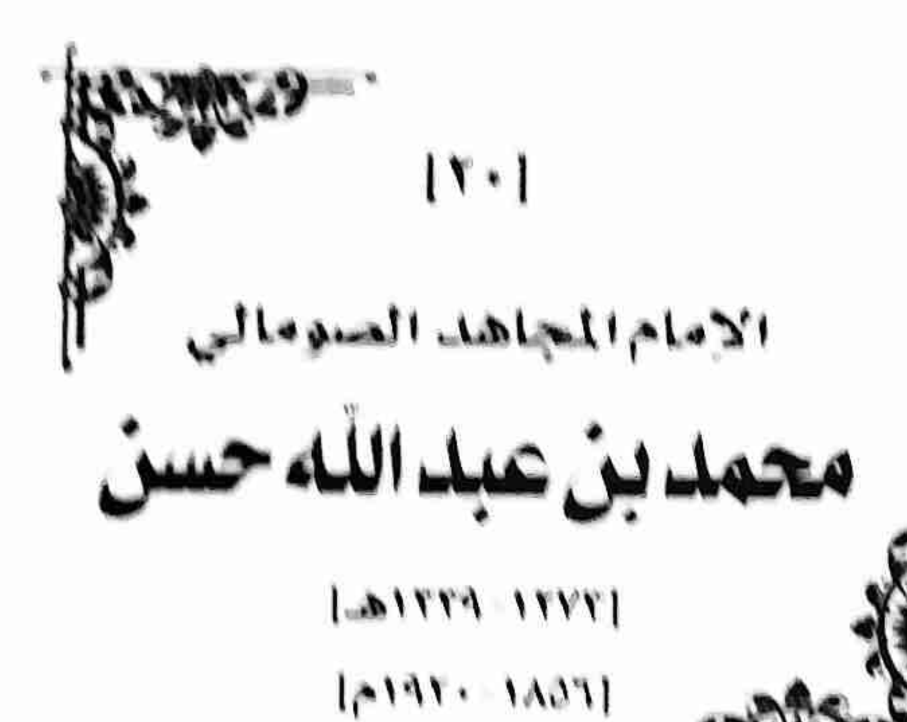
لكن شاملاً لم يكن يستطيع أن يصمد أمام هذه الحملات المتتابعة أكثر مما صمد، فقد بقي في الجهاد قرابة ثلاثين عامًا، لذا كانت نهاية قصة الجهاد العظيمة هذه أن استسلم للروس بعد أن حوصر في خمسمائة من أتباعه فقط من قبل جيش يقدر بأربعين ألف جندي، لأنه رأى أن حقن دماء من بقي من أتباعه أولى له بعد أن خانه عدد من أمراء الداغستان وخانته دولة الشراكسة القبرطاي، وسلم نفسه للروس سنة ١٨٥٩ -بعد ممانعة كبيرة من بعض أتباعه- فأخذوه إلى روسيا فبقي فيها مكرمًا تسع سنوات من قبل القيصر والقادة.

ثم طلب من القيصر أن يسمح له بالحج فوافق بعد تردد، فرافقته حملة روسية إلى أن خرج من حدودهم، فحج، ثم نزل مدينة رسول الله ﷺ فاستقر فيها مجاورًا ثلاث سنوات، ثم انتقل إلى جوار ربه سنة ١٨٧١ بعد جهاد دام قرابة ثلاثين سنة، ووقف صخرة شماء أمام أطماع القياصرة ونواياهم التوسعية في المنطقة القوقازية والتركستانية.

وكان من أهم أسباب إخفاق الحركة الجهادية المريدية الشاملية خيانات عدد من أمراء الداغستان، وقسوة شامل على أتباعه في بعض الأحيان وعلى سائر الشيشانيين فانفض عنه كثير منهم، وهناك عامل مهم هو عدم تنسيق الدولة العثمانية معه لضعفها آنذاك.

بعد استسلام شامل لم يستسلم الشيشانيون، بل قاموا بثورات متتابعة، ثم إنه لما جاءت الدولة البلشفية انتقمت من الشيشانيين فاتهمهم (ستالين) بمساعدة الألمان فهجّر كثيرًا منهم، ثم عادوا إلى بلادهم سنة ١٩٥٧ بعد هلاك (ستالين).

●●●



[٢٠]

الإمام المجاهد الصومالي

محمد بن عبد الله حسن

[١٢٧٢ - ١٣٣٩هـ]

[١٨٥٦ - ١٩٢٠م]

إن الأخبار التاريخية التي وردتنا عن منطقة القرن الإفريقي عامة والصومال خاصة لهي أخبار قليلة لا تتناسب مع أهمية المنطقة وإشرافها على جزيرة العرب من جهة والدول الإفريقية المهمة من جهة أخرى، وربما كان لقلة المؤرخين في تلك المنطقة أثر في ذلك، ولعل مستقبل الأيام يخرج لنا بعض المخطوطات المهمة التي تتحدث عن تاريخ المنطقة باستفاضة.

والشخصية التي أتحدث عنها هنا هي شخصية مجاهد جليل، وقف أمام أطماع الصليبيين في الصومال التي هي -في تقديري- أهم بلاد القرن الإفريقي، لموقعها الفريد، ولاتساع مساحتها، وبرز منها مجاهدون عظماء منهم الإمام أحمد بن إبراهيم الذي وقف ضد أطماع البرتغاليين والأحباش بقيادة الملكة هيلانة، وكان ذلك في الثلث الأول من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ولولا أن شرطي في هذه السلسلة ألا أورد أحدًا من الشخصيات إلا إن كان من العصر الحديث لأوردته؛ فهو أحد العظماء المنسيين، رحمه الله تعالى.

تنافس الأحباش والإيطاليون والبريطانيون والفرنسيون على تقسيم الصومال والتهامه تطبيقًا لقرارات مؤتمر برلين سنة ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥ التي فتحت الباب واسعًا أمام الأطماع الصليبية في كل إفريقيا، فكانت بريطانيا في بربرة وما حولها، وإيطاليا في مقديشو، وفرنسا في جيبوتي، والحبشة في هرر.

كان هذا الشيخ المجاهد محمد بن عبد الله حسن صوفيًا على الطريقة الصالحية، لكنه لم يكن مثل قَعَدة الصوفية ومثبطيهم، بل إنه ضرب المثل في الجمع بين الجهاد والتربية الروحية البعيدة عن الغلو، وكان هذا نادرًا في العصر الحديث؛ كما هو معلوم، ولم يتحقق إلا لآحاد، منهم: عمر المختار، والإمام شامل، ومهدي السودان، وقليل غيرهم.

ولد الإمام المجاهد محمد بن عبد الله حسن في سنة ١٢٧٣/ ١٨٦٤ في شمال الصومال بالقرب من بوهوتلي، من أسرة عربية الأصل هاجرت إلى الصومال منذ زمن طويل، وكان أبوه من الأوجادين الجنوبية التي كانت تحت الإدارة الحبشية، من قبيلة

بهجري الصومالية، وأمه من قبيلة الدولبهنتا الصومالية أيضًا، فانتقل إلى تلك المنطقة واستقر بها، واهتم بابنه فأرسله إلى مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم، والعلوم الشرعية في الأوجادين، والتقى بالمشايخ وعلماء المنطقة، واشتغل بالصيد والفروسية والملاحة، ثم حصل على لقب الشيخ وهو في التاسعة عشرة من عمره المبارك -وهذا دليل على نبوغه المبكر- ودرّس في المساجد والمراكز الدينية في هرر ومقديشو ونيروبي وغيرها، ثم عاد إلى بلاده وهو في الخامسة والعشرين فتزوج، وواصل إلقاء الدروس، ووفد عليه جماعات من الطلبة الذين كانوا نواة لجنده فيما بعد.

وكان الإمام شاعرًا، وله شعر يتناقله الصوماليون اليوم لكنه لم يكتب في حياته.

وحج البيت الحرام سنة ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥، فوقف على أحوال المسلمين وأخبارهم فقد كانت مصر تموج بالاحتلال البريطاني، والسودان يثور بقيادة المهدي، فكانت رحلة الحج إعدادًا نفسيًا له لمواجهة الأطماع في الصومال، والتقى في الحجاز بالشيخ صالح السوداني صاحب الطريقة الصالحية وأخذ عنه، وكان أثناء إقامته بالحجاز يتسقط أخبار الصومال من الحجاج، ويسمع ما صنع المحتل بأهل بلده.

ثم توجه إلى فلسطين وزار بيت المقدس.

وفي سنة ١٣١٣/ ١٨٩٥ قرر العودة لبلاده عن طريق عدن، وكانت بريطانيا قد أصبح لها اليد الطولى في موانئ القرن الإفريقي مثل بربرة وزيلع، بعد انسحاب القوات المصرية التي كانت تحكم تلك البلاد، وذلك نتيجة مؤامرة حاكها المحتل البريطاني لمصر، وصارت بريطانيا تبني الكنائس، وتمزق الصومال إلى مناطق نفوذ مختلفة.

وفي عدن حدثت له حادثة تنبئ عن نفسية الرجل، فقد طلب منه أحد البريطانيين مشاهدة المظلة التي في يده، فأبى الإمام، فتبعه البريطاني وحاول أن يرى المظلة بالقوة فدفعه الإمام فسقط في البحر، فتعجب البريطانيون من جرأته على أحدهم، وهم يعدون أنفسهم سادة المنطقة، وكاد يسجن لولا أن الله أنقذه بوساطة الشرطة في عدن.

ثم توجه إلى بربرة التي لقي فيها عنتًا من رجال الجمارك الذين طلبوا منه رسومًا على أمتعته، فقاله لهم: ومن الذي أعطاكم الإذن بالدخول إلى بلادنا؟

وأقام في بربرة مسجدًا، وأقبل على تعليم الناس وتربيتهم وتهذيبهم، وبدأ يحثهم على الجهاد ضد الأوربيين، وكان يؤثر في سامعيه بما وهبه الله تعالى إياه من الفصاحة وقوة الحجة وحسن الإقناع بآيات من كتاب الله تعالى وأحاديث رسول الله ﷺ، وبشخصيته الفذة، ورجاحة عقله، وسرعة بديهته، هذا علاوة على ما امتاز به من براعة في نظم الشعر والتأثير في نفسية سامعيه، فجمع الناس حوله بهذه الشمائل والخلال، وكون منهم نواة كبرت فيما بعد وعظم شأنها في الجهاد.

وفي بعض المرات التقى بمجموعة من الأطفال الذين يتعلمون في مدرسة البعثة الكاثوليكية الرومانية في بربرة، فعلم أنهم يعلمونهم مبادئ النصرانية المحرفة، ويغيرون أسماءهم حتى إنه سأل أحد الأطفال عن عشيرته فقال: إنه من عشيرة البابا!! وعن اسمه فقال: يوحنا عبد الله!! فاشتكى إلى المقيم السياسي البريطاني في بربرة مطالبًا إبعاد المنصرين عن الصومال.

وحذر قومه من طاعة النصارى، وطالبهم بألا يعلّموا أطفال المسلمين اللغات الأوربية -التي كانت مقرونة آنذاك بالتنصير- وحثهم على العناية بهم، وتحفيظهم القرآن، وتعليمهم الشريعة، وابتدأ يعد العدة للجهاد وتوحيد القبائل في الصومال، حتى لاحت فرصة وهي أن أحد القساوسة كان يقطن بجوار أحد المساجد في بربرة فأزعجه الأذان فأطلق النار على المؤذن!! فاشتعل الغضب في نفوس المسلمين، فقاموا بهدم المركز التنصيري في ديمول، ولاحقوا القس محاولين الفتك به، وحاولوا تحطيم كل المراكز التنصيرية، فأرادت بريطانيا التهدئة فقامت بترحيل كل المنصرين في باخرة إلى عدن، وتعهدت بعدم السماح لهم بالعودة، ومنع بناء كنائس في الصومال، وألا تفتح محلات لبيع الخمور، وهذا باق إلى اليوم في الصومال الشمالي، فليس فيه مراكز تنصير ولا مدارس تنصيرية؛ بفضل الله تعالى ثم بهمة هذا الرجل وأصحابه، وهذا كله يعلمنا أن المسلمين إذا كانوا أصحاب همة عالية وعمل بناء فإن أحدًا لا يستطيع الوقوف بوجههم.

وحدثت حادثة أخرى كانت هي الفتيل لإشعال الجهاد، وهي أن أحد رجال الشرطة في بربرة هرب إلى الإمام وأعطاه مسدسه، فسمع القنصل البريطاني في بربرة بهذا، فطلب من الإمام أن يرد المسدس، فرد عليه الإمام رداً خشنًا، وبعد شهور تلقى القنصل البريطاني رسالة من الإمام يتهم فيها الإنجليز بالإساءة إلى الإسلام، وأنه يحتقر كل من يتعاون معهم، ويطالبهم بدفع الجزية!! وهنا طلب القنصل من حكومته إعداد العدة لقتال الدراويش، وهذه هي التسمية التي سمى بها الاستخراب البريطاني جماعة الإمام، وسموه هو بالملا المجنون، وكان يلقب -أيضًا- بمهدي الصومال تشبيهًا له بمهدي السودان.

وخرج الإمام من بربرة إلى نوجال، واشترى عدداً من البنادق الفرنسية، وصاحب هذا حضور بعض الجنود الأحباش إلى أوجادين لجمع الضرائب من السكان، فهجم عليهم أتباع الإمام، وعلى المعسكر الحبشي في جكجكة، وغنموا أسلابًا كثيرة وسلاحًا إيطاليّاً، وهنا انتبه إمبراطور الحبشة منليك فتحالف مع البريطانيين لضرب الحركة الناشئة.

وهنا أدرك الإمام أن الوقت قد حان لإعلان الجهاد فأعلنه، وحث على الاستعداد لقتال النصارى، والصبر على الشدائد، وبهذا صار قائداً سياسيّاً وزعيمًا دينيّاً معًا في منطقة الأوجادين، وابتدأ بإخضاع القبائل المجاورة لزعامته، وذلك لأن بعض رؤساء تلك القبائل لم يقبل أن تخرج الزعامة عنه، لكن عدداً من رؤساء القبائل ذوي الحس الوطني انضموا إليه.

وهذه رسالة بعث بها الإمام المجاهد توضح وضع عدد من قبائل الصومال وممالأتها للاحتلال، حيث قال رحمه الله:

«نحن قوم حاصرهم الكفار والمنافقون من جميع الجهات، وقطعت عنهم جميع المواصلات والإمدادات الحربية والغذائية.

ونحن قوم ملئت صدورهم من الغضب والغيظ؛ لأجل تخاذل المسلمين وتخالفهم مع كثرتهم، وتعاون المستعمرين وتوافقهم مع قلتهم في بلادنا.

ونحن قوم باعهم شعبهم بثمن بخس لعدوهم، وقد أنفقت الحكومة الإنجليزية والحبشية والإيطالية والفرنسية في سبيل ذلك مالاً كثيرًا، وانضمت إليهم بعض القبائل الصومالية التي خضعت لرعوية تلك الدول باختيارها وطوعها، يقودها سلاطينها وزعماؤها، ويحرضها علماؤها على حربنا!!

ونحن قوم لا يخضعون لأعداء دينهم ووطنهم، ولو كثرت جنودهم، وتتابعت هجماتهم، وتنوعت آلاتهم المهلكات، واشتدت وطأتهم علينا، وانضمت إلى صفوفهم أكثرية غير وطنية، وأكثرية من المستخدمين الأجانب؛ لأننا نريد أن نشتري بأموالنا وأنفسنا الجنة من الله تعالى...

ونحن قوم لا نسمح للكفار أن يحتلوا بلادنا أو يحكموها، ولا نتكالب على ذلك مع المستعمرين، لا بعوض ولا بتهديد، ولا نترك قوانين الشريعة وأحكامها، ولا نجعلها خاضعة لقوانين الكفر... ونوجه لومنا إلى العلماء والقضاة الذين يهينون شريعتنا الإسلامية ويجعلونها تحت أقدام الكفرة الفجرة...».

ثم ذكر احتلال الدول الكافرة للصومال ثم قال:

«ثم إن الدول المذكورة بدأت تبذل أموالاً تافهة لزعماء القبائل ورؤساء العشائر لتشتري منهم دينهم ووطنهم وشرفهم وعزهم بتلك الدريهمات، وكأن الزعماء لا يفهمون مرارة الاسترقاق والاستعمار، ولا يدركون ما سيحصل لهم ولشعوبهم من الذل والخزي والهوان.

ولا يفهم هؤلاء الأغبياء أن المرتبات والمشاهرات -أي: الرواتب الشهرية- مثلها كمثل ما يعطى للطير والحيتان لاصطيادها.

ومن جهة أخرى فتح المبشرون مدارس في البلاد ليغيروا من دين الشعب...

ونشأ أيضًا في المدن التي تحتلها تلك الدول الأربع عادة شرب المسكرات وتناول المخدرات، وفتحت العاهرات أبوابها دون خجل، فلما علمت ورأيت ذلك ثارت في نفسي شدة الغيرة الإسلامية، واشتعلت في قلبي الجذوة الوطنية، والتهبت روحي غضبًا وكادت تخرج من الهيكل الجسماني، فبدأت أخطب في المساجد والمحافل، وألقي بين الأمة خطبًا حماسية دينية.

ولا أزال أحذر الشعب وأناديه، لكن لا حياة لمن أنادي ولا حكمة لمن أحذره، وقد قالوا لي لما نبهتهم على تقديم أوطانهم للمبشرين وعن تجنيد رجالهم للعدو: إنك تريد أن تقطع أرزاقنا وتهلكنا بالفقر والجوع!!

إلى آخر ما وصف به حال بعض القبائل في الصومال آنذاك.

والعجيب أنه لما قام يدعو الشعب إلى الجهاد قال بعض من لا علم عنده:

«الجهاد وقته متأخر، وسنجاهد في أوان الجهاد عند خروج المهدي المنتظر، فعندئذ تكون لنا العصى بنادق ومدافع، وستكون آلات الكفار عصياً.

أما إذا جاهدنا الآن وليس معنا آلات حربية فلا يكون لنا إلا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة».

وهذا من الفهم الأعوج وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وهذه رسالة قد بعث بها الإمام المجاهد إلى السلطان عثمان محمود سلطان ميجرتين، تبين وعيه وفهمه وحسن تصوره للجهاد إذ قال بعد البسملة والحمدلة والصلاة على النبي ﷺ:

«إنّي أبعُث لكم كتابين تباعًا تنفيذًا لقول الصادق المصدوق ﷺ: «**الدين النصيحة**»، وبينت فيهما ما يفترضه الواجب الديني لمعالجة المطامع المسلطة على بلادكم من دولة إيطاليا الكافرة، الظالمة القاسية، ووضحت لعظمتكم أن الله تعهد بنصر المؤمنين، وتكفل بألا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً إذا قاموا بتأييد دينهم والسير على سنن قرآنهم فإنه قال: ﴿**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال في سورة الأنفال: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ [الأنفال: ٦٠].

وعلى هذه السنن نهج السنوسي مع إيطاليا في طرابلس الغرب، فإنه هزمها وقهرها وغنم ما لا يحصى من الذخائر والعتاد الحربي، ولم يتركه هملاً بل صار يقاتلهم به بعد أن استعد لكل ما يلزم.

وعلى هذه القاعدة أيضًا سلك سلطان الريف في المغرب الأقصى، فإنه غضب لله وخرج منفردًا يقاتل في سبيل الله، وما زال يسير في وادي الإخلاص بحزم وحكمة وثبات، حتى صار يقود اليوم مائتي ألف مقاتل مزودين بالبنادق والمدافع الضخمة والرشاشات السريعة التي غنمها منهم، وصار يستعملها ضدهم حتى أرهب دولتي فرنسا وإسبانيا ودك قواتهما العظيمة وكاد يسحقهما سحقًا.

وكذلك مثل سلطان باشا الأطرش في الديار الشامية مع دولة فرنسا.

وعلى هذه الخطة يسير الحاكم المسلم الحكيم، وكل من ولاه الله حاكمًا على طائفة من المسلمين، واجب عليه أن يتزود ويستعد بما يرفع عن أمته الويل، وإذا لم يفعل فإنه يكون عاصيًا ومسؤولاً يوم الفزع الأكبر أمام رب العزة...». ثم حثه على جمع الرجال للجهاد.

وهكذا دعا جمعًا من رؤساء القبائل والعلماء والشيوخ للجهاد ضد المحتل الغاصب، واعتمد في جهاده على عوامل عدة منها:

١- تنظيم الجيش وتدريبه.

٢- جعل الصفوة الممتازة من أبناء القبائل طلائع لجيشه.

٣- الاعتماد على التجار العرب في تهريب السلاح من ميناء بربرة وزيلع إلى معسكراته.

٤- الاستفادة من ذخائر الجيش المصري التي كانت في المخازن في هرر وتهريبها إلى داخل الصومال.

٥- بناء مخازن في الجبال للأسلحة لا يعرفها إلا القليل.

٦- بناء الحصون في أماكن مهمة خاصة داخل الأوجادين.

٧- حفر عدد من الآبار على طول الجبهة الإيطالية والحدود البريطانية إلخ... فلما استعد هذا الاستعداد أعلن الجهاد في سبيل الله ضد المحتلين من الإنجليز ومن يعاونهم من المسلمين.

أرسلت بريطانيا حملة بقيادة الكولونيل (سواين)، وجهز الأحباش جيشًا قوامه خمسة عشر ألف مقاتل تحت قيادة جابري، وكلفت الحكومة البريطانية (همفرى تراس) التابع لفرقة فرسان الحرس الملكي بالتنسيق بين قوات الطرفين، وكانت مهمة الأحباش قطع الإمدادات عن المجاهدين من شعب الأوجادين وغيره، وكُلفت إيطاليا -التي كانت قد استقرت في بعض أجزاء القرن الإفريقي- بالضغط على سلطان ميجرتين المسلم!! لمنع وصول أي مساعدات للإمام، ولمنعه من الهرب إلى الساحل، لكن الإمام عرف كل هذا وقام بتوزيع قواته ناحية الشرق، واستقر في منطقة بوهوتلي على حدود المحمية البريطانية في أوائل يناير سنة ١٩٠٠م/ ١٣١٧هـ، وحارب المجاهدون ثلاثة أشهر، وأظهروا بطولات عظيمة، وأجبروا البريطانيين وغيرهم على التراجع، واكتفت بريطانيا بوضع قوات في برعو، واحتل الإمام بعض المواقع.

أرسلت بريطانيا حملة ثانية بقيادة الكولونيل (سواين) الذي تحرك في ١٧/ ٢/ ١٣٢٠هـ/ ٢٦ مايو سنة ١٩٠٢ ومعه قوة احتياطية من الكتائب الملكية الإفريقية بقيادة الكابتن (أسبورن) مع ٥٠٠ فارس من الصوماليين بقيادة موسى فارح من منطقة هود، ويا للعار من انعدام الولاء والبراء عند هؤلاء، وتمركزت قوات المجاهدين في إقليم بارن وكانوا حوالي ثلاثة آلاف مقاتل، وانتهت المعركة بمقتل مائة جندي بريطاني ولله الحمد والمنة، وغنم المجاهدون غنائم جيدة.

استعانت بريطانيا بإيطاليا، وبالحبشة، فوافق الإمبراطور منليك وأرسل خمسة آلاف مقاتل، تحت قيادة حبشية بريطانية مشتركة، وكان قائد البريطانيين (مانج)، وابتدأت الاشتباكات بين الطرفين في ٢٥/ ١٢/ ١٣٢٠- ١٥ مارس ١٩٠٣، وهزم الله البريطانيين الذين قتل منهم ٢٩ جنديًا، ومن حلفائهم ١٨٧، وجُرح ٢٩ جنديًا، وقد استمرت المعركة من السادسة صباحًا حتى الرابعة مساء أجبر بعدها البريطانيون وحلفاؤهم على الانسحاب، وقد قتل من جيش الإمام عدد كبير لا يُدرى كم هو، وأخفقت الحملة الثالثة.

وعلى أثر هذه الانتصارات ارتفعت معنويات المجاهدين، وقويت عزائمهم، وكثر عددهم، والتفوا حول قائدهم الإمام محمد بن عبد الله حسن، فقررت الحكومة البريطانية إرسال حملة رابعة بقيادة الجنرال (إيجرتون) الذي أبحر من بومباي في ٢٧

يونيو سنة ١٩٠٣/ ١٣٢١هـ، ووضع خطة محكمة للقضاء على الإمام أو أسره، وطالبت الحكومة البريطانية إمبراطور الحبشة بالمشاركة في الحملة، ودفعت له خمسة عشر ألف جنيه إسترليني ليتمكن من نقل قواته في تلك المناطق الوعرة، وهُزم الإمام، واستشهد من قواته ألف مجاهد، لكنه لم يُؤسر.

وبعد المعركة اقترحت الحكومة البريطانية على الإمام أن تتنازل له عن أجزاء من المحمية البريطانية والإيطالية، وأن تعترف به كرئيس إقليمي مستقل، وذلك مقابل بعض الامتيازات، وأن يودع مبلغًا من المال لدى الحكومة الإيطالية كضمان لحسن سيرته وسلوكه، وتسليم أحد أبنائه رهينة، ونزع سلاح أتباعه، فرفض الإمام، وحُقّ له أن يرفض؛ فالخديعة ظاهرة في هذا العرض الصليبي.

وكانت بريطانيا قد عقدت معاهدة قبل ذلك مع إيطاليا تعترف فيها بريطانيا بالصومال الإيطالي، مقابل اعتراف إيطاليا بالصومال البريطاني، وسيطرة بريطانيا على جوبا وكينيا.

وطلبت بريطانيا من فرنسا أن تغلق موانئ وطرق مستعمراتها «مستخرباتها» في إفريقيا في وجه الإمام حتى لا تأتيه الأسلحة منها.

طلب الإمام من سلطان ميجرتين تقديم المساعدة له لنقل قواته وماشيته عبر أرضه، فكاد يوافق، لكن الإنجليز أنذروه بأنهم سيحتلون بلاده لو صنع، فرفض طلب الإمام، الذي اتجه إلى الساحل بقواته في منطقة أليج حيث يمكنه الحصول على السلاح من شبه الجزيرة العربية، لكن الإنجليز لم يتركوه فهاجموا قلعته التي سقطت تحت قوة نيرانهم، وتنسيقهم مع الإيطاليين، وتكبد الإنجليز قتل ثمانية ضباط وعشرين من الجند الوطنيين الخونة وسبعة عشر صوماليًا غير نظامي، أما خسائر الإمام فقد بلغت ألفي شهيد!! وأسر منهم ٣٠٤، واستولى البريطانيون على ٤٧٣ مسدسًا وبندقيتين، وأعيرة نارية، ومائتين وثلاثة وعشرين حصانًا، و٣٦٤١٥ رأسًا من الماشية، وهي خسائر هائلة، لكن الإنجليز خسروا خمسة ملايين جنيه في هذه الحملة وهو مبلغ هائل جدًا آنذاك، وبعض المؤرخين يرى أن خسائر الإمام البشرية قد بولغ في تقديرها فهي أقل من ذلك، والله أعلم.

بعد هذه المعركة جنح الإمام للموادعة حتى يسترد أنفاسه ويعوض خسائره، وقبل وساطة الإيطاليين لعقد صلح مع البريطانيين والأحباش في اتفاق (ستالوزا) سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م، ويبدو أن إيطاليا خافت على مستعمراتها أن ينتفض فيها الصوماليون فسارعت للوساطة بين الإمام وأعدائه، وكان من بنود الصلح ما يلي:

١- عدم تدخل الإمام في شؤون القبائل الصومالية التي تحت حكم بريطانيا.

٢- ألا يشتري جنوده السلاح، وألا يقوي الإمام الجيش.

٣- تحديد أماكن المجاهدين في نطاق إقليم واحد معين بين رأس جاراد ورأس جابي، وهي من مناطق النفوذ الإيطالي، وفي نوجال، وبين سلطنتي هوبيا وميجرتين.

٤- رفع الحصار عن الإمام، وتمكينه من شراء ما يحتاجه إلا السلاح، وألا يتجر بالرقيق.

٥- الحرية الدينية للإمام وأتباعه.

٦- أن يحكم الإمام أتباعه بنفسه.

٧- إبلاغ المجاهدين الحكومة الإيطالية بكل ما يمكن أن يعرض أمنهم للخطر.

٨- عقد معاهدة صلح بين الإمام وبين القوى الصليبية الثلاث: الحبشة وإيطاليا وإنجلترا.

استفاد الإمام من مدة الصلح هذه التي استمرت إلى سنة ١٣٢٦/ ١٩٠٨، واستطاع أن يجذب إليه بعض القبائل والعشائر، وكانت بريطانيا تحاول أن توغر صدر القبائل على الإمام حتى يوقعوا بينه وبينها، واتصلت بالدولة العثمانية عن طريق قنصلها هنالك محاولة أن تقنعها بالاتصال بالمشايخ في مكة، حتى يصدروا فتوى تنكر فيها زعامة الإمام على قبائل الصومال، لكنهم أخفقوا.

وهنا لجأ الإنجليز والإيطاليون إلى حيلة ماكرة، حيث استغلوا طرد الإمام للحاج عبد الله شجاري -أخلص أتباعه، ورفيق الجهاد، وممثله في المفاوضات- من حركته،

فنظم القنصل الإيطالي رحلة لوفد فيه مشايخ كبار وأوكلوا رئاسته للحاج عبد الله شجاري، وذهب الوفد إلى مكة في يوليو سنة ١٩٠٨/ ١٣٢٦هـ، واشتكى إلى شيخ الطريقة الصالحية الصوفية التي يتبعها الإمام وأتباعه، وكذلك ذهب وفد من زعماء قبائل الصومال إلى مكة للغرض نفسه، وكانت حجة الوفدين أن الإمام قام بأعمال منافية لنهج الطريقة الصالحية!! واتهموه باتهامات لا تقبل عقلاً مثل شرب الخمر، والمجون، والعبث بالنساء، وحب سفك الدماء!! فأرسل شيخ الطريقة الصالحية في الحجاز محمد صالح خطابًا إلى الإمام، وانتهز الإنجليز الفرصة فقاموا بطبع الخطاب وتوزيعه على نطاق واسع بين الصوماليين، فأثر ذلك في أتباع الإمام وزُعزعت ثقتهم فيه، فما كان من الإمام إلا أن ألف رسالة بعنوان «**قمع المعاندين**»، وأرسل صورة منها إلى شيخ الطريقة الصالحية في مكة وإلى السلطان العثماني، لكن حدث انقسام بين قادة المجاهدين، واشتدت العداوة بينهم جراء ذلك كله، وعقد بعضهم اجتماعًا قرروا فيه عزل الإمام، أو قتله، وانتخاب خليفة له لمواصلة الجهاد، أو إنهاء الجهاد وحَلّ الحركة، لكن الإمام قبض على قادة هؤلاء وأعدمهم.

وهنا قررت بريطانيا استغلال الفرصة وعقد صلح جديد مع الإمام عارضة عليه خمسين ألف جنيه إسترليني شهريًا إذا حسن سيره وسلوكه، لكن الإمام اشترط تسليم عدوه الحاج عبد الله شجاري، ودفع بعض التعويضات، والقبض على الصوماليين الذين أثاروا المشكلات الآنفة الذكر، ففشلت المفاوضات، وقررت بريطانيا إخلاء الداخل، وتسليمه إلى القبائل، وتسلحيها، والاستقرار في الساحل فقط في المدن: بربرة وزيلع وبلهار، فلما حدث هذا انقضت قوات الإمام على أعوان البريطانيين من الصوماليين ففتكوا بهم، وعمت الفوضى، وبدأت الحرب الأهلية، وتدمرت طرق القوافل، وانقطعت سبل التجارة.

وانتقل الإمام من مناطق الإيطاليين التي فُرضت عليه في معاهد ١٣٢٣هـ ١٩٠٥ إلى مناطق النفوذ البريطاني التي ارتحل عنها البريطانيون، وبنى عددًا من الحصون والقلاع أهمها حصن تاليح الذي ظل مقرآً له إلى سنة ١٢٣٨هـ/ ١٩٢٠م، واحتل جنوده المعسكرات البريطانية في الصومال، وبسبب ما جرى من الفوضى قررت

بريطانيا إعادة النظر في قرارها، وكونت قوة للشرطة تحفظ بها الأمن في البلاد، وأرسلت إيطاليا قوة احتلت مقديشو حتى تحاصر الإمام من الجنوب، وأصدرت أوامرها لسلطان ميجيرتين الصومالي بمهاجمة الإمام!! لكن الإمام انتصر على القوة المشتركة، وكان ذلك في ١٩/ ٨/ ١٣٢٩هـ ١٥ أغسطس سنة ١٩١١، وهذا كله يوضح أن الإمام ما زال في يده مفاتيح القوة في الصومال.

وبعد ذلك كتب الجنرال (ريتشارد كورنفيلد) القائد العام للقوات البريطانية المسلحة في محمية الصومال لاند البريطانية «شمال الصومال» رسالة إلى الإمام المجاهد كلها تهديد ووعيد، وفيها:

«لقد نصحناك وأنذرناك من سوء العاقبة، ولم تقبل نصيحتنا، ولهذا فقد تكون عرضة لهجوم حكومة أكبر منك قوة، وسننسفك نسفًا أنت ومن معك إذا لم ترجع عن غيك وتخمد ثورتك الجنونية، واعلم أن دولة صاحبة الجلالة عظيمة جداً ولا يستطيع مجنون مثلك أن ينال منها شيئًا، فارجع عما أنت فيه، وعد إلى صوابك قبل أن تقع عليك المصيبة، وتندم على أعمالك السيئة، والموت ينتظرك متى أصررت على عنادك».

فأجابه الإمام إجابة تقطر عزة وشرفًا وجلالة:

«من السيد محمد عبد الله حسن قائد قوات الدراويش الإسلامية إلى الجنرال (ريتشارد كورنفيلد) قائد قوات الشيطان!!.

قد اطلعت على رسالتك، وفهمت منها جميع أغراضك الدنيئة وأغراض حكومتك الوضيعة، واعلم أن قواتك التي تفاخرون بها لا تساوي لديَّ شيئًا، وأعلمك أيضًا أنكم إذا كنتم تحاربون بقواتكم الهائلة فإنني أقاتلكم بنيتي الوطنية، وإيماني القويّ، وعزيمتي المتينة التي لا تعرف الملل، مهما تكن الظروف فلن أستسلم، ولن أكون للشرك عبداً».

الله أكبر.

وفي ٦/ ٩/ ١٣٣١/ ٩ أغسطس سنة ١٩١٣ حدثت معركة ضخمة بين الإمام والإنجليز بقيادة (ريتشارد كورفيلد) في دلما دوبي، وكانت القوات البريطانية مدعمة بقوات من الهند وعدن والصومال وزنجبار وكينيا، وانتهت بهزيمة الإنجليز ومقتل (كورفيلد)، ونشرت الصحف البريطانية خبر المعركة بعنوان: «كارثة مروعة لقواتنا في الصومال» وأنشأ الإمام قصيدة بعنوان: مصرع (ريتشارد كورفيلد)، وأعلنت وزارة المستعمرات البريطانية الحداد على الجنود والضباط القتلى والأسرى وقائدهم الجنرال المقتول، وتراجعت القوات الإنجليزية مذعورة إلى الساحل، وحصل المجاهدون على غنائم كثيرة، وانتشرت الأخبار في كل أنحاء الصومال، وانضم إلى المجاهدين عدد كبير ممن كان تحت حماية البريطانيين، وخاف الإيطاليون من المجاهدين الذين استولوا على برعو، وبربرة، وأرسلت بريطانيا قوة نجحت في إيقاف المجاهدين، لكن وقعت الحرب العالمية الأولى وانشغلت إنجلترا بها.

وفي المحرم سنة ١٣٣١هـ/ ديسمبر ١٩١٣ تولى على الحبشة الإمبراطور ليج ياسو الذي أسلم، وأرسل إلى الإمام مساعدات مالية وأسلحة، وأرسل له أحد الفنيين الألمان إلى حصن تاليح لإصلاح الأسلحة الأوربية.

واتصل الإمام بالأتراك في عدن عام ١٣٣٥/ ١٩١٦ وطلب حمايتهم، وأعلن الخضوع للخلافة ولسلطنة السلطان محمد رشاد الخامس، لكن الدولة العثمانية كانت -آنذاك- أضعف من أن تنصره.

واجتمع بالألمان.

وفي ذلك الوقت أبعد الإمبراطور ليج ياسو عن الحكم، وراسل الإنجليز الإمام طالبين الصلح، فرفض بإباء عرضهم، وكان قد اجتمع بالقائد العام للقوات البريطانية ونائب الملكة في الهند وأغروه بأن يكون ملكًا على الصومال، فرفض كل تلك العروض مبينًا أنه لم يكن يومًا يريد الملك، وأن هدفه هو تطهير بلاده من الاحتلال، ولا يبالي بعد ذلك عاش أم مات.

وواصل احتلال المواقع الحصينة منتهزاً فرصة انشغال الإنجليز بالحرب العالمية الأولى ضد الألمان والأتراك، ولكن بريطانيا لم يقر لها قرار، وعُقدت اجتماعات في لندن وروما والحبشة لمحاصرة الجهاد الصومالي الذي وجد طريقه إلى قلوب الصوماليين، وخشيت بريطانيا من تأثر مستخرباتها الأخرى.

وفي نهايات الحرب العالمية الأولى، وبعد أن مالت النتائج لصالح الإنجليز وحلفائهم، أرسل الإنجليز حملة حربية من الهند؛ للحفاظ على موانئ الصومال، واسترداد ما فقدوه من مدن، ووقعت معركة انهزم فيها جند الإمام وتراجعوا إلى الداخل.

وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى قرر البريطانيون إنهاء المعركة مع الإمام، وأرسلوا الجنرال (هوسكنز) إلى بربرة لتقدير الموقف العسكري، ومن ثَمّ قرر البريطانيون إرسال حملة من الجو -لأول مرة- والبر والبحر، ونسقوا مع الإيطاليين وزعماء القبائل الصومالية الموالية لها، وفي ٢٩/ ٤/ ١٣٣٨هـ/ ٢١ يناير ١٩٢٠ ابتدأت القوات الجوية بضرب مواقع الإمام في ميديشي، واستمر القصف ثلاثة أيام جوّاً وبرّاً، ومات عدد كبير من المجاهدين، وانسحب الإمام إلى حصن تاليح، فأرسلت بريطانيا ثلاث طائرات حلقت على ارتفاع منخفض، وأحرقت كل مواقع المجاهدين، وأسرت بعض زوجات وبنات الإمام وبعض قادته، واستطاع الإمام الفرار إلى منطقة باخيري، ومن ثَمّ استقر في منطقة هى، وانضم إليه من بقي من رجاله المخلصين حتى بلغوا ألفًا ومعهم بعض الأسلحة، وهنا أرسل إليه الحاكم (آرثر) طالبًا منه الاستسلام، فرفض، ثم جرت جولات بينهما لم تسفر عن شيء.

ولما اشتد الحصار على الإمام انتقل إلى الأوجادين في الحبشة نازحًا من الصومال البريطاني طالبًا الحماية، لكن الأحباش قبضوا على رجاله، ومات الإمام في ١١/ ٣/ ١٣٢٩هـ/ ٢٣ نوفمبر ١٩٢٠ متأثراً بمرض حَلّ به، ودفن في إيمي، وحاول الإنجليز أن يحصلوا على رأسه ليرسلوه إلى بريطانيا -كما فعلوا بالمهدي في السودان- لكن أتباع الإمام أبقوا مكان قبره سراً.

وهكذا انتهت قصة هذا الجهاد الرائع الطويل الممتد لأكثر من عشرين سنة حاكيًا بطولة الإمام وأتباعه، وأن المسلم إن تعلق بالجهاد فإن أقوى القوى على ظهر الأرض ستقف عاجزة أمامه.

عوامل هزيمة الإمام:

هناك عدة عوامل تضافرت لهزيمة هذا البطل منها:

١- العلة الدائمة في إفريقيا السوداء آنذاك وهي ضعف عقيدة الولاء والبراء عند كثير من المسلمين، التي أدت إلى تعاون بعض زعماء المسلمين مع الكفار ضد المجاهدين، وهذه بلية كبيرة، وتمثل هذا في حالة الصومال بوقوف زعماء هرر وهوبيا وميجرتين ضد الإمام، وبعض زعماء القبائل، وقد وشوا به عند البريطانيين ونصحوهم باعتقاله!! وقد تألبت كثير من القبائل عليه حتى اجتمع مرة ضده خمسون ألفًا منهم!!

٢- قصَر نظر بعض قادة المجاهدين الذين استجابوا لمكيدة الصليبيين، وفتتوا صف الجهاد بقبولهم الذهاب إلى مكة، واستصدار ما يضعف موقف الإمام أمام الصليبيين، وكان ذلك بسبب الأحقاد وسوء النظر.

٣- القوة الحربية الهائلة لدى الإنجليز، خاصة سلاح الطيران الذي حسم المعركة في النهاية، وتحالف الإنجليز مع الإيطاليين والأحباش ضده.

٤- استخدام الإمام العنف في بعض الأحيان ضد بعض زعماء القبائل؛ مما أثار حفيظتهم، وجنح بهم إلى أعدائه، وكان لقلة الوعي في القبائل أثر كبير في معاداة الإمام.

٥- افتقاد الإمام الدعم من كل المسلمين خارج الصومال الذين كانوا مشغولين بأنفسهم وأحوالهم، فلم ينجدوه، ولم يلتفتوا إليه.

٦- وجود الجواسيس والخونة في صفوف الصوماليين، وكانوا يدلون الإنجليز على عورات جيش الإمام. وقد دعا الإمام الصوماليين إلى قتلهم، وما أشبه صنيعهم هذا بصنيع العملاء والجواسيس والخونة اليوم في فلسطين، والعراق، وأفغانستان.

٧- كان الإمام يتبع الطريقة الصالحية الصوفية التي تلقاها في مكة، بينما كان أغلب مشايخ الصومال يتبعون الطريقة القادرية، وهذا أدى إلى مناوئة المشايخ له وإضعاف قوته، ولو اجتمعوا عليه لحصل خير كثير، لكن ما العمل وهذه علة يعاني منها المسلمون في كل زمان ومكان.

ومع كل تلك العوامل فقد كان لجهاد الإمام محمد بن عبد الله حسن أثر جليل، وتجلى فيه التالي:

١- قوة هذا الإمام وشجاعته وإباؤه، فقد تمالأت عليه قوى الإنجليز والإيطاليين والأحباش، وطلبوا منه الصلح مرارًا، وخضعوا عنده، وفشلت خمس حملات حربية وُجهت إليه من أقوى قوة موجودة على ظهر الأرض آنذاك، ورفض الاستسلام لهم حتى قضى نحبه عزيزًا كريمًا.

٢- إن المسلم الذي يعقد العزم على مواجهة الباطل وأهله يُحدث أثرًا عظيمًا في أعدائه، ويحيرهم بصموده وعزته، وينفع الله به، فهذا الإمام جاهد أعداءه عشرين سنة في أحوال لا تسعف، وأوقات الإدبار في العالم الإسلامي لا الإقبال، ومع ذلك انظروا كيف استعصى على أعدائه ودوخهم. ولا أعلم نظيرًا في العصر الحديث إلا ما كان من الأمير الكبير محمد عبد الكريم الخطابي.

٣- إن المسلم الصالح الملتزم بدينه، الواعي لمتطلبات زمانه، ذا العزيمة القوية، هو العُدة الحقيقية لبلاده وقومه، وهو الأمل لهم بعد الله تعالى، أما ضعاف الإيمان والعزيمة والتطلعات فهم بلاء على أقوامهم وبلادهم، وقد ارتقى وعي هذا الإمام في أحوال كثيرة، واستطاع أن يتعامل مع معظم القوى التي كانت حوله آنذاك بحنكة وحسن تدبير، وإن خانه التوفيق ففي أحوال قليلة.

٤- جمع الإمام بين التربية والجهاد والزعامة، أي: بين القوتين السياسية والدينية، وكان هذا أمرًا نادرًا في زمانه، وكان من توفيق الله تعالى له، فقد يتيسر له شيء لم يتيسر لأكثر المصلحين في زمانه وقبله وبعده.

٥- استطاع أن يجمع بين معظم قوى الشعب الصومالي ويوجهها لحرب أعداء

الإسلام، وهذا -وإن كان في مدة قصيرة ولم يَطُل- ولم يحدث في الصومال قبله منذ زمن الإمام أحمد بن إبراهيم الذي ذكرته في البداية.

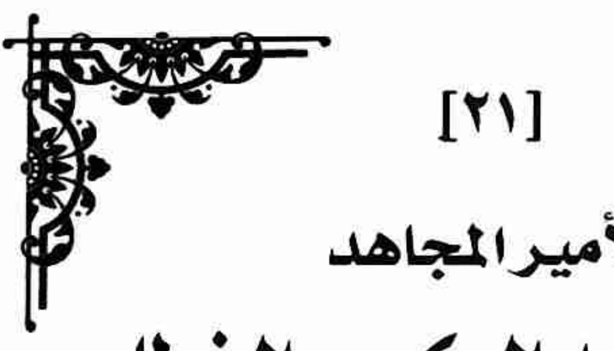
٦- حارب العادات السيئة المتفشية في الصومال، مثل: مضغ القات، والتدخين، وقام بمنع الاختلاط، وفرض الحجاب.

٧- اهتم بالنساء، وأصبح حجابهن وضبطه، وعلمهن فنون القتال حتى كان منهن عدة فارسات.

وفي النهاية أقول:

إن الإمام المجاهد محمد بن عبد الله حسن يصلح أن يكون رمزًا للصوماليين اليوم، يستلهمون منه العزة والقوة والشجاعة والإباء حتى يقفوا أمام أعدائهم المتربصين بهم شراً اليوم، والله الموفق.

●●●



[٢١]

الأمير المجاهد

محمد بن عبد الكريم الخطابي

[١٣٠١ - ١٣٨٢ هـ]

[١٨٨٣ - ١٩٦٢م]



قاضٍ شرعي، ومدرس، وصحفي، ومجاهد، وأمير، ورئيس دولة، نعم هذه الصفات اجتمعت كلها في شخصية فريدة هي شخصية الأمير الكبير عبدالكريم الخطابي رحمه الله تعالى، ولئن سألت الناس عنه في زماننا هذا لما عرفه إلا القليل، وهذه مصيبة كبرى من مصائبنا؛ إذ كم للإسلام من أبطال عميت سيرتهم على أكثر أهل زماننا هذا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولد في بلدة أَجْـدِير في الريف المغربي بين مليْلَة وتطوان سنة ١٣٠١/ ١٨٨٣، ودرس القرآن والعربيةَ، وذهب لإكمال دراسته، إلَى مليلة وجامعة القرويين بفاس، وعاد منها ليعين نائبًا للقاضي في مليلة، ثم قاضيًا، ثم صار أقضى القضاة (قاضي القضاة)، هذا وعمره آنذاك لم يتجاوز الثالثة والثلاثين، وهذا دليل على نبوغ مبكر، وكتب في الصحف، ودرّس في بعض المدارس، وكان أبوه أميرًا على البربر الذين في الريف المغربي، وجاهد مع أبيه في الحرب العالمية الأولى مع الدولة العثمانية وذلك سنة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٥م.

واعتقل الإسبان الذين كانت بأيديهم سبتة ومليلة -وهي إلى الآن بأيديهم، وهذه من المصائب التي لا يعرفها أكثر المسلمين- الخطابي ٤ أشهر ليضغطوا على أبيه حتى يكف عن الجهاد، وذلك أن الإسبان كانوا يريدون أن يتوسعوا ويخرجوا من سبتة ومليلة ليحتلوا باقي مناطق المغرب الأقصى الشمالية، لكنهم لما حققوا مع الابن فاجأهم بألوان من العزة والثبات، وأخبرهم أنه لا مناص له ولا لأبيه إلا أن يقاتلوا مع الدولة العثمانية، فاضطروا لسجنه لكنه تدلى بحبل من السجن ليفر، إلا أن الحبل كان قصيرًا فتأرجح في الهواء فرمى بنفسه، فانكسرت ساقه وأغمى عليه من الألم، فعثر عليه الإسبان فأعادوه إلى السجن حيث مكث أربعة أشهر، ثم أطلقوا سراحه.

قتل والده في معركة مع الإسبان سنة ١٩٢٠، وقيل: مات مسمومًا، فالله أعلم بما كان من ذلك.

وابتدأ الأمير محمد سلسلة المعارك مع الإسبان، وكان معه أخوه الذي نفي معه فيما بعد، وعمه عبدالسلام، فابتدأهم الأمير بمناوشات أسفرت عن انتصاره، وطرد الإسبان من حاميتين مهمتين، بل كانت إحداهما ذات موقع إستراتيجي فريد، فغضب الإسبان وأرسلوا له جيشًا من ستين ألف جندي وطائرات وعتاد ضخم، لكنهم حذروا القائد العام للحملة من قوة الخطابي وبأسه فاستهزأ قائلاً: أنا ذاهب لأمسح حذائي في الريف!! و(إسبانيا) آنذاك ثالث قوة أوربية، وهي وسائر حليفاتها الأوربيات قد انتصرت في الحرب العالمية الأولى مما جعل زهوها وغرورها يعظم ويتضاعف.

ولما اقتربت الحملة من بلدة أنوال بالريف كمن لها الخطابي في قوة من ثلاثة آلاف، فمزق جيش الإسبان تمزيقًا مدهشًا، حيث قتل منهم ما يزيد على ثمانية عشر ألفًا، وأسر الباقي حتى لم يسلم من الجيش سوى ستمائة فقط، وغنم عشرين ألف بندقية، وأربعمائة رشاش، ومليون طلقة، وطائرتين!! وتفرق القتلى على مساحة خمسة أميال.

ونصر الله عبده الخطابي نصرًا عجيبًا في وقت غريب، في زمن لا يتوقع فيه أحد أن ينتصر المسلمون على جيش أوربي مسلح بسلاح حديث، لكن الحماسة الإيمانية الدافقة التي كانت في قلب الخطابي وجيشه، ونَصْر الله تعالى له أولاً وآخرًا قلب كل المعادلات، وأخرس كل الألسنة.

وكان وقع الهزيمة في أوربا مدويًا، واستغل الخطابي الفرصة فطهر الريف المغربي من الإسبان، وحصرهم في سبتة ومليلة فقط، وهذا باق كذلك إلى يوم الناس هذا، وأقام إمارة إسلامية مساحتها ٢٠,٠٠٠ كم٢، وسكانها قرابة نصف مليون!!

وأقام في إمارته أحكام الإسلام، ووطد دعائم الأمن، وأنشأ المدارس والمستشفيات، وأرسل البعثات إلى أوربا، وقلل جداً من حوادث الثأر بين القبائل، حتى إن الرجل كان يلقى قاتل أبيه وأخيه في المعارك مع (إسبانيا) فلا يمسه بسوء؛ وذلك لأن الخطابي عمل مجلس شورى لإدارة الإمارة من ثمانين من رجال القبائل، وأوكل إليه إدارة الأموال الجزيلة التي حصل عليها من فداء أسرى الإسبان، ومن الزكاة الشرعية التي يجمعها من رعيته، وكان يحاول إفهام رؤساء القبائل مؤامرات (إسبانيا)

و(فرنسا)، وأنهما سبب كبير من أسباب تجهيل المغاربة، وهذا حديث يسمعه أولئك للمرة الأولى، فإنهم كانوا مشغولين بالثارات والقتال من أجل سفساف الأمور ودناياها، فتركوا الثأر بهذه الطريقة.

وأرسى الأمير دعائم نظام تجنيد فريد، حيث أوجب على كل الذكور الذين أعمارهم ما بين ١٦-٥٥ أن يتجندوا كل شهر خمسة عشر يومًا، ويعودوا إلى وظائفهم وأهليهم خمسة عشر يومًا، وهكذا دواليك كل شهر، فضمن وجود الجند وضمن أيضًا حسن سير الإمارة واطمئنان الناس على أهليهم وأولادهم.

هذا كله عمله الخطابي في وقت كان المسلمون فيه في غاية من الضعف والهوان ليس بعدها غاية، واستطاع -وهو قاض شرعي- أن يفاجئ الإسبان بطرق عجيبة من القتال، فكان يحفر الخنادق، ويباغتهم في جبال الريف، حتى إن (هوشي منه) الشيوعي المشهور الفيتنامي الذي قاوم (أمريكا) مقاومة ضارية في الثمانينيات الهجرية وأوائل التسعينيات/ الستينيات والسبعينيات الميلادية، كان يقول إنه استفاد من طريقة الخطابي.

وهنا اجتمعت أوربا لتجهض الإمارة الناشئة التي لو بقيت لغيرت مسار التاريخ، وسبب هذا أن الإسبان توجهوا سنة ١٩٢٤/ ١٣٤٣ إلى أَجْدير عاصمة الخطابي في مائة ألف وحاصروه ثلاثة أسابيع، فأظهر الخطابي ومن معه بطولات رائعة جداً ونادرة في وقت عزت فيه البطولة وانعدم النصر أمام الغرب في العصر الحديث، واستطاع الخطابي ومن معه أن يقتلوا من الإسبان أربعة آلاف في أقل الروايات، واضطر الجيش الإسباني للانسحاب ذليلاً إلى مدريد.

وهذه وقائع جرت في العصر الحاضر وهي لا تكاد تصدق؛ لأن كل المعارك التي دخلناها مع الأوربيين آنذاك كنا ننهزم فيها على وجه مهين، فأن ينهزم الإسبان الذين خرجوا ظافرين من الحرب العالمية الأولى على هذا الوجه فإن هذا يستدعي تحركًا من أوربا، فأرسل المارشال المتجبر المتكبر الفرنسي (ليوتي) -الذي كان حاكمًا في الجزائر آنذاك- إلى فرنسا يقول لهم:

«إن انتصار العرب في الريف الإسباني وعلى سواحل البحر المتوسط يعني إنشاء

إمبراطورية عربية إسلامية وفتحًا جديدًا لأوربا من قبل المسلمين، وهذا أمر لا يمكن القبول به».

وبهذا التخويف دخلت (فرنسا) الحرب ضد الخطابي على رغم أنف البرلمان الذي كان معارضًا، فاجتمعت (إسبانيا) و(فرنسا) عليه في جيش عدده زهاء نصف مليون، وحاصر الأسطول البريطاني الخطابي -والأسطول البريطاني كان أعظم أسطول بحري في العالم آنذاك- وكانت الطائرات التي حاربته منتظمة في أربعة وأربعين سربًا!! وصارت تقذفه وجنده بأنواع القنابل وهو صابر محتسب في خندقه، وأوقع بهم في أوقات خسائر جسيمة وصبر صبرًا جميلاً، حتى إن صحفيًا أمريكيًا كان موجودًا آنذاك في ساحة المعارك يتابعها وهو فانسن شين قال:

«دخلت على عبدالكريم في خندق أمامي، والطائرات الإسبانية والفرنسية تقذف المنطقة بحمم هائلة، فوجدته مبتسمًا مرحًا مقبلاً -الله أكبر ما أجمل وأحسن نفوس الصالحين- يضرب ببندقيته الطائرات، فتعجبت من هذا الرجل الذي استطاع أن يحافظ على إيمانه وعقيدته في خضم الظروف المحيطة به، وكنت أتمنى أن أمكث أكثر فأكثر مع هذا الرجل العظيم الذي تحيطه هالة من الوقار والجلال، وأقارن به ساسة أوربا التافهين المشغولين بأمور تافهة فلا أكاد أجد وجهًا للمقارنة، وتمنيت أن أظل أكثر مما ظللت مع هذه الظاهرة البشرية الفريدة التي تأثرت بها أيما تأثر» اهـ.

أرأيتم كيف يؤثر المسلمون الصادقون في الناس عامة وفي أعدائهم خاصة؟!

ويقول (كورتي) عضو مجلس العموم البريطاني:

«إن هذا الرجل الذي ينادي باسمه أهل آسيا وإفريقيا والهند ويتغنون باسمه.. إن هذا الرجل الذي يزعم هؤلاء أنه يقاتل باسم الإسلام، ويعيد إمارة المؤمنين والخلافة الإسلامية، إنه لخطر عظيم على البلاد الأوربية!!».

هكذا كان يؤثر فيهم الخطابي الذي لا يعرفه ولم يسمع باسمه أكثر المسلمين اليوم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكان المسلمون يستقبلون انتصارات الخطابي بدموع الفرح والاستبشار الشديد في الهند وعموم آسيا وإفريقيا، وذلك أنه كان يجاهد أثناء وبعد إلغاء الخلافة العثمانية، فكانوا يأملون عودتها على يديه.

لكن الكثرة الكاثرة تغلب الشجاعة، فجيش عبدالكريم كان عشرين ألفًا فقط، وهؤلاء مئات الآلاف، ومعهم الطائرات وكل الأسلحة التي هزموا بها (ألمانيا) و(إيطاليا) والدولة العثمانية، وخانت بعض الطرق الصوفية الخطابي حيث كانوا يوزعون منشورات تقول إن القتال معه ليس من الجهاد!! وخانه بعض رؤساء القبائل الذين اشتراهم الفرنسيون، وكانوا ينهون شبابهم عن القتال مع الخطابي!! ولم يجد الخطابي الدعم من الدول العربية والإسلامية التي كان حكامها بين عميل ومشغول بمحنة بلاده، حيث كانت أكثر الدول العربية والإسلامية قد سقطت في قبضة الصليبيين أو الشيوعيين أو عملائهما؛ فلم يجد مفراً من التسليم بعد أن بقي في مائتين فقط!! لكن كان التسليم تسليم الأبطال؛ فقد بقي يفاوض للصلح زمانًا طويلاً: من منتصف سنة ١٩٢٥ إلى منتصف سنة ١٩٢٦ تقريبًا/ ١٣٤٥ هجرية، أي: سنة تقريبًا!!

وكان يرفض الاستسلام رفضًا باتّاً ابتداءً، لكنه لما استشار المائتين الذين بقوا معه أشاروا عليه بحقن الدماء، فالطائرات كانت تقذف بالغازات السامة والقنابل وتقتل الرجال والنساء والأطفال، فأشاروا عليه بعقد صلح مشرّف، والبقاء في البلد، والاستعداد للقتال في أقرب فرصة.

وهنا لم يجد بدّاً من إمضاء الصلح، لكن الفرنسيين واصلوا قذف القرى بالطائرات بعد التسليم، فقال لهم عبدالكريم: سيكون من المدهش أن تصيب طائراتكم الرجال في هذه المرة؛ إذ كانت العادة ألا تقتل إلا النساء!! إن حضارتكم حضارة نيران، فأنتم تملكون قنابل كبيرة إذن أنتم متحضرون، أما أنا فليس لديّ سوى رصاصات بنادق وإذن فأنا متوحش!! وكان بهذا يستهزئ بهم، ويقيم الحجة عليهم؛ لأنهم كانوا يتهمونه بالبربرية والتوحش!!

سبحان الله؛ ما أشبه الليلة بالبارحة، فدعاة الإسلام اليوم يُتّهمون بالإرهاب قلبًا للحقائق وتخذيلاً للمسلمين.

أوصى الأمير أتباعه بالاستمساك بالدين، وعدم الركون إلى المستخربين المحتلين، ولما سلم نفسه للفرنسيين -بعد كتاب صلح موثق وعلى أن يبقى في الريف- خانوا عهدهم معه كعادتهم وكعادة كل المستخربين الذين سموا زوراً وبهتاناً بالمستعمرين، فنفوه إلى جزيرة (رينيون) في المحيط الهادي شرق مدغشقر لمدة إحدى وعشرين سنة!!

وكانوا قد منعوا عنه في السنوات العشر الأولى كل وسيلة اتصال بالعالم الخارجي، فحرموه من الجرايد والمجلات ومن كتبه التي أتى بها معه، ثم سمحوا له بعد ذلك بها، فقضى هذه المدة الطويلة في التأمل والذكر والدعاء والصلاة، فسبحان الله كم يُصبّر عباده؛ إذ لو كان غيره لأصابه الجنون أو أمراض نفسية مزمنة لكنه الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب فيصنع حينئذٍ ما يشبه المعجزات.

الفرج بعد الشدة:

ثم بدا لدولة الطغيان الفرنسية أن تعيده إلى (فرنسا)، فأتت به سفينة من الجزيرة ومرت بعدن للتزود، فتسامع الصالحون من اليمنيين والعراقيين والفلسطينيين في عدن بمرور سفينة الخطابي، فأبرقوا لمصر وطلبوا من المكتب المغربي فيها أن يحتالوا لإنزال الخطابي من السفينة، وكانت سفينة تجارية، فدبر الأستاذ عبدالرحمن عزام الأمر -وهو أول رئيس للجامعة العربية، ومن العاملين، نحسبه كذلك والله حسيبه- دبر الأمر مع الملك فاروق وكان ذلك سنة ١٩٤٧، وصعد برجال إلى السفينة وطلبوا من قائدها أن ينزل الخطابي لمقابلة الملك والسلام عليه، هو وأخوه وعمه عبدالسلام، فمشت الحيلة على القبطان، وسمح بنزول الخطابي، فأبقته مصر عندها، وهنا قامت قيامة (فرنسا) وثارت لكن بعد فوات الأوان، ومن الطريف أن (فرنسا) اتهمت مصر بالخيانة والغدر، سبحان الله فهم أهل الخيانة والغدر الذين نكثوا عهدهم مع الخطابي ونفوه إحدى وعشرين سنة.

واتصل الخطابي بدعاة مصر وفضلائها وكبارها وعلى رأسهم الأستاذ الإمام حسن البنا رحمه الله، وأعجب به وبدعوته، ولما وصله خبر اغتياله بكى وقال: «يا ويح مصر والمصريين مما سيأتيهم من قتل البنا، قتلوا ولياً من أولياء الله، وإن لم يكن البنا ولياً فليس لله ولي!!».

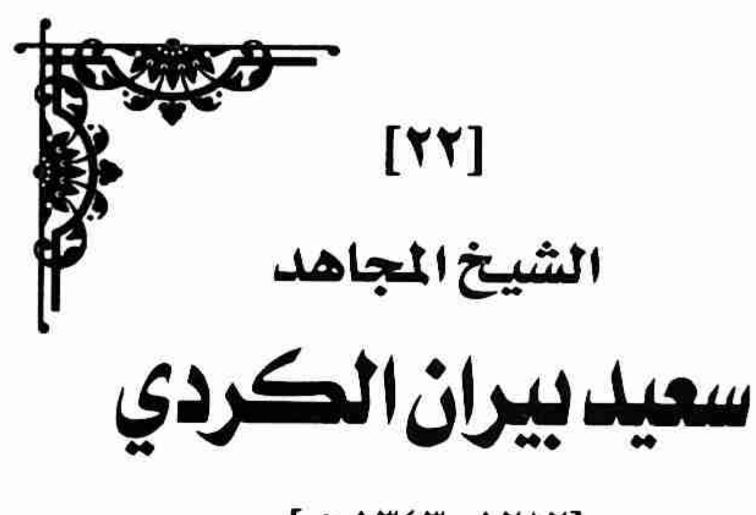
واتصل بمكتب المغرب العربي في القاهرة حيث عينوه رئيسًا له، وأخوه كان نائبًا له، وعمل مع أعضائه لتخليص بلادهم من الاستخراب الأجنبي البغيض، وهكذا الداعية لا يفتر ولا يقعد، فبعد إحدى وعشرين سنة من النفي والعزل عاد الأسد إلى عرينه، واتقدت الشعلة التي أطفأها الطغيان، واتصل بالمغاربة، وبالحاج أمين الحسيني، وجمعية الشبان المسلمين، وجماعة الإخوان المسلمين.

ثم لما جاء الطاغية الهالك جمال عبدالناصر في انقلاب يوليو المشؤوم سنة ١٩٥٢ بمصر فترت العلاقة بين الخطابي والثائرين، وكيف يلتقيان وهؤلاء منهجهم الارتزاق من موائد الشيوعية والرأسمالية، وطريقهم هو القهر والاستبداد، وعملهم هو إفساد البلاد والعباد، وهذا طريقه الجهاد في سبيل الله، ومنهجه الإسلام، وعمله دعوة في سبيل الله؟ فكانت النتيجة أن أهمله المسؤولون المصريون وضيقوا عليه الخناق فمات يوم مات سنة ١٣٨٢/ ١٩٦٢ ولم تذكره وسائل الإعلام بكلمة، ولم يؤبّن التأبين اللائق به.

لكن هكذا كل عظيم من الرجال يموت في هذا الزمان، فقلما ينال ما يستحقه من إبراز لعمله، وإظهار لمآثره، وبيان لجهاده ودعوته، لكن لا يضره أن العبيد أهملوه وملائكة السماء -إن شاء الله- استقبلوه، ولا يؤثر فيه إخمال سيرته إذا كانت مكتوبة في الملأ الأعلى بحروف من نور بإذن العزيز الغفور.

ونحن لن نيأس أبدًا إن شاء الله تعالى، ففي الإسلام عشرات الآلاف من الأبطال من أمثال الخطابي، وسيكون للإسلام دولة بإذنه تعالى على أيدي هؤلاء الأبطال.

●●●



[٢٢]

الشيخ المجاهد

سعيد بيران الكردي

[١٢٨٢ - ١٣٤٣ هـ]

[١٨٦٥ - ١٩٢٥م]

عندما أسس مصطفى كمال جمهورية تركيا الحديثة أقامها على بتِّ الصلة بالإسلام، وقطع صلاتها بالمسلمين، وأرغم الأتراك على التفرنج في الهيئة والسلوك، وشجع النزعات الإلحادية، وقمع الصوت الإسلامي تمامًا، وكلح وجه تركيا، وكان العلماء آنذاك يدورون بين خيارات: إما السكوت على مضض والانحناء أمام تلك العاصفة الهوجاء، وإما المهادنة والرضا، وإما الاعتراض، وإما الثورة والعصيان، وقد واجه مصطفى كمال اعتراضات العلماء بوحشية وصفاقة، فأعدم منهم عددًا كبيرًا، وسجن آخرين، أما العلماء الذين عصوا وثاروا -وكانوا قلة نادرة- فقد واجههم الجيش التركي الجرار الذي لم يبقِ ولم يذر، وقضى على ثورتهم بسرعة، ومن هؤلاء الشيخ سعيد بيران.

وهو سعيد بن محمود بن علي البالوي، نسبة إلى بالو وهي منطقة من المناطق الكردية، وكان جده علي قد استقر فيها ونُسب إليها، ولد الشيخ سعيد في بالو هذه سنة ١٨٦٥ في قرية بيران، وتعلم على يد والده، فحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة، ثم درس الفقه، وكان والده زعيمًا دينيًا يلتف حوله الناس، وكان نقشبنديًا، فلما مات ورثه ولده سعيد هذا في الزعامة الدينية، والتف حوله الأكراد وبعض الأتراك، ومن المعلوم أن الطريقة النقشبندية تقل فيها البدع وكثير من زعمائها مجاهدون لهم أياد بيضاء في الجهاد، وكان منهم الإمام شامل في داغستان والشيشان.

وكان عدد من اجتمع حول الشيخ سعيد قرابة اثني عشر ألفًا، وهو عدد ضخم يغري بعمل شيء لوقف الإلحاد، ولا يُنسى في هذا المقام حديث رسول الله ﷺ: «**لن يغلب اثنا عشر ألفًا من قلة**».

بذل الشيخ سعيد جهودًا كبيرة في نشر العلم في مناطق الكرد، وكان مجلسه يضم العلماء والعبّاد والرجال الأشداء الذين يرغبون في الجهاد، وكان لا يقبل من أحد أن يقبل يده أو ينحني له كما كان الناس يفعلون بالمشايخ آنذاك.

وكان للشيخ جولات استقطب فيها بعض العائلات الكردية، وشارك في جمعية (آزادي) وهي جمعية كردية جعلت من أهدافها نيل الأكراد حقوقهم، وكان من المنتظر

أن تقوم جمعية كهذه في خضم الصيحات المجنونة التي كان يطلقها الطورانيون الأتراك، والأعمال ذات الصبغة القومية التي كانوا يقومون بها، ونحن نعلم أنه لا ينبغي -في ظل الإسلام الوارف- أن تقوم جمعية للكرد وأخرى للترك وثالثة للعرب، فهذا الصنيع قاصم للوحدة الإسلامية وقاصم لظهر الإسلام القوي.

وقد همّ الشيخ رحمه الله تعالى أن يؤسس جامعة إسلامية في منطقة (وان) الكردية تكون على غرار جامعة الأزهر في القاهرة، لكن بعض المشايخ الأكراد وقفوا ضد هذا المشروع فلم يكتب له الظهور.

وكانت للشيخ صلات مع بعض المثقفين الأكراد في إستانبول عن طريق ابنه علي رضا والشيخ عبدالقادر أفندي نجل الشيخ عبيد الله النهري، لكن لا ندري ما الذي استفاده من صلاته هذه، فإن المعلومات عن الشيخ سعيد بقيت شذرات قليلة ليس فيها تفصيلات.

موجز تاريخي لمناطق الأكراد آنذاك:

في سنوات الحرب العالمية الأولى احتل الروس كثيراً من مناطق الأكراد، وتركوا الأرمن يعيثون في بعضها فساداً، وفي سنة ١٩١٧ انتصرت الثورة البلشفية في موسكو، وانسحبت القوات الروسية من مناطق الأكراد وسلمتها إلى الميليشيات الأرمنية، وكان القائد خالد جبري آنذاك هو الشخص المحبوب المطاع لدى الأكراد، وكان قائداً لإحدى الفرق العسكرية للجيش العثماني، وكان حميدياً مؤيداً للسلطان عبدالحميد، وداعيًا للخلافة العثمانية، فدعا إلى قتال الأرمن وإخراجهم من المنطقة الكردية، وفعلاً استطاع خالد جبري ومن معه أن يخرجوا الأرمن، وفي سنة ١٩٢٠ حرروا أرض الكرد وطهروها من الأرمن تماماً.

ولما عُقدت معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ نصّت على بقاء ديار الكرد في الجمهورية التركية، وهذا لم يعجب خالد جبري فخطط للثورة هو ومجموعة من القواد في ديار بكر، لكن هذا الأمر انكشف وأعدم خالد جبري ونائبه في التنظيم السري قبل أن تنطلق الثورة.

وفي شهر فبراير من سنة ١٩٢٥ اجتمع أعضاء التنظيم من تركيا والعراق وسوريا في حلب وقرروا انتخاب الشيخ سعيد قائدًا عامًا للثورة خلفًا لخالد جبري، ورئيسًا لجمعية آزادي، وعين المؤتمرون الجبهات الثورية وقياداتها على النحو التالي:

- جبهة بالو بقيادة الشيخ شريف، ومعه ١٨ ألف مقاتل.

- وجبهة فارتو بقيادة الضابط عبدالله ملكان، وعلي رضا نجل الشيخ سعيد، والعقيد خليل حتو، ومعهم ١٢ ألف مقاتل.

وعلى هذا المنوال عينت جبهات القتال الأخرى في ديار بكر، وباخر، ومادن، وبوتان، وساسون إلى آخره ...

وقد حدث خطأ عقب هذا التوزيع نشأت بسببه الثورة مبكرًا، أي أن الأكراد ثاروا قبل اكتمال استعدادهم، وسبب هذا أن الشيخ سعيدًا قام بجولة واسعة في مناطق الأكراد لتهيئتها للثورة، وكان معه مئات من مناصريه، وكانت الثورة قد خُطط لها أن تبدأ صبيحة عيد النوروز في ٢١ مارس/ آذار سنة ١٩٢٥ وهو يوم العيد القومي للكرد، ووصل الشيخ إلى قريته بيران، وصادف قدومه دخول مفرزة من الجيش التركي لاعتقال بعض الشباب الأكراد، فطلب الشيخ سعيد من رئيس المفرزة -حسني أفندي- احترام وجوده وتأجيل اعتقال من يريد بعد أن يغادر الشيخ القرية، فرفض رئيس المفرزة، فنشب صراع مسلح بين الطرفين أدى لمقتل بعض الجنود الأتراك، وأسر القائد وبعض من معه، فظن بعض قادة الجبهات الكردية أن الشيخ سعيدًا بدأ الثورة فهاجموا القوات التركية المنتشرة في مناطقهم، واندلعت الثورة في مناطق الأكراد بسرعة، وانضم إليهم بعض العرب والشركس والأرمن.

وسيطر الشيخ عبدالرحيم أخو الشيخ سعيد على محافظة كينجو التي أعلنت عاصمة مؤقتة للأكراد.

وقام طاهر بيران -أخو الشيخ سعيد أيضًا- بالاستيلاء على البريد من ليجة إلى سردي، ووصل بمائتي مقاتل إلى كينجو، وسلم للشيخ سعيد الوثائق والأموال.

وبهذه الأحداث ابتدأت حركة الشيخ سعيد الثورية قبل أربعين يومًا تقريبًا من الوقت المقرر لها، وتولى فقي حسن رئيس عشيرة مودان إدارة محافظة كينجو، وألغى الشيخ سعيد ضريبة العشر، وهذا جلب رضا السكان، وسُجن المحافظ التركي والموظفون الأتراك.

- عقد مجلس الوزراء التركي جلسة عاجلة في ٢٢/ ٢/ ١٩٢٥ شارك فيها رئيس الأركان فوزي باشا، وأعلنت حالة الطوارئ في منطقة الانتفاضة.

- في ٢٥/ ٢/ ١٩٢٥ عقد البرلمان التركي جلسة عدل فيها القانون رقم ٥٥٦ الخاص بالعقوبات على خيانة الوطن ليصبح كالتالي: «منع إنشاء المنظمات السياسية على أسس دينية، وكذلك استخدام الدين في سبيل تحقيق الأهداف السياسية، واعتبار الأشخاص القائمين بمثل هذه الأعمال أو المنتسبين إلى مثل هذه التنظيمات خونة»، ولعل هذا القانون هو الأول في البلاد الإسلامية، وهو السابق إلى تأسيس هذا الفهم الخاطئ، ألا وهو فصل الدين عن السياسة.

- في ٢٨/ ٢/ ١٩٢٥ أحرزت الثورة انتصارات، والتف حولها عشرون ألفًا تقريبًا من المقاتلين الأكراد، واستولت على ليجة وخاني، وارتبكت الحكومة التركية.

- في ٢/ مارس/ آذار سنة ١٩٢٥ استقالت حكومة فتحي بك، وتولى عصمت إينونو رئاسة الوزراء، وأعلنت الحكومة تدابير جديدة لقمع انتفاضة الشيخ سعيد، وسن البرلمان قانونًا يسمح بإنشاء محكمتين: إحداهما في أنقرة، والأخرى في الولايات الشرقية -مناطق الأكراد- أما الأولى فصلاحيتها محدودة، ولا بد من مصادقة البرلمان على أحكام الإعدام، أما الأخرى فصلاحياتها مطلقة.

- في ١١/ ٣/ ١٩٢٥ أمر الشيخ سعيد بالهجوم على مدينة ديار بكر الحصينة من جميع الجهات، لكن القوات التركية المتفوقة عددًا وعدة أفشلت الهجوم؛ فأصدر الشيخ سعيد أمره بالانسحاب.

- في ٣١/ ٣/ ١٩٢٥ هاجمت القوات الحكومية مناطق الانتفاضة، وحصل تحول في موازين القوى ضعف على إثره الأكراد.

- في ٦/ ٤/ ١٩٢٥ تراجع الشيخ سعيد ومعه مئات من مقاتليه إلى صالحان.

- وفي ١٠/ ٤ حوصرت قوات الانتفاضة في كينجو وحُطمت، وقبض على الشيخ سعيد وعدد من أتباعه.

- في ٢٩/ ٥ بدأت محاكمة الشيخ سعيد ورفاقه، واستغرقت شهرًا كاملاً.

- في ٢٩/ ٦ صدر حكم بالإعدام شنقًا على الشيخ سعيد ورفاقه، ونفذ في اليوم التالي في ساحة المسجد الكبير في ديار بكر، وفوق منصة الإعدام قال الشيخ سعيد: «إن الحياة الطبيعية تقترب من نهايتها، ولم آسف قط عندما أضحي بنفسي في سبيل الله، وإننا مسرورون لأن أحفادنا سوف لن يخجلوا منا أمام الأعداء».

عقب إخماد الثورة نكل الكماليون بالأكراد تنكيلاً فظيعًا استمر إلى سنة ١٩٢٨.

جوانب مهمة في ثورة الشيخ سعيد رحمه الله تعالى:

- حاول الشيخ سعيد إقناع بديع الزمان سعيد النورسي الكردي المشهور بأن يثور معه، لكن بديع الزمان رفض ورأى أن يخدم الإسلام على النحو الذي صنعه، ولكل منهما أجر اجتهاده إن شاء الله تعالى.

- يمكن أن يعد الشيخ سعيد أول شيخ في القرن الماضي يقود ثورة وينجح في إدارة أجزاء من بلاده برهة من الزمن، وحركته جديرة بالدراسة من قِبَل كل من يريد معرفة الحركات الثورية على الحكام الظلمة والكفرة في العصر الحديث وتأصيلاتها الشرعية وفقهها الحركي.

- لم تكن ثورة الشيخ سعيد لأجل القومية الكردية كما أشاع مصطفى كمال وأنصاره، إنما كانت لوجه الله تعالى، ويمكن أن بعض أنصاره ثاروا ثأرًا لقوميتهم، لكن هذا كان رد فعل متوقع في ظل السياسة القومية الطورانية الهوجاء التي كانت تدير بها حكومة أنقرة البلاد، لكن الشيخ سعيدًا كانت منطلقاته إسلامية محضة، ويدل على هذا ما ذكره الملا أبوبكر في موقع جريدة «الاتحاد» في شبكة المعلومات حيث قال ما ملخصه:

ظن بعض الناس أن الشيخ سعيداً قاد الثورة من أجل حقوق الكرد القومية، وهو ما ادعته الحكومة الكمالية وأعلنته أثناء محاربة الشيخ، وهو نفس ما تدعيه بعض الحركات القومية الكردية إلى يومنا هذا إذ نسبوها إلى جمعية «آزادي» وجمعية «تعالي وترقية كردستان»، وهو أيضًا ما ركز عليه بعض المستشرقين في كتاباتهم التاريخية عن الثورة.

إلا أن الوثائق التي ظهرت في السنين الأخيرة أثبتت إسلاميتها وقيامها لأجل إعادة الخلافة وتطبيق الشريعة الإسلامية.

وكانت الحكومة التركية تعد وثائق حركة الشيخ سعيد بيران إلى سنة ١٩٧٧ وثائق سرية وتحظر الاطلاع عليها.

وقد ظهرت في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي دراسات ووثائق توضح حقيقة الثورة وأهدافها، وأن الشيخ أعلن الثورة باسم الله، واتخذ لها راية خضراء هي راية رسول الله ﷺ، وحمل شعارًا لها: لتحيا الخلافة ولتسقط الجمهورية، وكان يتلقب بخادم المجاهدين.

وقد نشرت وثيقة سرية لمجلس الأمن التركي تبين أن ثورة الشيخ سعيد إسلامية، ومما جاء في وثائق محاكمات الشيخ سعيد أن القاضي عندما اتهمه بأن دوافعه قومية قال له: يشهد الله أن الثورة لم تكن من صنع السياسيين الكرد -القوميين- ولا بسبب تدخل الأجانب.

وقد سأله القاضي: هل تريد أن تصبح خليفة؟

فقال: إن وجود الخليفة ضمانة أساسية لتطبيق قواعد الدين، وإن المسألة مطلوبة شرعًا.

وسأله: هل كان إعلانكم للعصيان يعني أنكم وصلتم إلى قناعة تامة بأن الشريعة غير مطبقة فى البلد؟

فأجابه: إن القرآن الكريم يؤكد على الخروج على الحاكم في الظروف التي أشرنا

إليها أعلاه، وتطبيق الشريعة يعني منع الهَرْج والمرج: القتل والزنا وشرب الخمر إلخ ... وبحمد الله كلنا مسلمون ولا يجب التمييز بين الكرد والترك، وحسب اعتقادنا أن هذه الأمور حالياً متروكة، إننا انطلقنا من هذه القناعة وعلى أساس القرآن الكريم.

واتُّهم الشيخ سعيد بأن الأجانب ساعدوه أي: الإنجليز والفرنسيين، وقد تبين أن الإنجليز لم يساعدوه، بل ساعدوا مصطفى كمال الذي قاتل الشيخ سعيدًا بمدافع الإنجليز، وتبين أن الأتراك طلبوا من الفرنسيين المحتلين لسوريا آنذاك أن يسمحوا بمرور ٤ قطارات يومياً على الخط الحديدي بغداد- حلب- إستانبول لنقل خمسة وعشرين ألف جندي تركي مع عتادهم إلى مناطق القتال.

كانت الثورة في الجملة غير ناضجة، ولم يسبقها إعداد كاف، ولا تربية جهادية واضحة لسائر الأكراد، وقد ذكرت أن الشيخ سعيدًا وجد نفسه في مواجهة الجنود الأتراك قبل الموعد المخطط له بأربعين يومًا، كل هذه العوامل أدت إلى إجهاض مبكر للثورة.

لكن يكفي الشيخ أنه ثار لوجه الله تعالى، وترك تراثًا جهادياً ناصعًا يستمد منه المجاهدون إلى قيام الساعة معاني جليلة وقيمًا عظيمة، ويكفيه أنه أول شيخ -فيما أعلم- ثار في القرن الماضي أمام الحكومات الظالمة أو الكافرة، وترك بذلك تجربة مهمة تستضيء بها الأجيال.

كان الشيخ سعيد واعيًا بمتطلبات زمانه، فاهمًا لفقه الواقع، وهذا ما ميزه عن كثير من المشايخ الذين كانوا في غفلة، وكان مخلصًا -كما أحسبه إن شاء الله- وهذا ما ميزه عن بعض مشايخ السوء الذي باعوا دينهم بدنيا غيرهم.

وكان يفهم الإسلام بشمول جامع بين النواحي الدينية والسياسية على وجه غير مسبوق إلا من قلة قليلة من المشايخ الذين جاءوا في العصر الحديث، وكانت لهم

محاولات إصلاحية، بينما كان كثير من المشايخ في عمى عن هذا الشمول في تناول القضايا الإسلامية والتعامل معها.

تلك كانت سيرة الشيخ المجاهد سعيد بيران الكردي، وأزعم أن سيرته بحاجة إلى دراسة شاملة وواسعة من قبل مؤرخي الإسلام عامة ومؤرخي الكرد خاصة، فما هو موجود منها إنما هو شذرات قليلة لا توفي بحق هذا المجاهد العظيم الذي لم يصبر على إعلان الكفر في تركيا وتحويلها عن قبلتها الإسلامية وماضيها المجيد، والله الموفق.

●●●



[٢٣]

العالم المجاهد

محمد أمين الشنقيطي

[١٢٩٣-١٣٥١هـ]

[١٨٧٦-١٩٣٢م]

لقد كان لعلماء شنقيط صولات وجولات في العلم، لكن ربما لأن قطرهم بعيد جدًا فقد سقطوا من ذاكرة الأمة، هذا وفيهم جهابذة كبار، وحالهم هذا يشبه حال أهل اليمن، وقد ذكر الشوكاني أن علماء اليمن -على عظمتهم- قل من يعرفهم في مصر والشام والعراق، وهذا لبعد بلادهم وعزلتهم فيها، فإن كان هذا حال اليمن فكيف يكون حال شنقيط إذن؟

ولد الشيخ محمد في موريتانيا، ونشأ في طلب العلم وحفظ القرآن العظيم والمنظومات العلمية، كما ينشأ طلاب العلم في بلده، لكنه توسع في دراسة الأدب والشعر الذي كان سائدًا في المنطقة آنذاك، ولما بلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا أي: في سنة ١٣١٨ ذهب إلى المغرب لطلب العلم ودار في مدنها: الصويرة ومراكش والدار البيضاء والرباط، ومنها كان ينوي الذهاب إلى فاس حاضرة العلم والعلماء في المغرب الأقصى، لكنه أصيب بالجدري ثم شفاه الله منه في العام نفسه فتوجه إلى القاهرة.

ووفد على بلديّة الشيخ المشهور العلامة محمد محمود التركزي الشنقيطي المعروف بابن التلاميد، فعني به، وأخذه إلى مفتي الديار المصرية آنذاك الشيخ محمد عبده فعني به أيضًا، وكتب له كتابًا إلى محافظ السويس ليركبه إلى جدة، فأدى العمرة في أواخر المحرم سنة ١٣١٩.

ثم توجه إلى المدينة ليصاب بحمى ثقيلة لمدة سنتين، لكنها لم تمنعه من التردد على العلماء ودروسهم، وبقي في الحجاز بين مكة والمدينة إلى سنة ١٣٢٦/ ١٩٠٨، وذلك لأنه قد بلغه استيلاء الفرنسيين على بلاده فلم يشأ أن يبقى تحت العبودية.

ثم سافر إلى الهند، ثم إلى عمان، فالبحرين، ثم الأحساء، وقرأ هناك على شيخها عيسى ابن عكاس، وفي صفر سنة ١٣٢٧/ ١٩٠٩ جاءته رسالة من أحد مشايخه يطلب منه أن يتوجه إلى الزبير في العراق ليدرس في مدرسة بناها مزعل باشا السعدون، فلم يجد بدًا من الذهاب، فلما وصل الزبير وجد أن مزعل باشا قد مات، وقد عين أوصياؤه رجلاً مغربيًا مدرسًا في المدرسة، فهَمَّ بالرجوع فطلب إليه بعض الطلبة أن يعقد لهم دروسًا ففعل، فأعجب به كل من سمعه حتى إنهم رجوه أن يبقى بينهم فاستجاب لهم، وبقي بينهم، ورأوا أن يقيدوه فزوجوه فتاة يتيمة فكانت أم أولاده السبعة.

وقام في البصرة يعظ بأسلوب قوي وجريء يحارب فيه الأوهام والبدع والخرافات، وينعي على العلماء جمودهم وتقصيرهم، وعلى الدولة العثمانية تعطيلها للحدود الروادع، وإقرارها للفواحش -وهذا والله أعلم لأنه كان يدير الدولة العثمانية آنذاك جمعية الاتحاد والترقي الماسونية- وكل هذا أثار عليه بعض المشايخ الذين حسدوه ورفعوا إلى مدير الناحية أمره، وأنه يجب إبعاده لأنه يحرض العوام على الدولة العثمانية، ويقلل من شأنها وهيبتها في النفوس، لكن كان المدير عاقلاً عالمًا بسبب الحملة هذه على الشيخ، فذهب إلى الشيخ محمد بن عوجان إمام مسجد الباطن، وكان تقيًا ورعًا، فسأله عن الشيخ الشنقيطي فأثنى عليه، وبين أنه لا يقصد في وعظه إلا الخير، وأنه قد حصل به خير كثير لأهالي الزبير، فاقتنع مدير الناحية وكف عنه.

وبقي الشنقيطي يدعو إلى الله تعالى، ويجتهد في نشر الخير إلى سنة ١٣٣١/ ١٩١٣، حيث دعي إلى الكويت ليشارك في الجمعية الخيرية التي أنشأها مجموعة من أهل الكويت، وكان الغرض منها إعداد طلاب العلم في البلاد العربية المتفوقة علميًا آنذاك مثل القاهرة ودمشق وبيروت، والإنفاق عليهم حتى يعودوا، ولها أغراض خيرية متنوعة، وقد أسهمت هذه الجمعية في تحريك المجتمع الكويتي آنذاك ودفعه إلى نهضة فكرية وعلمية وأدبية، فقد دعت إلى الكويت مشايخ كثيرين كرشيد رضا، وحافظ وهبة، ومصطفى لطفي المنفلوطي، وعبد العزيز الثعالبي التونسي وغيرهم.

وظل الشيخ الشنقيطي في الكويت يعظ ويدرس إلى أن أصبحت الحرب العالمية الأولى على الأبواب، وكان الحاكم في الكويت آنذاك الشيخ مبارك الذي كان قد عقد اتفاقية مع الإنجليز سنة ١٨٩٩ فخشي من الجمعية فأغلقها، وكاد الشيخ الشنقيطي يعتقل إثر أحداث جرت هناك حيث تخوّف مبارك منه ومن مناصرته الدولة العثمانية، فهرب إلى الزبير تاركًا زوجه وأولاده ست سنوات!!

ولما وصل البصرة راح يدعو للجهاد في سبيل الله ضد الإنجليز الكفرة، ولم يكتفِ بهذا، بل شارك في القتال بنفسه في معركة الشعيبة، وهي قرية تبعد عن البصرة عشرة أميال وعن الزبير ميلين، وقصة هذه المعركة كالتالي:

وردت برقية من البصرة لمختلف المدن العراقية جاء فيها: «ثغر البصرة الكفار محيطون به، الجميع تحت السلاح، نخشى على باقي بلاد الإسلام، ساعدونا بأمر

العشائر بالدفاع». وتُليت البرقية على الناس، وصار الوعاظ والخطباء يلهبون الحماس، ويثيرون المشاعر الدينية، وأن الإنجليز إذا احتلوا العراق فإنهم سيهدمون المساجد، ويحرقون القرآن، وينتهكون حرمات النساء، وساد العراق كله حركة جهادية جليلة خاصة عندما أفتى شيخ الإسلام في الدولة العثمانية آنذاك خيري أفندي أن الجهاد قد أصبح فرض عين على جميع المسلمين والتحم المسلمون بالإنجليز في الشعيبة ثلاثة أيام أظهر فيها المسلمون شجاعة هائلة وحماسًا عظيمًا، وكان الهنود المسلمون جنودًا في الجيش البريطاني!! فأثرت فيهم دعوات الجهاد؛ فكان الإنجليز ينخزونهم بالسيوف والحراب ليخرجوهم لقتال المسلمين، وانتهت المعركة بانتصار الإنجليز المتفوقين عسكريًا، ومن ثم انتقل الشنقيطي إلى بغداد لمدة أربعة أشهر، ومنها إلى حائل التي مكث فيها قليلاً يدرّس، ثم توجه إلى عنيزة واجتمع بالملك عبد العزيز هناك، واستضافه آل البسام مدة كتب فيها مذكراته.

ثم إن الشيخ أحمد الجابر الكويتي أراد الحج فعرج على عنيزة، واقترح على الشيخ الشنقيطي أن يرافقه إلى الحج، فوافق الشيخ، وأكرم الشريف حسين مثواهما في مكة، ثم عاد إلى عنيزة وبقي فيها سنتين يدرّس ويعظ، ثم لما مات مبارك الكبير عاد إلى الكويت ليرى أسرته التي تركها ست سنوات!! والتقى بأمير الكويت الشيخ سالم الذي أساء استقبالهم إلى حد غريب؛ فطرده من البلد وأمهله ثلاثة أيام للخروج منها، وربما كان ذلك بسبب ما جرى بين مبارك الكبير والشنقيطي، والله أعلم.

وتوجه الشيخ إلى الزبير، ثم لحقت به أسرته بعد ذلك، وأخذ في وعظ الناس وإرشادهم، ودعاهم إلى إنشاء المدارس؛ فاستجاب له نفر من الزبيريين، وأنشأوا جمعية النجاة سنة ١٣٣٩/ ١٩٢٠، ومدرسة النجاة سنة ١٣٤٢/ ١٩٢٣، وقد تفوقت هذه المدرسة على مثيلاتها، وصار لها أثر جليل، وبلغ عدد طلابها سنة ١٣٦٦/ ١٩٤٧ أربعة آلاف طالب منذ تأسيسها.

ولما تأسست المدرسة سأله أحد وجهاء العراق عن رأيه في افتتاح مدرسة للبنات، فبين الشيخ أهمية هذا الأمر، لكن الحسدة لم يرضوا إلا أن يؤذوه بهذه الفتوى؛ فهيجوا عليه

العامة بدعوى أنه يريد شيوع الاختلاط بين الرجال والنساء، وفاجأه أحد العوام بعد العشاء فضربه بعصا ضربًا مبرحًا، لكن أنقذه بعض الحاضرين، وأخذ الرجل للسجن، وانتشر الخبر في العراق والكويت والخليج، ووردت البرقيات المنددة بهذا الصنيع الآثم، ولما خرج الرجل المعتدي من السجن جفاه الناس، وعضه الجوع بنابه، حتى جاء باكيًا إلى الشيخ تائبًا معتذرًا، فواساه الشيخ بطعام من حانوت يتعامل معه، وكان الشيخ بهذا مطبقًا لقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ولما صار الشيخ أحمد الجابر أميرًا للكويت -وكان صديقًا للشنقيطي- جاءته دعوة من النادي الأدبي في الكويت سنة ١٣٤٣/ ١٩٢٤ فلباها مسرورًا، واستقبل استقبالاً حافلاً، وأقيمت له حفلة تكريمية رائعة، أنسته ما لاقاه زمان مبارك وسالم من قبل، وعاش أيامًا سعيدة في الكويت.

ثم إنه عاد إلى الزبير ليشرف على المدرسة التي أسسها هو وثلة من وجهاء الزبير، وكان يعمل كل ما في وسعه من أجل إنجاح مقاصد المدرسة ورعاية طلابها وجلب التبرعات لها من المحسنين في العراق والكويت، وسار على هذه السيرة حتى صار خريجو المدرسة منتشرين في الزبير والبصرة والكويت وبغداد وغيرها، وصار منهم الأطباء، والمحامون، والعسكريون، والمربون، والشعراء، والوعاظ، والمعلمون، وثبت الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى على عطائه وبذله حتى لقي الله تعالى سنة ١٣٥١/ ١٩٣٢ ودفن في مقبرة الحسن البصري، رحمه الله تعالى.

تلك كانت حياة هذا الشيخ الذي جمع بين أعمال كثيرة جليلة: تعليم العلم الشرعي، والدعوة إلى الله تعالى، والجهاد في سبيل الله تعالى، والتوعية في زمن الجهل، والوقوف في وجه الظلمة، ومقارعة الاستخراب البريطاني، وغير ذلك من أعمال جليلة تحمل في سبيلها الغربة عن وطنه، والبعد عن أهله، وشظف العيش وشدته، وتجهم الأقارب والأباعد، والازدراء والاستخفاف، وكل ذلك في زمن الخوف والاضطراب أيام الحرب العالمية الأولى وانتشار الفوضى في كل مكان، فرضي بما هنالك، وثبت ثباتًا عجيبًا حتى أتاه اليقين، وهذا هو المرجو من ورثة سيد المرسلين وإمام المتقين، وذلك هو الطريق الذي لا مناص فيه ولا محيد عنه، فرحمه الله رحمة واسعة، ورفع درجته في عليين.



[٢٤]

العالم المجاهد

عمر مكرم

[١١٦٤/١٢٣٧هـ]

[١٧٥٠/١٨٢٢م]

هناك مئات الآلاف من العلماء على مدار تاريخ الإسلام، لكن قليلاً من هؤلاء من كان يحمل هموم أمته وآلام شعبه، ويجاهد في سبيل الله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحتسب على الحكام، ومن هؤلاء القليل كان الشيخ الفاضل العالم نقيب الأشراف عمر مكرم.

عاش رحمه الله تعالى في زمن الإدبار وذهاب هيبة الأمة الإسلامية، وتربص أعدائها بها الدوائر، وكانت الدولة العثمانية آنذاك في طور الانحدار، فلم تستطع أن تصنع كبير شيء مع المكايد التي كانت تترى عليها في كل وقت، والمؤامرات التي تحيط بها من كل جانب، في تلك المدة المظلمة عاش سماحة الشيخ المجاهد عمر مكرم بن حسين السيوطي.

ولد سنة ١١٦٤/ ١٧٥٠ في أسيوط، من أسرة شريفة النسب، تنتهي إلى الأدارسة، وانتقل إلى القاهرة للدراسة في الأزهر، وعُني بالفقه، وتخرج في الأزهر، واقتنى مكتبة كبيرة ما زال جزء منها محفوظًا في دار الكتب المصرية باسمه، لكنه لم يشتغل بتأليف الكتب ولا بالدروس؛ لأنه كان بطبعه ميالاً إلى المشاركة في الشأن العام، وسياسة الشعب، والاهتمام بأمور المجتمع المصري.

بداية ظهور السيد وعلو شأنه:

وكانت بداية بروز السيد عمر مكرم لما اختل الأمر في الديار المصرية بوقوع التنازع بين أمراء المماليك وتسابقهم في ظلم الشعب، فأرسلت الدولة العثمانية حسن باشا الجزائرلي لتأديب المماليك، خاصة الأميرين مرادًا وإبراهيم اللذين فَرّا إلى الصعيد، فلما عاد حسن باشا إلى بلاده سنة ١٢٠٥/ ١٧٩١ توسط الأميران لدى الحكومة العثمانية في القاهرة ليعودا إليها، وكان رسولهما في هذا هو السيد عمر مكرم لصداقة بينهم، فنجح في مهمته وعاد الأميران للحكم.

وبعد ثلاث سنوات من هذه الحادثة توفي السيد محمد البكري نقيب الأشراف وشيخ السادة البكرية ولم يكن له عقب، فأسند الأميران نقابة الأشراف إلى السيد عمر

مكرم عرفانًا بالجميل ووفاءً له، وكان ذلك سنة ١٢٠٨/ ١٧٩٣، وكان هذا بداية ظهوره في المجتمع المصري.

ثم عظم شأنه بعد ذلك؛ إذ إن الأميرين عادا إلى سيرتهما القبيحة وظلمهما للشعب، فثار الشعب المصري عليهما سنة ١٢٠٩/ ١٧٩٥ وكادت تحدث فتنة، فاجتمع الأمراء والباشا التركي في بيت الأمير إبراهيم، وتعهد الأميران مراد وإبراهيم وسائر الأمراء بكف أيديهم عن الشعب، وتحري العدل، ورفع المظالم، وصرف الأموال إلى مستحقيها، وإرسال مخصصات الحرمين، ورفع الضرائب المستحدثة، وأن يسيروا في الحكم سيرة حسنة، وكُتبت وثيقة بذلك، وخُتمت من قبَل الأميرين، ومن الباشا التركي، وكان السيد عمر مكرم ممن اشترك في كتابة هذه الوثيقة، وهذا مما رفع من مكانته بين قومه.

السيد عمر مكرم والحملة الفرنسية على مصر:

ولما احتل الفرنسيون مصر سنة ١٢١٣/ ١٧٩٩ هرب الأميران مراد وإبراهيم بعد معركة قصيرة مع الفرنسيين وتركا الشعب المصري لمصيره، وهنا نادى السيد عمر مكرم في المصريين بالجهاد، وصعد إلى القلعة ونشر علمًا كبيرًا كان يُسمى «البيرق النبوي»، ونزل من القلعة إلى بولاق -وكان حيّاً في أطراف القاهرة آنذاك- والناس حوله ألوف مؤلفة يحملون العصي والنبابيت، وهم يهللون ويكبرون وقد امتلأوا حماسة وحبّاً للجهاد، لكن ما الذي تغنيه قوتهم وعتادهم الضعيف أمام أسلحة الفرنسيين الحديثة، خاصة أن جيش المماليك قد هُزم ولاذ بالفرار؟!

وهنا رأى المشايخ مثل الشرقاوي شيخ الأزهر، والشيخ السادات أن يستسلموا ويسلموا البلد للفرنسيين، لكن عمر مكرم رفض أن يدخل القاهرة، وآثر أن يصحب جيش إبراهيم بك في تقهقره إلى الشمال نحو المنصورة، ثم إلى سيناء فالشام، وجيش الفرنسيين يتبعهم.

ثم لجأ عمر مكرم إلى يافا، وبقي فيها حتى فتحها نابليون، الذي حرص على إكرامه وإعادته إلى مصر عن طريق دمياط، ودخل القاهرة بعد غياب ثمانية أشهر فلم يشهد

ثورة المصريين الأولى على الفرنسيين التي وقعت بعد ثلاثة أشهر من الاحتلال، إنما شهد الثورة الثانية.

ولما عاد إلى مصر رفض أن يشترك في ديوان الحكم الذي أقامه الفرنسيون لتسيير أمور المصريين، ولم يطلب استرجاع مكانه في نقابة الأشراف ولا في نظارة الأوقاف اللتين كان يديرهما من قبل، ولم يرضَ أن يطلب من الفرنسيين أن يردوا له أملاكه التي صادروها عزةً وأنفةً ورفضًا للاحتلال.

ثورة القاهرة الثانية على الفرنسيين:

في ٢٣ شوال سنة ١٢١٤/ مارس ١٨٠٠ ثار المصريون على الفرنسيين ثورتهم الثانية -ولها قصة يطول ذكرها- وقصد الشعب السيد عمر مكرم ينادونه ويهتفون باسمه، فلم يخيب ظنهم، وسارع بالنزول إلى الشوارع، وقاد الثورة الشعبية ومعه بعض الأمراء والكبراء والشجعان، وأمر أهل القاهرة ببذل الأموال، فسارعوا لتلبية أمره، وتحرك السيد عمر مكرم من شارع إلى آخر، ومن موقع إلى موقع يحمس الناس ويثبتهم ويشد من عزيمتهم.

ولما وقع الصلح أخرج الفرنسيون بقايا عسكر الترك من مصر، وأباحوا لمن أراد من المصريين أن يخرج معهم، فخرج السيد عمر فيمن خرج مؤثرًا الغربة وتحمل المشاق على البقاء في بلاده وهي محتلة، وذلك هو خروجه الثاني، في أول ذى الحجة سنة ١٢١٤/ ٢٥ إبريل ١٨٠٠، بعد ٣٧ يومًا من الجهاد وإغلاق أبواب القاهرة في وجه الفرنسيين الذين دكوها بالقنابل من القلاع المشرفة عليها.

ولما خرج السيد عمر من مصر إلى الشام نُهب بيته، كما نُهبت بيوت سائر الأمراء الذين آثروا الخروج على البقاء.

ثم لما رجع الجيش العثماني إلى مصر بمعونة الإنجليز لطرد الفرنسيين منها رجع معهم السيد عمر مكرم، واستقبلته القاهرة استقبالاً حافلاً، وصار رجل مصر وزعيمها الشعبي، وعادت إليه زعامة نقابة الأشراف.

عمر مكرم يُنَصب محمد علي حاكماً على مصر:

لما خرج الفرنسيون من مصر سنة ١٢١٥/ ١٨٠١ عاد أمراء المماليك إلى عادتهم المذمومة في ظلم الناس واضطهادهم، وصاروا بحيث يقاتل بعضهم بعضًا، وكان في مصر وال عثماني اسمه أحمد خورشيد باشا لكنه لم يستطع ضبط الأمور، وكان محمد علي رئيسًا لجند الأرناؤوط «الألبان»، وكان بين الأرناؤوط والمماليك نزاع، وبينهما وبين الوالي التركي وجيشه نزاع، وحدثت حوادث يطول ذكرها.

لكن العلماء وعلى رأسهم السيد عمر مكرم رأوا أن أفضل من يلي حكم مصر هو محمد علي لما رأوا من هدوئه وحسن ضبطه للأمور ودهائه وقوته، فاستقر رأي العلماء على تنصيب محمد علي حاكمًا على مصر، فدخل عليه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي وعرضا عليه ما اتفقوا عليه، فتردد محمد علي ثم وافق، فألبساه لباس الحاكم آنذاك، وبايعاه نيابة عن الشعب في سنة ١٢٢٠/ ١٨٠٥، وكانت هذه الحادثة فريدة في تاريخ مصر لم تتكرر قبل ذلك أو بعده فيما أعلم.

ولم يقبل الوالي أحمد خورشيد هذا الذي جرى لكنه أجبر عليه إجباراً بعد حوادث يطول ذكرها، وتصدر السيد عمر في هذه الحوادث كلها، ومما يظهر عمق فهم السيد عمر وثقته بما صنع ما جرى بينه وبين رسول الوالي التركي أحمد خورشيد الذي أرسله ليناقش السيد عمر فيما صنعه فقال له الرسول:

كيف تثورون على مَن ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩].

فقال له السيد عمر: اعلم أن أولي الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، وهذا الحاكم الذي أرسلكم ما هو إلا رجل ظالم... وقد كان لأهل مصر دائمًا الحق في أن يعزلوا الوالي إذا أساء ولم يرضَ الناس عنه... إن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار في الناس سيرة الجور والظلم كان لهم خلعه وعزله.

فقال الرسول: وكيف يجوز لكم حصارنا ومعاملتنا معاملة الخوارج الكفرة؟

فقال السيد عمر: إننا نقاتلكم لأنكم عصاة قد خرجتم على الحق...

ومن هذه المناقشة يتبين عظم مكانة السيد عمر وطاعة الناس له ولجوؤهم إليه.

ثم حدثت حوادث عديدة كادت تودي بمحمد علي في بدايات حكمه، لكن السيد عمر مكرم استطاع أن يتجاوز عواقبها بسلام، واستطاع تثبيت حكم محمد علي لمصر، خاصة بعد أن عزلت الدولة العثمانية محمد علي بعد سنة تقريبًا من ولايته، وطلبت منه أن يتولى ولاية سلانيك عوضًا عنها، لكن السيد عمر استطاع أن يجمع العلماء والكبراء وكتبوا كتابًا للسلطان العثماني يخبرونه بأنهم لا يرضون لحكم مصر إلا محمد علي باشا، ورضخ السلطان لطلبهم بعد حوادث عديدة، وثبت محمد علي حاكمًا لمصر.

ولما تولى محمد علي حكم مصر بمساعدة السيد عمر مكرم عظم شأنه، وقال الجبرتي في شأن علوّ مقدار السيد عمر مكرم أوائل زمن محمد علي باشا:

«وارتفع شأن السيد عمر، وزاد أمره بمباشرة الوقائع (أي: الحروب) وولاية محمد علي باشا، وصار بيده الحل والعقد، والأمر والنهي، والمرجع في الأمور الكلية والجزئية».

السيد عمر مكرم والحملة الإنجليزية على مصر «حملة فريزر»:

نزل الإنجليز على الشاطئ المصري سنة ١٢٢٢/١٨٠٧، واحتلوا الإسكندرية، وتحركوا شرقًا لاحتلال بلدة رشيد لأنهم كانوا يريدون سلوك الطريق نفسه الذي سلكته الحملة الفرنسية قبل نزولهم بتسع سنوات تقريبًا، لكن حامية رشيد والأهالي فيها قاوموا أروع المقاومة، ووقفوا سدًا منيعًا أمام دخول الإنجليز بلدتهم، وأرسلوا استغاثات للقاهرة لنجدتهم.

ولما رأى عمر مكرم ذلك عمل شيئًا فريدًا رائعًا عبر عنه المؤرخ المصري الجبرتي بقوله:

«نبّه السيد عمر النقيب على الناس، وأمرهم بحمل السلاح والتأهب لجهاد

الإنجليز، حتى مجاوري الأزهر أمرهم بترك حضور الدروس، وكذلك أمر المشايخ بترك إلقاء الدروس».

وعلق المؤرخ المصري الرافعي على ذلك بقوله:

«فتأمل دعوة الجهاد التي بثها السيد عمر مكرم والروح التي نفخها في طبقات الشعب، فإنك لترى هذا الموقف مماثلاً لموقفه عندما دعا الشعب إلى التطوع لقتال الفرنسيين قبل معركة الأهرام، ثم تأمل دعوته الأزهريين إلى المشاركة في القتال تجد أنه لا ينظر إليهم كرجال علم ودين فحسب، بل رجال جهاد وقتال ودفاع عن الزمان، فعملهم في ذلك العصر كان أعم وأعظم من عملهم اليوم». وصدق الرافعي والله.

بدايات الجفوة بين السيد عمر مكرم ومحمد علي باشا:

وكان محمد علي غائبًا في الصعيد، فلما عاد استأذنه السيد عمر في الجهاد هو ومن معه فرفض، وأخبره بأن الواجب قد سقط عنهم، وأن هذه مسؤولية الجيش، وأن مسؤولية الشعب هي إعداد الأعلاف للدواب التي ستخرج إلى رشيد!! فوجم السيد عمر من هذه الكلمة غير اللائقة، وحملها بغم وهم، وعاد أدراجه وهو ضيق الصدر.

ثم فترت العلاقة بين السيد عمر مكرم ومحمد علي باشا، وساعد على فتورها أكثر أن محمد علي أخذ من المصريين الضرائب الفادحة، وأنزل فيهم من المظالم شيئًا كثيرًا، فغضب عليه السيد عمر مكرم ورأى أنه قد أخَلّ بالشرط الذي أخذ عليه يوم توليته الحكم وهو: «أن يسير بالعدل، ويقيم الأحكام والشرائع، ويقلع عن المظالم، وألا يفعل أمرًا إلا بمشورة العلماء، وأنه متى خالف الشروط عزلوه»، وبسبب هذا فترت العلاقة بينهما أكثر من ذي قبل، فلم يَعُد السيد عمر يتردد على محمد علي باشا كما كان يصنع قبل ذلك.

نفي السيد عمر مكرم:

ثم صار السيد عمر مكرم يجاهر بمعارضة محمد علي باشا بين الناس، وأبدى السخط والتذمر من تصرفات محمد علي باشا، واستمرت الجفوة بينهما عامين طويلين، حتى حدثت حادثتان ضخمتا الخلاف وصعدتا به إلى درجات خطيرة، وأولاهما: أن محمد علي باشا كُلف من قِبل الدولة العثمانية بحرب الوهابيين -كما

كانوا يسمونهم- في نجد، فاقتضى هذا منه أن يجمع المال الكثير من الشعب، وثانيهما: أن أحد المشايخ سُجن ظلمًا.

فرأى خواص المشايخ والكبراء وفي مقدمتهم السيد عمر مكرم أن في هذا مساسًا بالاتفاق مع محمد علي باشا وقت تنصيبه واليًا علي مصر بأن يسير بالعدل، وأن في هذا خلافًا للوثيقة التي وُقعت في بيت الأمير إبراهيم قبل الحملة الفرنسية على مصر ومجيء محمد علي حاكمًا بمدة، ونصت على السير في الناس بالعدل.

فاجتمعوا في الأزهر يتذاكرون في السبل الكفيلة بردع محمد علي، والعامة حولهم يصيحون ويهمون بالثورة، وخَلُصَ الأمر إلى كتابة وثيقة تُضمن الشكاوى من محمد علي وترسل إلى رئيس الديوان ليسلمها إليه، فراع ذلك الاجتماع محمد علي، وعلم برئاسة عمر مكرم له، فزاده ذلك تغيظًا عليه، وطلب من المشايخ الموقعين على الوثيقة الحضور عنده للمناقشة فذهبوا إلا السيد عمر رفض أن يذهب إليه.

ولما ذهب المشايخ صار بعضهم يطعن في السيد عمر مكرم -للأسف- وقال عنه بعضهم: «ما هو إلا صاحب حرفة أو جابي وقف يجمع الإيراد ويصرفه على المستحقين، وليس له قدر إلا بمؤازرتنا، فإذا نحن تخلينا عنه لم يكن له بعد انصرافنا قدر ولا خطر» وهكذا يفعل الحسد والتنازع، وبهذا الموقف الذي استغله محمد علي ضُرب أول إسْفين «معْول» بين المشايخ، وتراجع قدرهم بعد ذلك فلم يستطيعوا استعادة هيبتهم إلى يومَ الناس هذا، واستطاع محمد علي أن يقلم أظافرهم جميعًا بعد خذلانهم السيد عمر مكرم، ونقض اتفاقهم معه الذي كان في الأزهر، كما ذكرتُ آنفًا.

وتشدد الشيخ عمر في موقفه بعد ذلك، وصار يجهر بعدائه لمحمد علي ويقول: «كما أصعدته للحكم فإني قدير على إنزاله منه»!!

والتمس محمد علي رضا السيد عمر بكل طريقة، حتى إنه حاول أن يهديه الأموال الكثيرة ورجاه أن يعدل عن طريقته، لكن السيد عمر مكرم يرفض أن يتنازل عن موقفه إلا بعد أن يعلن محمد علي عن توقفه عن جباية الضرائب بحسب إرادته ومشيئته دون الرجوع إلى زعماء الشعب.

وبينما الأمر على ذلك حدثت حادثة كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، وهي أن محمد علي أعدّ «كشف حساب» ليرسله إلى الدولة العثمانية ليبين لها أنه صرف الأموال التي جباها من الشعب بناء على أوامر قديمة منها منذ أن كان الصدر الأعظم - رئيس وزراء الدولة العثمانية- يوسف باشا في مصر زمن خروج الفرنسيين منها، وطلب من المشايخ التوقيع على كشف الحساب، فقبلوا ورفض السيد عمر مكرم، وبرر رفضه بأن الضرائب المعتادة كانت كافية لكل ما قام به محمد علي من الأعمال العامة، وأنه لا يستطيع أن يشهد إلا بالحق الذي يعتقده وهو أن الضرائب التي فرضها محمد علي زائدة على ما كان من قبل لا داعي لها، فغضب محمد علي وطلب اجتماع المشايخ فحضروا إلا السيد عمر، وهناك أعلن خلعه من نقابة الأشراف ونفيه إلى دمياط، وكان ذلك سنة ١٢٢٤/ ١٨٠٩، فامتثل للأمر.

وللأسف فإن جماعة من العلماء قاموا بكتابة محضر إلى الدولة العثمانية يدافعون عن نفي محمد علي باشا السيد عمر مكرم واتهموه باتهامات غير صحيحة، لكنهم بعد نفيه ذاقوا وبال صنيعهم، وصدق قول الجبرتي فيهم وفي السيد عمر: «كان ظلاً ظليلاً عليهم وعلى أهل البلد، يدافع عنهم، ولم يزالوا بعده في انحطاط».

وقضى السيد عمر مكرم قرابة ثلاث سنوات في دمياط بنى فيها نزلاً لنزول التجار الذين كانوا يقصدون ميناءها من سائر البلدان، ثم تحول إلى طنطا فبقي فيها خمس سنوات تقريبًا، إلى أن عفا عنه محمد علي وأعاده إلى القاهرة بعد أن طلب السيد عمر منه أن يحج، ثم أرسل له محمد علي خطابًا لطيفًا قال له فيه:

«إلى مطهر الشمائل سَنيِّها، حميدَ الشئون وسميّها، سلالة بيت المجد الأكرم والدنا السيد عمر مكرم دام شأنهَ، أما بعد:

قد بلَّغنا نجلكم عن طلبكم الإذن في الحج إلى البيت الحرام وزيارة روضته -عليه الصلاة والسلام- للرغبة في ذلك، والترجي لما هنالك، وقد أذنّا لكم في هذا المرام؛ تقربًا لذي الجلال والإكرام، ورجاء لدعواتكم بتلك المشاعر العظام، فلا تَدَعوا الابتهال، ولا الدعاء لنا بالقال والحال، كما هو الظن في الطاهرين والمأمول من الأصفياء المقبولين...».

وعاد السيد عمر إلى القاهرة التي ارتجت فرحًا بمقدمه، وخرج عامة الشعب إلى بولاق لتحيته، بعد تسع سنوات من نفيه.

نفي السيد عمر مرة أخرى!!

وبعد ثلاث سنوات من عودة السيد عمر من المنفى حدثت حادثة استدعت إعادة نفيه، وهي أن الدولة العثمانية طلبت من محمد علي تموين بعض سفنها التي تحارب اليونانيين في جزيرة كريت وذلك سنة ١٢٣٧/ ١٨٢٢، فاضطر محمد علي لفرض ضرائب على الشعب الذي هاج وماج، وهتف باسم السيد عمر مكرم الذي لم يكن قادرًا على الاستجابة لطلبهم لكبر سنه وضعف قوته، لكن محمد علي خاف من تجدد الفتن؛ فبادر بنفيه إلى طنطا، لكنه لم يبقَ في منفاه طويلاً؛ إذ توفي في السنة نفسها عن ثلاث وسبعين سنة، ودفن في قرافة القاهرة، رحمه الله تعالى وغفر له.

وبتنحية السيد عمر مكرم تنتهي مرحلة من أهم مراحل مصر الحديثة، ويُجهض عمل من أهم الأعمال التي مَرّت على ديار العرب في القرنين الأخيرين، ألا وهو مشاركة العلماء الحكام في إدارة شأن العامة وتوجيههم، ومشاركة العلماء في اختيار الحكام ليكونوا معهم أولياء الأمور، ولا أعلم أنه قام في ديار العرب في العصر الحديث عمل مشابه لما كان في مصر، ولو قُدر لتلك المشاركة أن تمضي إلى نهايتها لتغير تاريخ العرب والمسلمين بل العالم كله، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وقد تمنيت أن يلاين السيد عمر مكرم محمد علي قليلاً، وأن يداريه شيئًا من المداراة حتى يحصل منه على أكبر قدر ممكن من المكاسب للبلد والشعب؛ فإن الصدام بينهما لم يكن من المصلحة أبدًا، لكن هكذا جرى الأمر، والحمد لله على كل حال.

وفي النهاية لا بد من القول بأن العلماء اعتادوا أن يصفوا بعض المتأخرين بأنهم خاتمة الحفاظ أو خاتمة المحدثين أو غير ذلك من الألقاب، وأستطيع أن أقول: إن السيد عمر مكرم كان خاتمة العلماء المجاهدين، فإني لم أرَ في التاريخ المصري الحديث بل التاريخ العربي الحديث عالمًا بوزن السيد عمر مكرم، ومشاركته في الجهاد، وتوجيه العامة، مع الهيبة والمقام العالي بين سائر الناس، حكامًا ومحكومين، وقد كان خاتمة

لعلماء مصريين هم كالشامة بين الناس، وكلهم كانوا مجاهدين عاملين، أذكر منهم المشايخ سليمان المنصوري، ومحمد بن سالم الحفناوي، وعلي بن موسى الحسيني المقدسي المصري، وعُرف بابن النقيب، وعلى الصعيدي، والشيخ الدردير، والشيخ العروسي، وخاتمتهم السيد عمر مكرم، رحمه الله تعالى.

ولولا أن شرطي في هذه السلسلة ألا أترجم لأحد من العلماء إلا من العصر الحديث لكنت قد ترجمت لأولئك الأكابر، رحمهم الله تعالى ورضي عنهم.

وأختم بما قاله المؤرخ المصري عبدالرحمن الرافعي في السيد عمر مكرم فإنه معبر عن حاله أحسن التعبير:

«كان للشعب زعماء عديدون يجتمعون ويتشاورون ويشتركون في تدبير الأمور، ولكلٍّ منهم نصيبه ومنزلته، ولكن من الإنصاف أن يُعرف للسيد عمر مكرم فضله في هذه الحركة؛ فقد كان بلا جدال روحها وعمادها».

●●●


[٢٥]
المجاهد
عمر الفوتي
[١٢١٢-١٢٨٠هـ]
[١٧٩٧-١٨٦٤م]

لقد كان في التاريخ الإسلامي الحديث رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وعملوا طويلاً من أجل الذب عن حياض الإسلام، ولم يبخلوا بشيء في سبيل ذلك، فكان لهم مع أعداء الإسلام صولات وجولات أظهرت صوراً جليلة من البطولة والكفاح، ومن هؤلاء العظماء عمر بن سعيد بن عثمان تال الفُوتي، الذي أنشأ دولة على مساحة كبيرة من حوض نهر النيجر وحوض نهر السنغال في غرب إفريقيا في دولتي السنغال ومالي حاليّا، وذلك في القرن الثالث عشر/ التاسع عشر الميلادي.

كان عمر الفُوتي صوفيّا تيجانيًا، لكنه لم يكن من قَعَدة الصوفية المثبطين، ولم يكن من الغالين، لكنه كان صوفيّا معتدل التصوف، ومن المجاهدين في سبيل الله تعالى، وقد كان لمجاهدي الصوفية أثر عظيم في صد الاحتلال والاستخراب عن بلاد الإسلام، وقد رأينا هذا في السنوسية والنقشبندية والرحمانية وغيرها من الطرق التي آثرت الجهاد، ولم يكن فيها من ضلالات البدع الغالية ما كان في الطرق الصوفية الأخرى.

والطريقة التيجانية ربت رجالاً عظماء كان لهم أياد بيضاء في الجهاد، وفي بعض الأحوال انتسب إليها عملاء للاحتلال وموالون له على وجه عجيب، وهذا أمر معلوم في الجزائر على الأقل، فقد كان لبعض هؤلاء ولاء مُخْزٍ للاحتلال الفرنسي، والله أعلم.

ولد عمر الفوتي سنة ١٢١٢/ ١٧٩٧ في قرية حَلْوار -الواقعة على الضفة الغربية من نهر السنغال -التي تبعد حوالي أربعين ميلاً عن بودور على الحدود السنغالية الموريتانية.

وكان والده صالحًا عالمًا فنهل الولد من علم أبيه، ودرس على يديه الفقه وصحيح البخاري ومسلم.

وحفظ القرآن في الكُتاب وهو ابن ثماني سنين.

ولما بلغ العشرين سنة من عمره ارتحل إلى فوتا جالون- في السنغال اليوم - واستقر

في مدينة ساتينا قرابة عشر سنوات يُدَرّس القرآن الكريم والسيرة النبوية المطهرة للأطفال.

ثم توجه إلى الحجاز للحج مع أخيه علي، فسار إلى فَزّان أولاً، ثم دخل القاهرة وناظر بعض علمائها بحضرة وكيل المغاربة محمد المغربي، فلما رأى تفوقه في العلوم أعطاه مالاً وزادًا وأذن له بركوب النهر للحج، فوصل إلى مكة المكرمة والتقى بشيخه محمد الغالي وحجًا معًا، ثم توجّها إلى المدينة فدخلاها في المحرم من سنة ١٢٤٢، ومكث مع شيخه ثلاث سنوات، توجه أثناءها إلى القاهرة، ثم إلى بيت المقدس، ثم عاد إلى المدينة المنورة النبوية، ثم حجَّ مرة أخرى، وتزوج ابنة إمام الحرم المكي.

ثم قفل عائدًا إلى مصر فمكث فيها بضعة أشهر من سنة ١٢٤٦، والتقى بأهله فيها وكان قد تركهم منذ ثلاث سنوات عندما قدم إلى القاهرة مريدًا الحج، ثم توجه إلى فزان، ومنها إلى بَرْنو -من أرض تشاد اليوم- فقابل سلطانها عمر الذي حسده وسعى في قتله فنجاه الله تعالى ثم صَلُح ما بينهما.

ومن هناك انتقل إلى سوكُوتو عاصمة الخلافة الفُودية -التي تحدثت عنها في ترجمة عثمان بن فودي في الجزء الأول من هذه السلسلة- وهي دولة جليلة بقيت مائة عام حطمها الإنجليز مطلع القرن الرابع عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، ولقي الحاج عمر الفوتي -كما كان يسمى بعد عودته من الحج- في سُوكُوتو خليفة المؤمنين الشيخ محمد بَلُّو بن عثمان فودي، وجمع في سوكوتو بين الدراسة والتدريس، وشارك في غزوات محمد بَلُّو، وجعله قائدًا لجيشة لما رآه ميمون النقيبة مظفرًا منصورًا، وكان يخطب في الجنود ويرفع معنوياتهم، وتعلم طرائق الحرب التي اشتهر بها جيش الفوديين.

وأطلعه محمد بَلُّو على أسرار دولته، وجعله بجواره في سائر أعماله، ومكث معه سبع سنوات، وزوجه ابنته.

واطلع على الإنتاج العلمي الضخم الذي تركه عثمان بن فودي، وأخوه عبد الله في شتى المجالات الشرعية، خاصة أمور السياسة والحكم.

وفي سوكوتو تعلم طرق الحكم، واستفاد من الغزوات الحربية في بناء علومه العسكرية، فكوَّن الخبرة اللازمة لإقامة دولته الإسلامية بعد ذلك.

وقد استطاع جمع مال جزيل من غزواته مع الفوديين؛ فاشترى به رقيقًا وتاجر به، مما مكنه من تكوين ثروة طائلة كانت معينة له في إنشاء دولته بعد ذلك، وفي سوكوتو ألف كتابه: «الرماح».

ولما مات الخليفة محمد بلو سنة ١٢٥٣ بقي عمر الفوتي في سوكوتو سنة واحدة، ثم غادرها إلى بلاده، وقد اكتسب من هذه الرحله الطويلة أمورًا منها:

١- العلم الشرعي الذي مكنه من تبوُّؤ المكانة الجليلة في بلاده، وأذعن له الناس.

٢- الوعي بمخططات الأعداء وأطماعهم في بلاد الإسلام عامة وفي إفريقيا خاصة.

٣- الخبرة الجهادية العسكرية.

٤- الخبرة في شؤون الحكم.

٥- الاطلاع عن كثب على أحوال المسلمين والوثنيين في وسط إفريقيا وغربها، وعرف أن المسلمين مشتتون ومتفرقون في مناطق كثيرة.

ومن أعظم ما تأثر به الحاج عمر الفوتي من بقائه مدة في الدولة الفُودية هو تأثره بآراء عثمان بن فودي الفقهية وعلى رأسها أنه يَعُدّ الموالين للكفار من المسلمين كفارًا يجب جهادهم، واعتمادًا على هذا المبدأ قاتل الحاج عمر عدوّه أحمد بن أحمد وقتله كما سيأتي.

فعزم -لأجل كل ذلك- على تكوين دولة إسلامية تقف أمام مطامع النصارى، وتنتشر الإسلام، وتحارب الوثنية.

مراحل إنشاء الدولة:

في سنة ١٨٣٩ وصل الشيخ عمر الفوتي إلى حَمد الله عاصمة ماسينا - وهي تقع اليوم في مالي - في عهد السلطان شيخو أحمدو بن حَمَدِ لُبُ الذي حاول قتله، لكن الله تعالى نجاه.

وغادرها متوجهًا إلى سيجو Segou ، وحاول ملكها -وكان كافرًا- أن يقتله لكن الله نجاه بفضله، وكل محاولات قتله السابقة كانت لتوجس الحكام منه خيفة على ملكهم لِما رأوا من مواهبه واستعداده للجهاد.

ثم غادرها سنه ١٨٤٠ وتوجه إلى فوتو جالون، وأقام في عاصمتها تيمبو timpo - وهي في غينيا اليوم- وقيل: سكن في جقنكو أربع سنين، وتدخل في إصلاح أزمة الحكم التي نشأت بعد وفاة السلطان يحيى؛ مما جعله يشتهر بين الناس.

ثم بعد قضائه أربع سنين هنالك توجه إلى موطنه فُوتا طُور، وهي بالقرب من الحدود السنغالية الموريتانية اليوم، وزار مسقط رأسة حَلْوار، فوصلها سنة ١٢٦٢/ ١٨٤٦ بعد غياب عشرين سنة تقريبًا، فمكث فيها ستة أشهر، ثم غادرها إلى فوتا جالون مرة أخرى.

وقد حدثت له حوادث كثيرة هنالك، ودار في قرى وبلدات كثيرة إلى أن استقر في موضع يسمى دينغراوي، وهي جزء من مملكة يَنْبَ سَاخُ، وهو ملك وثني لكنه سمح للشيخ بالبقاء في مقابل صاع من الذهب كل عام، فأقام بها ثلاث سنوات، ثم بدأ الجهاد، فكان جملة ما مكثه منذ رجوعه من الحج بداية الجهاد ثنتي عشرة سنة.

وكان قد غزا بنفسه ثنتين وثلاثين غزوة حتى استشهاده، والسرايا التي أرسلها خمسين سَرِيّة؛ فانظر إلى همته في الجهاد، رحمه الله تعالى.

خطوات قطعها في الجهاد:

١- أقام الحاج عمر في منطقة من مناطق فوتا جالون بالقرب من الحدود المالية السنغالية الموريتانية، وأنشأ مركزًا للتعليم وفد إليه أعداد كبيرة من الراغبين في تعلم العلوم الشرعية، وكان من هؤلاء من برع في العلوم وتميز عن أقرانه فأرسلهم الحاج عمر إلى المناطق المجاورة؛ للدعوة إلى الله، ونشر الإسلام في القبائل الوثنية، وتنبيه المسلمين إلى الأخطار المحدقة بهم من قبل الفرنسيين ودعوتهم إلى الجهاد، وربى هؤلاء على الاستعداد للجهاد، والذود عن البيضة، ورد المعتدين.

٢- استعد للجهاد؛ بتخزين المواد اللازمة له من سلاح ومؤنة، وجنّد الرجال، وظل في هذه المرحلة قرابة عشر سنوات.

٣- أعلن الجهاد في سنة ١٢٦٩/ ديسمبر ١٨٥٢ بعد أن هاجمه ملك الوثنيين يمبا ساخو Yimba Sakho، وسقطت مدينة تامبا، وحاز المجاهدون على غنائم كثيرة من الذهب، وهذا أدى إلى اشتهار الشيخ عمر الفوتي، ومهادنة سلطان فوتا جالون له، وقد أدى هذا إلى استجابة أعداد كبيرة من الفوتيين لدعوة الحاج عمر، ولحقوا به للجهاد في سبيل الله تعالى في مدينة دينغراي Dinguiray فكون منهم جيشًا كبيرًا حارب بهم الوثنيين في سيجو وفي ماسينا وفي غيرها، ودخل كثير من الوثنيين في دين الله تعالى، ومن لم يقبل منهم الإسلام حاربه.

٤- استولى على القرى والبلدات والمدن واحدة تلو الأخرى حتى استقر له الأمر في مناطق كبيرة من مالي والسنغال، ومن أهم وقائعه استيلاؤه على سيجو Segou وتولية ابنه أحمدو تال عليها.

واستولى على ماسينا -على أنها كانت مملكة مسلمة- لأنها ساعدت إمبراطور سيجو، بجيش يقدر بثلاثين ألفًا، وهذه خيانة، ونقض لعقيدة الولاء والبراء، لأن إمبراطور سيجو كان وثنيًا، وقبض على أحمدو شيخو حاكم تال ماسينا وأعدمه، وعين الشيخ عمر ابنه أحمدو تال حاكمًا عليها وذلك سنة ١٢٧٧/ ١٨٦٢م.

٥- بنى المساجد والمدارس، التي ظل بعضها مركز إشعاع كبير حتى بعد تقويض دعائم الدولة الفوتية مثل المدرسة التي في قرية بكيجوي.

٦- استطاع أن يجذب عددًا من الموالين له من خارج المنطقة، ومن أبرزهم الشيخ أحمد العلوي التيجاني الشنقيطي الذي وقف معه في جهاده، وترجم له، ونشر أخباره في شمال المغرب، ومنهم الشيخ محمد بن محمد الصغير العلوي الشنقيطي الذي جاهد مع الحاج عمر -على كبر سنه- ودافع عنه شعرًا ونثرًا، ومنهم الشيخ أحمد ابن بدي العلوي الذي دافع عن جهاد الشيخ عمر الفوتي ورد الشبهات عنه.

وهذا يدل على أن الشيخ نجح في جذب الكبراء والعلماء من خارج المنطقة إلى جهاده وعمله .

٧- أقام دولته على الشريعة الإسلامية ، وحرم الخمر ، وحطم الأصنام ، وأشاع العدل بين الناس .

٨- هاجم الفرنسيين ، ثم عقد معاهدة معهم سنة ١٢٧٦/ ١٨٦٠م أي : قبل موته بأربع سنين .

وكان العداء مع الفرنسيين قد استحكم منذ سنة ١٨٤٥ حين طلب الشيخ منهم السلاح فلم يعطوه ، ثم عمل الفرنسيون على إثارة الحكام الوثنيين والمسلمين ضده ، بل العجيب أنهم استمالوا بعض الفقهاء ومنهم قاض اسمه أبو المغداد ، وكان قاضيًا بسانت لويس ، وعمل مع الإدارة الفرنسية مترجمًا منذ سنة ١٨٥٥ ، واستمر ذليلاً لهم إلى وفاته سنة ١٨٨٠ ، وكان هذا الفقيه يطعن في الحاج عمر ويشكك في جهاده ، وهكذا تنعدم عقيدة الولاء والبراء في نفوس الضعفاء ولو كانوا فقهاء .

وهاجم الشيخ عمر الفرنسيين في عدة وقائع ، لكن كانت قوة الفرنسيين أكبر بكثير ، خاصة أن الوثنيين تمالأوا مع الفرنسيين عليه ، وساعدهم بعض الحكام المسلمين ؛ وهذا لضعف عقيدة الولاء والبراء لدى هؤلاء الحكام ، ولخوفهم من الشيخ عمر الفوتي ، فرأى الشيخ عمر أن يهادن الفرنسيين حتى يتفرغ لإقامة دولته بعيدًا عنهم لكن لم يعاهدهم في معاهدة مكتوبة ، إنما صنع ذلك ابنه أحمد من بعده ، وجعل الفرنسيون منطقة يسار نهو النيجر إلى الشرق للشيخ ، وما كان يمين النهر إلى الغرب فهو لهم ، وتعاهدوا ألا يقع أحدهما على الآخر .

وكان الشيخ عمر يعلم أن الفرنسيين إنما يريدون ابتلاع كل المنطقة ، وإنما يعقدون المعاهدات للاستعداد والتهيؤ للحرب مرة أخرى ، فمعاهداتهم لا تساوي المداد الذي تكتب به ، فقد احتلوا تلك المناطق بعد موت الشيخ بمدة طويلة ، وذلك سنة ١٣٠٨/ ١٨٩١ ، وبقيت في أيديهم ٧١ سنة إلى أن أذن الله بانقلاعهم سنة ١٣٧٩/ ١٩٦٠ ، ولم يخرجوا إلا ليتفرغوا لمواجهة الثورة الجزائرية التي كانت في أوج قوتها آنذاك .

مؤلفات الحاج عمر:

كان له مؤلفات عديدة منها: النصح المبين، المقاصد السنية، تذكرة الغافلين، فلاح الطالبين، تذكرة المسترشدين، رماح الحزب الرحيم على نحور حزب الرجيم، سيوف السعيد، سفينة السعادة.

صفاته الشخصية:

كان ذكيًا، عابدًا، زاهدًا، صاحب همة عالية، وإرادة قوية، وحماسة كبيرة، وكان له من صفات القيادة الشيء الذي هيأه لإقامة دولة كبيرة ورعايتها.

وكان خطيبًا مفوهًا يأسر السامعين، وشاعرًا، وأديبًا.

وساعدته رحلاته على الاطلاع الواسع على أحوال العالم الإسلامي، على العكس من حال أغلب أهل زمانه وبيئته.

استشهاد الشيخ:

عقب سقوط ماسينا تحالف ضد الشيخ عمر زعماء المنطقة، ومنهم بالوبو Balobo عَمّ أحمدو شيخو الذي أعدمه الحاج عمر كما ذكرت من قبل، وأخوه عبد السلام، وكانا قد هربا من ماسينا بعد استيلاء الحاج عمر عليها، وأحمد الكنتي البكائي الذي كان رئيس الطائفة البكائية في تنبكتو - في مالي اليوم- وانتهى الأمر إلى محاصرة الشيخ عمر في مدينة حَمْد الله في ماسينا، حيث حوصر ثمانية أشهر وثمانية عشر يومًا، ثم نجح في الهرب منها مع بعض أبنائه وقواده، ولجأ إلى غار في جبل في بانجفرا، فحوصر في قلعة هنالك، فأضرم أعداؤه النار فمات اختناقًا، وقيل: إنه هو الذي أمر بإضرام النار حتى لا يقع في أيديهم، وأنا أستبعد هذا، فالله أعلم بما كان من ذلك، وقد وقع هذا في يوم الجمعة ٣ رمضان/ ١٢٨٠، ١٢فبراير ١٨٦٠.

كان الشيخ المجاهد عمر الفوتي قد عين ابنه أحمدو تال نائبًا عنه في سيجو، وطلب من أبنائه أن يطيعوه ويوالوه من بعده، وأخذ عليهم بذلك القسم، ثم طلب منهم ومن سائر وجهاء بلاده إعادة البيعة لابنه لما دخل ماسينا، لكن النزاع دب بين أبناء الشيخ

بعضهم بعضًا، وبين بعض وجهاء قادته بعد وفاة الشيخ عمر الفوتي، وتفككت الدولة إلى أجزاء سيطر على كل منها قائد من قواد عمر الفوتي، وظل أحمدو تال بن عمر الفوتي يدعي السيطرة على كل دولة والده، وغيَّر لقب الخلافة إلى لقب أمير المؤمنين سنة ١٢٨٤/١٨٦٨ أي: بعد وفاة والده بأربع سنوات، لكنه ظل في نزاع مع إخوته.

وأما منطقة كارتا فقد حكمها مصطفي أحد عبيد الشيخ عمر الفوتي، وذلك من سنة ١٨٦٠، أي: قبل وفاة الشيخ عمر بأربع سنوات.

وحصل خلاف بين الأطراف المتحالفة للقضاء على الشيخ عمر، حيث اختلف بالوبو عمّ أحمدو شيخو مع أحمد الكنتي البكائي، وذلك لأن البكائيين طلبوا من الماسينيين ورئيسهم بالوبو أن يكون لهم السيطرة والحكم في ماسينا، وعللوا ذلك بأن الماسينيين كانوا تحت حكم الشيخ عمر الفوتي، وأنهم أنقذوهم من حكم الفوتيين.

وحكم أحمد التجاني -ابن أخ الشيخ عمر- ماسينا بعد استشهاد الشيخ، وظل بها مستقلاً إلى وفاته سنة ١٨٨٧، واستفاد من الخلاف بين أحمد الكنتي وبالوبو، وتولى بعده أحمد المدني إلى سنة ١٨٩٠، وفي عهده صارت ماسينا مركزًا مهمّا من مراكز تعليم الإسلام.

لكن الفرنسيين كانوا هم المستفيد الأكبر من كل تلك المؤمرات والخلافات، واستولوا على كل المنطقة بعد ذلك، مستفيدين من الإذن العام الذي أعطاهم إياه الأوربيون بعد معاهدة برلين سنة ١٨٨٤.

نتائج حركة الشيخ الحاج عمر الفوتي:

وهكذا انتهت دولة الشيخ عمر الفوتي عقب جهاد طويل، لكن حَسْبُه أنه صنع التالي:

١- أنشأ كيانًا وقف به في وجه الأطماع الفرنسية مدة طويلة نسبيّا.

٢- جمع كثيرًا من أفراد القبائل العديدة المنتشرة في المنطقة، ووحدهم تحت لوائه، وكانت المنطقة تئن من الفرقة والخلاف وكثرة الدول الصغيرة الضعيفة، فأنشأ دولة كبيرة نسبيّا جمعت أشتاتًا من الناس.

٣- نشر الإسلام في تلك الأصقاع الوثنية .

٤- قضى على بعض البدع المنتشرة في المنطقة .

ولو تفاهم مع الحكام المسلمين في المنطقة ، أو تكاتف معهم لتغير التاريخ هنالك ، لكن أبت علة العلل وهي الاختلاف بين المسلمين إلا أن تهدم أركان هذه الدولة ، وتفسح الطريق أمام فرنسا للاستيلاء على كل المنطقة بعد ذلك .

وبقي مصير تلك الدولة الإسلامية منبهًا ومذكرًا للمسلمين في كل مكان أن عاقبة الاختلاف وخيمة ، وأن التفرق والحرب بين المسلمين هو الذي مكن الكفار من رقابهم في كل مكان ، وأن عقيدة الولاء والبراء إذا اختلت بتعاون حكام المسلمين مع الكفار من الفرنسيين والوثنيين ضد إخوانهم المسلمين فإن عاقبة ذلك وخيمة جدًا ، والله المستعان .

قال عنه الفرنسيون:

قال عنه أحد الضباط:

«لقد كان الحاج عمر أكبر ممهد لمن أتوا بعده من الزعماء الإفريقيين الذين قاوموا - على غراره - الاستعمار الفرنسي ، لأنه كان يمثل الطموح والحماس الصوفيين ، وقد استطاع بنفوذه وقوة شخصيته أن يقوي رابطة الوحدة الإفريقية بين أتباعه المنتسبين إلى القبائل المختلفة»(١) .

وقال عنه مولارد:

«لولا الاستعمار الفرنسي لنجح الحاج عمر في إقامة دولة واحدة إسلامية في إفريقيا الغربية»(٢) .

---

(١) «ذكرى مرور مائتي سنة على ميلاد الشيخ الحاج عمر الفوتي تال» : ندوة دولية : ص٤١-٤٢ .

(٢) المصدر السابق .

وقال عنه بوبكر باري:

«إن الحاج عمر هو -بلا شك- أجلّ من تابع حمل مشعل الحركة الإصلاحية التي لم تفتأ منذ ناصر الدين[1] في القرن ١٧ تهز الوضع السياسي والاجتماعي والديني في منطقة سنغامبيا»[2].

«وقد كان الحاج عمر يحلم بتأسيس إفريقيا الإسلامية التي تمتد من تشاد إلى السنغال، ومن مرتفعات آداماوا إلى مرتفعات فوت جالون وفوت تور»[3].

وأختم بنص معبر عن جهاد الشيخ عمر الفوتي وأمثاله في إفريقيا السوداء للفرنسيين؛ فقد قال برنوا موري في مؤلفه «الإسلام والنصرانية في إفريقيا»:

«إن الكولونيل أرشيغارد بأخذه جنة وبند جاقرا أوقف غارة التيجانية في هذا القسم من إفريقيا، ويسّر فتح السودان[4] بين يدي المدينة الأوربية . . . مما خلّد أعظم الشرف للعساكر الفرنسيين، وأعاد ذكرى ظفر شارل مارتل في بوايتيه[5]، بسبب ما كان يترتب من النتائج العظام لمستقبل إفريقيا لولا هذا الظفر»[6].

●●●

(١) وهو مصلح موريتاني توفي سنة ١٦٧٧م.
(٢) المصدر السابق: ٥٧.
(٣) المصدر السابق ببلاد التكرور.
(٤) يقصد بالسودان بلاد السُّود من السودان إلى المحيط الأطلسي، ويعبر عنها.
(٥) وهي المعركة التي جرت بينه وبين عبد الرحمن الغافقي في الأراضى الفرنسية بالقرب من باريس.
(٦) «ذكرى مرور مائتي سنة على ميلاد الشيخ الحاج عمر الفوتي تال»: ندوة دولية: ٢٧.

الفهرس

●●●



د / محمد بن موسى الشريف
المشرف على موقع التاريخ





